تَوْطِئة
بيَانُ أهمِّيةِ الكِتَابِ ومَوْضُوعِه

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمْدُ لله، أحمَدُه بجَمِيعِ محامِدِه، وأُثنِي علَيْهِ بما هُوَ أَهْلُهُ ثَناءَ مَن مجَّدَه، وأُوَحِّدُهُ سُبحانهُ في ربُوبيَّتِهِ وَإلهِيَّتِهِ وأسْمائِهِ وصِفَاتِهِ لَا شَريكَ لَهُ وأُفرِدُه، وأُصَلِّي وأسلِّم علَىٰ صاحِب الخلُق العَظِيم، والسَّمت القَوِيم، وعلَىٰ آله وأصحابه جميعًا أُولِي الفَضْلِ والأدَب الكَرِيم.

أمَّا بَعْد:

فَقَدْ رأيتُ أكْثَرَ أهلِ زمَانِنَا هَذَا عَن سَبِيل الأدَب نَاكِبين، ومِنِ اسْمِهِ مُتَطَيِّرِينَ، ولأَهْلِهِ مُزْدَرِين، أمَّا النَّاشِئُ مِنهُم فرَاغِبٌ عن التَّعلِيم، وَأمَّا الشَّادِي فَتَارِكٌ لِلازْدِيَاد، وَأمَّا المتأدِّبُ في عُنْفُوَان الشَّبابِ فَـنَاسٍ أو مُتَنَاسٍ؛ لِيَدْخُلَ في جُملةِ المجْدُودِين، ويَخرُجَ عن ذَوِي الأَخْلَاقِ المحْدُودِين.

فَلَمَّا تأمَّلتُ ما سَبق؛ رَاودَتْنِي نَفْسِي كَثِيرًا كَثِيرًا أنْ أكتُبَ في أسْبَابِ مَا خَفَق، وأنسُجَ علَىٰ مِنْوَال مَن كَتَبُوا؛ لعَلِّي أُوَفَّق، لَا سِيَّما وفي ذِهْنِي يتَردَّد قوْلُ ابْنِ القَيِّمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أَدَبُ المرْء: عُنوَان سَعادتِهِ وَفلَاحِه، وقِلَّةُ أدبه: عُنوَانُ شَقاوَتِهِ وبَوارِه،

فما استُجْلِبَ خَيْر الدُّنيا والآخِرَة بمِثْل الأدَب، ولَا استُجْلِبَ حِرْمَانُهما بمِثْل قِلَّة الأدَب»[(١)].

وكُلَّما همَمْتُ الإعْمَال؛ توَاردَتْ عَليَّ الأشْغَال -وَمَا أكثَرَهَا!-؛ فأجِدُ نفسِيَ مُنْثَنِيةً... وهكَذا، حَتَّىٰ أتحفَنِيَ الأخُ الكرِيم الشَّيخ/ أبُو عمَّار محمُود سُليمَان -حَفِظَهُ اللهُ- كِتابًا جَمَّ الفَوائِد، بَدِيعَ الفَرَائد، يَنتَفِع به المبتدِي، وَيَحْرِصُ علَيْهِ المُنْتَهِي -مُؤْثِرًا إيَّايَ علَىٰ نَفْسِه، مُقترِحًا تَحْقِيقَه والتَّعلِيقَ علَيْه؛ فمَا تَاقَتْ نَفْسِي إلَّا مُطاوَعَة، ولَا أنامِلِي إلَّا عمَلًا وَمُتابعَة، ولَا هِمَّتِي إلَّا دَأَبٍ ومُسارَعَة -كَيْفَ لَا! وَالكِتَابُ لَم يْخلُ مِن مِيزَاتٍ أو مَنْفعَة، أُعْطِيكَ خمسًا مِنْها فِي الآتِي وَاقِعَة:

أُولاهُنَّ: أنَّه فِيما دارَ بخاطِري، فمَا كانَ لي أنْ أتقدَّم بَيْن يَدَي مُؤلِّفه رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فكَان إخرَاجُه أوْلَىٰ وأحْرَىٰ مِن كِتابَتِي.

ثَانِيهِنَّ: أنَّ مُؤلِّفَهُ عَلَّامَةٌ مُرَبٍّ كَبِير، لَا يَعرِفُه إلَّا مُتعَلِّمٌ نِحْرِير، أو عَالِمٌ بَصِير، وَلَكِنَّ نَصِيبَهُ مِن الشُّهرَةِ فَقِير؛ إلَّا أنَّ اللهَ عوَّضهُ بولَدَيْنِ علَمَيْن عالِـمَيْن، شُهْرَتُهما في الآفَاق وَاسِعَة، وعُلومُهما بَيْن الأنَامِ ذَائِعَة -إنَّهما: (العلَّامة المُحدِّث المُحقِّق/ أحمَد محمَّد شاكِر)، و(العلَّامَة الأديب المُحقِّق/ محمُود محمَّد شاكِر).

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٦٨).

فَكَانَ لهُما (الأب، والشَّيخ، والمُربِّي)، فحِينَما يَكتبُ في التَّربيةِ والأدَبِ والأخلَاق؛ ألَا تُقْتَنصُ كلِماتُه لنَرىٰ ذلك الَّذِي أخرَجَ لِلعالَم هذَيْن العَالِـمَيْن؟!

ثَالِثهنَّ: يُسْر الأسْلُوب، وَالعِبَارات العَذُوب، والعَهْد المَـقْـرُوب.

رَابِعهنَّ: نَدْرَة الكِتَاب، حَيْثُ لم يُطبَع إلَّا مَرةً -في حدِّ عِلْمِي وبَحْثِي-، وسَيأْتِي الكلَامُ عَنْهَا، وعن النُّسْخَة الخَطِّـيَّة.

خَامِسهُنَّ: أنَّه في التَّرِبيَة، والأدَب، والأخْلَاق، وما يَجِبُ مِن حقُوقٍ علَىٰ المسْلِم عالمًا كانَ أو مُتعلِّمًا.

وهَذِه الأخِيرَة أهَمُّ المهِمَّات في هَذِه المِيزَات، فالنَّاظِر بإنْصَافٍ فِي حَالِنا اليَوْم -يَدْمَىٰ قَلبُه حَزنًا، وتَـنْـتَفِخُ أوْدَاجُه غيظًا علَىٰ ما يَجِدُ مِن تدَهْوُر الأخْلَاق، وَنقْض الآدَابِ بِحَلِّ مَا لِلأُمة مِن وَثَاق؛ حتَّىٰ أحْدَث ذَلِكَ فِي جِدَار بُنْيَانِهَا الانبِثَاق -الَّذِي يُدمِّر ما فِيهَا مِن وِفَاق؛ وكأنَّنِي أتأمَّل قَوْلَ أبي بكرٍ الواسِطِيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لمَّا قال: «ابْتُلِينَا بزَمَانٍ لَيْسَ فِيه: آدَاب الإسْلَام، ولَا أخْلَاق الجَاهِلِيَّة، ولَا أحْلَام ذَوِي المُرُوءَة»[1].

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ٣٧٢).

فصِرْنَا نَرَىٰ هَذَا في غَالبِ مَا يُحِيطُ بِنَا مِن عدَم المُبالَاة، وانعِدام المرُوءات، وتسَكُّع الشَّباب والبَنات -سَوَاء في الواقع، أَوْ صَفحَات الموَاقِع!-، وخلُوِّ المسَاجِد، وتَفشِّي الكَذِب، وكَثْرة الخِيانَة، وانتِشَار الغِيبَة، والقعُود عن الكَسْب بالبطَالةِ، أو اللَّجْءِ إِلَىٰ التَّسَوُّل بشَتَّىٰ صُوَرِه المعْلُومَة وغَيْر المعلُومَة، وَطلَاقِ الانتِماء لِلوَطَن تَطْلِيقًا.. إمَّا بُغضًا وحَنَقًا، أو إساءةً وتَهاوُنًا، أو تخرِيبًا وإفسَادًا، وعدَمِ احتِرَام المُـعَلِّم والمُربِّي وَالشَّيْخ، وترْكِ الأمْر بالمعرُوفِ وَالنَّهيِ عن المُنكَر، وجَعْل النَّصِيحَة ازْدِرَاءً، وأكْـثَر مِن ذلك... مِمَّا لو انتشَر أكثَرُ مِن انتِشَاره اليَوْم؛ لأدَّىٰ لِلهلَاك الَّذِي لَا قِيامَةَ لَه.

ومِنْ أسبَاب هَذَا الانْحِدَار يومًا بَعْدَ يَوْم:

١- الانفِتَاح الحاصِلُ بزَعْم الحُرِيَّة.

٢- غِيَاب المُتابعِين والمُربِّين، أو غَفْلَـتُهم، أو انْشِغَالُهم.

٣- مَناهِجُ التَّعلِيمِ وغزَارتُها، وتَعْقِيدهَا، وغِيَابُ كثِيرٍ مِنهَا عمَّا يُواقِعُه الطُّلَّاب مِن أُمُور دِينهِم ودُنياهُم.

٤- إهمالُ أخْذِ علُوم الشَّريعَة عَنِ العُلماء المَوْثُوقِين، وطُلَّاب العِلْم المُتميِّزين.

٥- القنَوات والإعْلَام.. حدِّث ولَا حرَج، (برامج - أفلَام - مسلسلات ...)، إلخ.

٦- الانترنِت دون ضَوابط.

٧- ظهُور علُوم وكتُب أو إحياؤها، ظنَّها النَّاسُ خيرًا، وهِيَ أبْوَابٌ لِلْإلحَاد، أو التَّطرُّف الدِّينِيِّ، أو الانفِلَات الأخلَاقِيِّ.

٨- القِرَاءة التَّعَدُّدِيَّة المُنوَّعة دُونَ رُسُوخ؛ أخْذًا عن الغَـرْب في كلِّ مَا هبَّ ودَبَّ، دُونَ تمحِيصٍ ولَا تَفْحِيص.

كلُّ هذَا وغيره مما شابَه استبدالٌ لِلأدنَىٰ بالخير، فالمنَاهِج الغَربِيَّة وبعض علُومهَا -خصُوصًا ما يتعلَّق بالتَّربية والأخلَاق كالفَلْسَفة، والعَقْلَانِيَّة، والتَّنمِيَة البشَريَّة، وعُلوم النَّفس، والرِّوَايَات والأدَب، وضُروب الكتُبِ التي تُعنْوَن بـ«كيف تكون..؟»، و«كيف تُصبح...؟»، و«كيف تُواجِهُ...؟» وأشباهها مِن الأَجْنَبِيَّات المُترجَمَات... فيها مِن الثَّغرَات، وعلَيْهَا مِن المآخِذ ما يجعلُها عَاجِزةً عن تحقيق الكَمال الإنسَانِيِّ، بل نجحَتْ في الفسَاد المجتمَعِيِّ -شَعرْتُم بذَلِكَ أَوْ لَمْ تشْعُروا-؛ فَلَا يَصِحُّ التَّعوِيل -في مَعرِفَة النَّفس وأخلَاقها، ومَا يُهذِّبها ويُروِّضها- علَىٰ التَّحسِين والتَّقبِيح العَقْلِي الَّذِي صَارَ النَّاس اليَوْم إلَيْه؛ كَأَنْ يَقُول بَعْضُهم: «أفْعَلُ مَا أقتَنِعُ به»! ولَا يَنظُر إلىٰ مَآلاتِه.. لَا يَنظُر إلَّا لقنَاعَاتِه!

معَ أنَّ الله -سبحانه- قد أغنَانَا وكفَانَا بدِينِنَا الكَامِل الشَّامِل؛ فأبَىٰ بَعْضُهم إلَّا أخْذَ مَا يُرِيد، وتَرْك ما يُفيد.

وقَد قَالَ تعالىٰ شَأنُه: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾.



إذَنْ، لابد مِنْ أنْ نَعْرِفَ ماذَا نَقْرأ.. ولِمَنْ نَقْرأ؟ حتَّىٰ لَا يَكُون بَعْضُنا كحَاطِبِ لَيْل: لَا يَدْرِي أيُمْسِكُ في هَذِه الظُّلمات -ظُلمات المجْتَمَع بفِتَنِه- عصًا يُشْعِلُها لِلاسْتِضَاءة، أوْ حَيَّةً ناعِمةَ الملْمَس تَلْدَغُه!

ولِذَا، فقَدْ نَقْبَل ابنُ سِينَا طَبِيبًا، ونردُّه فَيلْسُوفًا أو عَالِم دِين؛ لمخَالَفتِه أُصُولَ الدِّين، وَمُخالفَتِنَا الفَلْسفَةَ أصْلًا، وهَذَا مَا فعَلَهُ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِيمَا نَقَل مِن طِبِّه.

وامتَدَح شيخُ الإسلَام ابنُ تيمِيَّةَ كتابَ «المهلكات والمنجيات» مِن «إحيَاء علُوم الدِّين» للغَزالي، وفَـلَّ بَاقِيهِ فَلًّا.

وَسُئِل أحَدُ العُلمَاء: هل قرأتَ أدَبَ النَّفسِ لأرِسْطُو؟

قال: بَلْ قرأتُ أدَبَ النَّفسِ لمحمَّدِ بن عَبْدِ الله، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

ونَحْن -أُمَّة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يتَعيَّن علَيْنا هذَا قَـبْل غَيْرنَا؛ لأنَّ الأخلَاق ضِمْنَ أُسُسِ دِينِنَا، والقُرآن يُكرِّر الثَّناء علَىٰ الشِّيَم الطَّـيِّبة الَّتِي كان يَتحَلَّىٰ بها الأنبِيَاءُ والصَّالِحُون -في إشَارةٍ للأُمَّةِ بأنْ تَجْعلَها عبادةً يُتقَرَّب بها إلىٰ الله.

وقد كتَبَ عُلماؤنا مِمَّن سَلكُوا المنهج القُرآنِيَّ والنَّبَوِيَّ في الكلَام عن الأخلَاق

بإزاء الفلَاسِفَةِ والمتكَلِّمِين وَالبُوذيِّين، وكان مَنْهَجهُم في كتابَاتِهم وتَأْدِيبهم ونَصَائحِهم وخِبْرَات حيَاتهم.. بَل حَياة مَن بَعْدَهُم -لم يخرج عن هَذَا المنهج المعْصُوم، إلَّا أنه لَا يَزالُ الفَارقُ كبيرًا بَيْنَ صِحَّة هذَا المنهج المعْصُوم، وبَيْن فسَاد المنَاهِج الأُخْرَىٰ، وإنْ أصَابَ أصْحَابُها في بعضٍ! وذلِكَ بِناءً علَىٰ الأصل.

فجَاء هذا الكِتَاب:

-**«وَصَايَا الآبَاء لِلأَبْنَاء»** أو **«الدُّرُوس الأَوَّلِيَّة في الأخلَاق المرْضِيَّة»**، وبِهَذيْنِ الاسْمَيْن سمَّاهُما صَاحِبُهما رحمه الله- مُشَاركًا في هَذَا البَاب، بل أبواب أُخَرَ، حَيْثُ جَاءتْ فِيهِ جُملةُ الأخلَاق والآدَاب وتفَاصِيلُهَا، وَعرَّج علَىٰ مسَائل لم يتعَرَّض لها كثِيرُون غيرُه سَوْف تمرُّ معَنا.

ومِمَّا كُتِبَ قبلُ في هَذَا البَاب علَى سَبِيل المثَال:

١- «الزُّهْد» لِابن المبارَك.

٢- «الزُّهْد» لِوَكِيع بْنِ الجرَّاح.

٣- «الزُّهْد» لأحْمدَ بْنِ حَنْبَل.

٤- «الجَامِع الصَّحِيح».

٥- «الأدَب المفرَد»، كِلَاهما لِلإمَام البُخَارِي.

٦- «الإخْلَاص».

٧- «الأمْر بالمعرُوف».

٨- «الحذَر والشَّفَقة».

٩- «ذِكْر الموت».

١٠- «ذَم الغضَب».

١١- «الرِّضَا عن اللهِ والصَّبْر علَىٰ قضَائه».

١٢- «الغِيبَة والنَّمِيمَة».

١٣- «القنَاعَة».

١٤- «الصَّمْت وآدَاب اللِّسَان»، كلها لِابن أبِي الدُّنيا.

١٥- «عمَل اليَوْمِ واللَّيْلة» لِلنَّسَائِي.

١٦- «مكَارِم الأخلَاق ومَعَالِيها».

١٧- «مَسَاوئ الأخلَاق ومَذْمُومها»، كِلَاهما لأبي بكر الخرَائطِي.

١٨- «أخْلَاق حمَلَة القُرآن».

١٩- «أخْلَاق العُلمَاء».

٢٠- «أَدَب النَّفس».

٢١- «أهْل البِرِّ والتَّقوَىٰ»، كلها لأبي بكر الآجُرِّي.

٢٢- «شُعَب الإيمان» للبيهقي.

٢٣- «رِيَاض الصَّالحِين» للنَّوَوِي.

٢٤- «الفَوَائد».

٢٥- «مدَارِج السَّالكِين».

٢٦- عُدَّة الصَّابِرين».

٢٧- «إعلَام الموَقِّعِين».

٢٨- «الدَّاء وَالدَّوَاء».

٢٩- «إغَاثة اللَّهْفَان»، كُلها لابن القَيِّم.

٣٠- «الآداب الشَّرعِيَّة» لابن مُفْلِح.

٣١- «غِذَاء الألْبَاب» لِلسَّفَّارِينِي.

وغيرهَا كثيرٌ جدًّا، ولم يَقِف الأمر علَىٰ هذَا، بل دُوِّنَت كَلِمَاتُهم، في عُصُور متقدِّمَة، حَيْثُ كَان الخير فِيهَا أَخْيَر مِن بَعْضِ خَيْرِنا.

فإذَا علِمْتَ هَذَا، وعَلِمْتَ قَوْلَ أحَدِهِم: «نَحْنُ إِلَىٰ قَلِيلٍ مِنَ الأدَبِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ العِلْم»[1]؛ فمَاذا أنتَ اليَوْم قَائِل؟!

وعَنْ أَبِي نَصْرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **قَال: «الأدَبُ ثلَاثة: أَدَبُ** أهل الدُّنيا: فِي نَحْو الفصَاحَة، وحِفظ العُلُوم، وأسْمَار الْملُوك، وأشْعَارِ العَرب. وأدَبُ أهْلِ الدِّين: في نَحوِ رِيَاضة النُّفوس، وتأدُّب الجوَارِح، وحِفْظ الحدُود، وترْكُ الشَّهوات. وأدَبُ

(١) أورده القشيري في «الرسالة القشيرية» (ص١٢٩) عن عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

أَهْلِ الخصُوص: فِي نحو طَهارَة الْقُلوب، وَمُراعَاة الأسرار، وَالوَفَاء بِالعُهُود، وَحِفْظ الوَقْت، وقلَّة الِالْتِفَات إِلَىٰ الخَواطِر، وَحُسْن الْأَدَب فِي مَواقِف الطَّلَب، وأوْقَات الحضُور، ومقَامَات القُرْب»[١]؛ فهَلْ نَحنُ فِي نَوْعٍ مِن الثَّلاثَة؟!

وقَال **الإِمَامُ مَالِكٌ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كَانَتْ أُمِّي تُعَمِّمُنِي، وتقول لي: اذْهَبْ إِلَىٰ رَبِيعَة، فتعَلَّمْ مِنْ أدَبِه قبْلَ عِلْمِه»[٢].

وكان تِلْمِيذُه ابنُ وَهْب يَقُول: «مَا نقَلْناهُ مِن أدَبِ مَالِكٍ أكْثَر مما تعَلَّمْناهُ مِنْ عِلْمِه»[٣].

وقَال أيضًا: «سَمِعتُ مَالِكًا يقول: إِنَّ حقًّا علَىٰ مَنْ طلَبَ العِلْم أنْ يَكُونَ لَهُ وَقارٌ وسَكِينَةٌ وخَشْية، وأنْ يَكُونَ مُتَّبِعًا لأثَرِ مَنْ مَضَىٰ قَبْلَه»[٤].

وقَال **الخطِيبُ البَغْدادِيُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والواجب أنْ يَكُون طلبَةُ الحَدِيثِ أكْمَل النَّاسِ أدبًا، وأشَدَّ الخَلْق توَاضُعًا، وأعْظمَهُم نزَاهةً وتدَيُّنًا، وأقَلَّهم طَيْشًا وغضبًا؛ لِدَوامِ قَرْعِ أسمَاعِهِمْ بالأخبَار المشتَمِلَةِ علَىٰ محَاسِن أخلَاق رَسُولِ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآدابِه، وسِيرَة السَّلَف الأخيَار مِنْ أهْلِ بَيْتِهِ وأصْحَابِه»[٥].

---

(١) أورده الخادمي الحنفي في «بريقة محمودية» (٤/ ٣١٩).

(٢) «ترتيب المدارك» (١/ ١١٩).

(٣) «سير أعلَام النبلاء» (٨/ ١١٣).

(٤) «الجامع لأخلاق الراوي» للخطيب البغدادي (١/ ١٥٦).

(٥) المصدر السابق (١/ ٧٨).

و«كَان أَصْحَابُ عَبْدِ الله بن مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَرْحَلون إلَيْهِ، فينظُرُونَ إلَىٰ سَمْتِهِ، وهَدْيِهِ؛ فيتشبَّهون به»(١).

وقال إبْرَاهِيم النَّخَعي: «كَانُوا إذَا أَتَوْا الرَّجُلَ ليَأخُذُوا عِنْه نظَرُوا إلَىٰ سَمْته، وَإلَىٰ صلَاتِه، وإلىٰ حَالِه، ثُمَّ يَأخُذونَ عَنْه»(٢).

وقال أيضًا: «كُنَّا إذَا أَرَدْنَا أنْ نأخُذَ عن شيخٍ سَألْنَاهُ عن: مَطْعَمِه ومَشْرَبه، ومَدْخَلِه وَمخرَجه، فإنْ كانَ علَىٰ استِوَاءٍ؛ أخَذْنا عَنه، وإلَّا لم نَأْتِه»(٣).

إذًا، بِتَمسُّكنَا بِهَذِه الآداب العَمِيمَة، والأخلَاق الكَرِيمَة، والوُقوف علَىٰ الحدُود القَوِيمَة -تَبْتَعِد النُّفوسُ عن رعُونَاتِهَا، والقُلوبُ عن شرُورِهَا، والأخْلَاقُ عن رَدِيئِهَا وسَفْسَافِهَا، وتَعُود للأُمَّة عِزَّتُها، وَتَسْتَرِدُّ حضَارتَها، وتَسْتَغْنِي بعُلومِهَا عمَّا نَسْتَوْرِدُه مِن عُلومٍ غَرْبِيَّةٍ غَرِيبَة؛ لأنَّ الآداب تَعُود في أصْلِهَا إلَىٰ: «الاتِّبَاع»، اتِّباع صاحِب الخلُق العَظِيم -عليه الصلاة والتسليم-، الَّذِي أثْنَىٰ الله تعالىٰ عليه، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾.

وأمَرَهُ سبحانه بمَحاسِن الأخلَاق، فقَال: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ۝٩٦﴾.

---

(١) «غريب الحديث» للقَاسِم بن سَلَّام (١/ ٣٨٤).

(٢) «الجامع لأخلاق الراوي» (١/ ٢٨).

(٣) «الكامل في ضعفاء الرجال» للجرجاني (١/ ٦٠٢).

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾.

وبعَثَ رسُولَهُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بإتمامها، فقَال عليه الصَّلاة والسَّلام: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلَاقِ**»[(١)].

وبيَّن صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَضْلَ محَاسِن الأَخْلَاق، فقَال: «**مَا مِنْ شَيْءٍ فِي الْمِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ**»[(٢)].

وَأخبَر -عليه الصلاة والسلام- أنَّ حُسْن الخلُق بابٌ مِن أبْوَاب الطَّاعَات، فَقَال: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ الْقَائِمِ**»[(٣)].

وأنَّه بابُ القُرْب إلىٰ رَسُولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يوم القِيامَة، حَيْثُ قَال: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ: أَحَاسِنكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ القِيَامَةِ: الثَّرْثَارُونَ، وَالمُتَشَدِّقُونَ،**

---

(١) أخرجه البيهقي في «الكُبرىٰ» (٢٠٧٨٢) من حديث أبي هريرة رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٥).

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٧٠) من حديث أبي الدرداء رَضِوَٱللَّهُعَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (ص١٢٢).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٧٩٨)، وابن حبان في «صحيحه» (١٩٢٧) من حديث عائشة رَضِوَٱللَّهُعَنْهَا، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٧٩٥).

وَالمُتَفَيْهِقُونَ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ فَمَا الـمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ: **«الـمُتَكَبِّرُونَ»**(١).

أَبَعْدَ هذَا كلِّه نسْتَعِيضُ آدابَ وأخلَاقَ المُحتلِّين، والفسَدة الحاقِدِين مِن الغَرْب الكَافِرين، والبُوذِيِّين الوَثَنِيِّين الَّذِينَ قامَت حَضَارَاتُهم الزَّائِفَة علَىٰ أشْلَاء المسْلِمِين، ومُحَارَبة الدِّين -تَارِكِين سَبِيلَ المؤمِنين؟! إنَّهُ واللهِ لَضَلالٌ مُبِين!

فالحذَرَ الحذَر مِمَّا يُبَثُّ لنَا مِن صِّفاتٍ خبِيثَة، وَأخلَاق رَذِيلَة، فإنَّها بابُ كُلِّ شَر، بَلْ هي الشَّر كُلُّه.

ومَع ذَلِك، فَالأَمْرُ قَد يَهُون إذَا لم يَشُبِ الفُقهَاءَ والعُلمَاءَ وطُلَّابَ العِلْمِ؛ إلَّا أنَّه بالفِعْلِ لحِقَ بعضَ أصْحَابِ النُّفوس الخبِيثَة مِنهم -إلَّا مَنْ عصَمَ اللهُ تعالىٰ-، ولَا سِيَّما الحسَد، والحِقْد، وَالعُجْب، وَالرِّياء، واحْتِقَار النَّاس، والغِيبَـة...

وأدْوِيَة هَذِه البلَايَا السَّالِفَةِ خطًّا، وَالكَائِنَةِ زَمنًا: اسْتَوْفَاهَا هذَا الكِتَابُ الَّذِي بَيْن يدَيْك -بفَضْلِ اللهِ وَمِنَّته-، واستوْفَياهَا مِن قبلُ الكِتَابُ والسُّنة، ثُمَّ اسْتَوْفَـتْهَا أحْوالُ السَّلَف وأقوَالُهم، ومَا كُتِبَ عَنْهُم مِمَّا أشَرْتُ إليه، وغيره مِن كتُب الآدَابِ وَالرَّقَائِق؛ فمَنْ أرَادَ تَطْهِير نفْسِهِ؛ فعَلَيْهِ بِهَذِه المصَادِر كُـلِّهَا، مَع مُحاسَبة نَفْسِه، وتَرْوِيضِهَا، وسُؤالِ اللهَ أوَّلًا وآخِرًا.. دائمًا أبدًا.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠١٨) من حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٨٩٧).

وإنْ تَعْجَب فعَجبٌ قَوْل البَعْض: مَا لِبَعْضِ العُلمَاء وطُلَّاب العِلْم يَزِلُّون في هَذِه، وهِي مِن صَمِيم مَا تربَّوا علَىٰ نُكْرَانِه؟

فَأَقُولُ الجوابَ في أَمْرَيْن:

أُولَاهُما: أَبَىٰ اللهُ العِصمَة إلَّا لِأنبِيَائه صلَّىٰ اللهُ علَيْهِم وسَلَّم.

ثَانِيهِمَا: مِن النَّاس مَن يتعَلَّمُ العِلْمَ وهو في الأَصْلِ مجبولٌ علَىٰ طبَائعَ حَمِيدَة، وأخلَاقٍ رَشِيدَة؛ فيَزْدَادُ هُدًىٰ ورُشْدًا.. ومِنْهُم مَن يَتعَلَّمُ العِلْمَ وهُوَ فِي الأَصْلِ مجبُولٌ علَىٰ طبَائِعَ فاسِدَة، وأخلَاقٍ رَدِيَّةٍ كَاسِدَة؛ فيَزْدادُ مِنَ الغُرور مَا يُودِي بِهِ إلَىٰ الثُّبور؛ أسألُ اللهَ لِي ولكَ الثَّباتَ إلَىٰ يَوْم النُّشور.

فعَلَىٰ العَالِم والمتعلِّم أنْ يلزمَا آدابَ العِلْمِ وَالطَّـلَب -خصوصًا- في النَّفْس، ومع الشَّيْخ، وسَائرالنَّاس؛ فيَظْهَرُ علَىٰ المتأدِّب سَمْتُ أهْلِ العِلْم والفَضْل؛ لأنَّ العِلْم بِلَا أدبٍ وسَمْت؛ كَسِلَاحٍ يجلِبُ لحَامِلِهِ المَوْت.

كمَا يَنبغِي أنْ يَتَّصِفَا بالأخلَاق الكَرِيمَة -عُمومًا-، ويَكُونَا مِن أصاحِبِهَا في آدابٍ سُنِّيةٍ نَبَوِيَّة، وهمَّةٍ قوِيَّةٍ عَلِيَّة، وحِفْظٍ وفَهْمٍ ومُذاكرَة، مع الإخْلَاص والعَمَل؛ فلَا يُطلَبُ مِن الدُّنيا عَـرَض، ولَا مِن إغْرَاءاتِهَا غَـرَض؛ لأنَّ العِلْمَ وطَـلَـبَهُ ابتغاءَ وجْهِ اللهِ فَـرْض.

❀❀

وَصفُ النُّسَخ وَمُشْكلَاتُها

هَذَا الكِتَاب مِن الكتُب النَّادِرَة -فقَدْ مَضَتْ علَيْهِ تِسْعُون سَنةً تَقْرِيبًا-، وقَدْ اقتَضَتْ نَدْرَتُهُ عدَم توَافُرِه، إلَّا نُسْختَيْن عَثُرْتُ علَيْهِما:

الأُولَى، نُسْخَة مَطْبُوعَة:

وهِيَ طَبْعَةٌ وَحِيدَةٌ -فِيما أعْلَم، واللهُ أعْلَم- طُبِعَتْ عام (١٤١٥هـ - ١٩٩٤م)، والَّتِي أخْرَجَها وراجعَها وخرَّج أحاديثها: الشَّيخ عبْدُ القَادِرِ الأَرْنَاؤُوط رَحِمَهُ اللَّهُ، وكَانَ قَدْ فَرَغَ مِنْهَا قبْلَ التَّاريخ المذْكُور آنفًا بعَامَيْن، أيْ تحديدًا: السَّبْت (١٥ ربيع الأول ١٤١٣هـ - ١٢ أيلول ١٩٩٢م).

فقَدَّم بَيْن يدَي الكِتَاب مُقدِّمةً جيِّدةً وَمُختصَرَة، أهمّ ما جاء فيها قوله: «هذَا، وقد ذكَر المؤلِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ هَذِه الأبْحَاث، مُسْتدِلًّا علَيْهَا مِن الكِتَابِ وَالسُّنة، وأقْوَال العُلَماء المحَقِّقِين، وقَدْ خرَّجَ أحَادِيثَهُ تخرِيجًا سَرِيعًا؛ مُعتمِدًا علَىٰ مَا ذكَرَهُ السيُوطِيُّ فِي «الجامِع الصَّغِير»، وقَدْ رَجَعْتُ فِي هَذِه التَّخرِيجَات إلَىٰ مصَادِرهَا، فبَيَّنتُ موَاطِنَها في كتُبِ الحَدِيث، وحَكَمْتُ علَيْها...»، إلىٰ آخِر مَا قال.

وقد بَدَا مِن كلَامِه هذَا -وهُو مَا عَايَـنْـتُه- أنَّه اهْتَمَّ بالجَانِب الحدِيثِيّ، وتوسَّعَ فيه؛ مَع قِلَّة الأَحَادِيث التي أوْردَها المؤلِّف أصلًا، ولكِنْ تسَاقطَتْ مِنْه جوَانِبُ أُخْرَىٰ مهمَّة، مِثْل:

- الأخْطَاء اللُّغَوِيَّة والنَّحْوِيَّة.

- الأخْطَاء في ضَبْط بَعْض الحرَكات بِالشَّكْل.

- خَطأٌ في عَزْو آيةٍ.

- وجُود سَقْط لبَعْض الكَلِمَات وَالحرُوف.

- السكُوت عن كَلِماتٍ كثيرةٍ غَرِيبةٍ لم يُبَيِّن مُفرَداتِهَا.

وتميَّزَتْ طبعتُه: بِمَا خرَّج مِن أحَادِيث، مع إثبَاته لبَعْضِ الكَلِمات الَّتِي سقطَتْ مِنَ النُّسخَة الأخْرَىٰ.

ثُم تَرْجَمَ للمُؤَلِّف بتَرجمةٍ تصَرَّفَ فِيهَا مِنْ أصْل تَرْجمةٍ كتبَهَا العَلَّامةُ المُحَدِّث/ أحمد شَاكِر، ابنُ المؤلف -رحمهما الله.

ثُم فَهْرسَ بإجْمَالٍ علَىٰ العَناوين الرَّئيسَة، حتَّىٰ خَرَجت نُسْخَتُه في (ثمانين صفحة)، وقد رَمَزْتُ لها بـ«ع».

وكُل هَذَا لَا ينقص مِن جهْدِه المبْذُول، والله أسأل أنْ يَعْفُوَ عنَّا وعنه، وأنْ يجزِيَهُ علَىٰ مَا قدَّم خيرًا.

الثَّانِيَة، نُسْخَة خَطِّيَّة:

وهِيَ نسخةٌ قديمَة مَشْكُولَة، كُتبَت بخطٍّ يدَوِيٍّ جَيِّد جِدًّا، ورُقمَت صفَحَاتُها بالأرْقَام العرَبِيَّة الشَّهِيرَة، وبَيْن سُطُورِهَا ترجمةٌ لِلْكَلِمَات باللُّغَة

الفَارِسِيَّة -غَالِبًا- أو التُّرْكِيَّة القَدِيمَة، وقد عثرتُ علَيْهَا عن طَرِيق شَخْصٍ أمرِيكِيٍّ جاء بِهَا مِنْ مكتبةٍ شَخْصِيَّةٍ أمريكِيَّة قَدِيمَة.

وقد تميَّـزَتْ هَذِه النُّسخة بزِيَاداتٍ لم تُثبَت في نُسْخَة الشَّيخ عبد القَادر، إلَّا أنَّها لم تَخْلُ مِن أخطَاء كَثِيرَة تخطَّتْ نُسخَـتَـهُ، مِنْهَا:

- كَثْرة الأخْطَاء اللُّغَويَّة والنَّحْوِيَّة والإملَائية.
- كَثْرَة الأخْطَاء في ضَبْط الحرَكات بِالشَّكْل.
- خَطأٌ في عَزْو آيةٍ.
- كَثْرة السَّقْط لِلكَلِمات وَالحرُوف.

وقد وقعَتْ فِي (ثمانٍ وأربعين صفحة)، ورمَزْتُ لها بـ«ق».

ومِمَّا انْـتَـقدَهُ بَعْضُ طُلَّاب العِلْم مِمَّن رَأَوْا هذَا العَمَل قَبْل طباعَتِه: تكْرَار الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لجُمَل وكلماتٍ؛ فقد يَنْصَحُ نَصِيحةً ثُمَّ يُكرِّرُهَا فِي مَواضِع أُخَر.

وَلمْ أرَ هذَا يُنتقَد علَى الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ لأسْبَاب:

أوَّلًا: الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كَان يَشْغَل عِدَّة مَناصِب مُهِمَّة في الدَّولة المصرِيَّة، وكَان كَثِيرَ التَّـنَـقُّل، ولم يَكُ متفرِّغًا، بل لم يَكُ ذاك الشَّخْص الَّذِي يُعْطِي مَكْتبًا يَعْمَل له.. ثُم يَضَعُ اسْمَهُ علَىٰ العمَل! بَلْ كَانَ يَكْتُب بنَفْسِهِ، فَرُبمَا كتَبَ هَذِه الرِّسَالَة في أَكْثَر مِنْ جلْسَةٍ؛ فاخْتلطَ الأمْر؛ فكرَّر، أَوْ رُبما كتبَهَا في جلْسةٍ واحِدَةٍ ودَفعَها مُباشرةً

لِلنُّسَّاخِ وَالطَّباعَة -وهَذِه عادةُ نَتاج الشَّواغِل، وهَذَا يحصل مَع كثيرٍ مِنَّا.

ثَانيًا: الشَّيخ -كمَا سيَتبيَّن خِلَال رِسَالَتِه- كان لُغَوِيًّا بَلِيغًا، ولَاشكَّ أنه كَانَ يَعْرف أنَّ التكْرَار أسْلُوبٌ مِنْ أسَالِيب البلَاغةِ عِندَ العرَب مُنذ العَهْد الأوَّل وإلَىٰ يَوْم النَّاسِ هَذَا.

ثالثًا: كَان تكْرَاره لِدَاعٍ، بحَيْث يُفِيد مَعْنًىٰ لَا يُمْكِن الحصُول علَيْه بِدُونِه.

رَابعًا: كان يُعطِي نُبَذًا عامَّةً، ثُمَّ يَأتِي بتفَاصِيلِهَا فِي مَواضِعَ أُخَر لِمُنَاسَبتِهَا تِلْكَ المواضِع.

خامسًا: التَّأكِيد علَىٰ النَّصِيحَة أو المعْنَىٰ المرَاد إيصَاله.

وكُلُّ هَذِه الأغْرَاض جَاء بِهَا اللهُ عَزَّوَجَلَّ فِي كِتَابِهِ؛ ويَعْرِفُها أهلُ العِلْم.. فلم يَكُنِ التكرار مذمُومًا علَىٰ هذا النَّحْو الممُنْتقَد.

❊❊

مَنْهَج العمَل

يتَلخَّص عمَلي المتواضِع لخِدمَة نصِّ الكِتَاب في المرَاحِل الآتِيَة:

أوَّلًا: نَسَخْتُ الكِتَاب بِيَدي؛ مُعْتمِدًا علَىٰ النُّسْخَة «ع».

ثانيًا: قَابَلْتُ ما نَسَخْتُه بِيَدِي علَي النسخة «ع» إعْتِمَادًا، ثُم قابلتُه بالنُّسْخَة «ق»، ثُم عُدْتُ بالمقَابَلة عليهما، وأثبتُّ ما سقَطَ مِن إحْدَاهُما أو كِلْتَيْهِما، مع ذِكر الفُروق في الحاشِيَة، إلَّا إذَا كَانَتْ هُناك أَخْطَاء وَاضِحَة أو تَصْحِيف؛ فأثبت الصَّوَاب في الحاشِيَة.

وفِي هَذِه المرحَلةِ استعَنْتُ -بَعْد الله تعالىٰ- بزَوجَتِي الكَرِيمَة -جَزاهَا اللهُ عَنِّي وعَنْ هَذَا العمَل خَيرًا- فسَاعدَتْ في مُقابَلة النُّسَخ، وإثْبات السَّقطَات، وذِكْر الفُروق.

ثَالِثًا: ضبَطْتُ المَتْنَ -كلَام الشَّيخ- كُلَّه بالشَّكْل حَرْفًا حَرْفًا؛ وذَلِكَ لتَيْسِير قِرَاءته علَىٰ الوَجْه العربيِّ الفَصِيح، وَلِتَمْيِيز الكَلِمات بَعْضها عن بَعْض.

رَابِعًا: بيَّنْتُ مَعانِيَ مَا ظَنَنْتُه غَرِيبًا علَىٰ الطُّلاب وَالعامَّة مِن المفْرَدات، ومَا احْتَاجَ إلىٰ توسُّع توَسَّعتُ فيه، وما لم يَكُن؛ فكَانَ الأصلُ هو الاختِصَار والإيجاز.

خَامِسًا: علَّقتُ بتَعْلِيقَات أرَاها مختصَرات، -وكُنْتُ حَرِيصًا علَىٰ هذَا-؛ لِمَا رَأَيْتُه مُناسِبًا، أو مُفْتَقِدًا لِبيَان، وَكَذَا استَدْلَلْتُ -علَىٰ قَدْر الحاجَةِ- بِمَا احْتاجَ

إِلَىٰ أدِلَّةٍ، أو تَوْثِيق بكلَام لأهل العِلْم، وتدَخَّلْتُ بشرح أو تصرُّفٍ ضِمْن بَعْض مَا أنْقل مِن كلَامِ أهْلِ العِلْم؛ وَاضعًا تصرُّفي بين []؛ وذلك لِتُستَخرَج بعض فوَائدُ الكِتَاب، ولوْلَا مخَافة الإطَالَةِ لتوَسَّعْت، ولكِنِّي أردْتُها كمَا ذكَرْتُ دُونَ شَرْحٍ مُطوَّل؛ خشْية السَّآمَة والملَل مِن قِبَل القاريء الكريم.

سَادِسًا: عَزَوتُ الآيات القُرآنية إلىٰ سُوَرِهَا بأرْقَامها، وذلِكَ فِي المتن دُون الحاشية، إلَّا مَا اسْتَشْهَدتُ بِهِ فِي الحَاشِيَة، فأتَيْتُ بِهِ فِي مَوْضِعِه.

سَابِعًا: خرَّجتُ النُّصُوصَ الحدِيثِيَّة الوَارِدَة تخريجًا مختصَرًا، فمَا كانَ فِي «الصحيحين» أو أحدهما عزَوْتُه برَقْمِه، ومَا كان فيهما أو أحَدهما مع غيرهما؛ اكتفيتُ بهما دون غيرهما، أمَّا ما كان فِي غيرهما فاكتفَيْت بعزوٍ واحِدٍ أو اثْنَين فقط؛ معتمِدًا فِي التَّصحِيح والتَّضْعِيف علىٰ كتُب الإمَام/ محمَّد نَاصِر الدِّين الألبَانِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ.

ثَامِنًا: رَاجَعْتُه مُرَاجَعةً نهائيةً؛ وَاضِعًا علَامَات التَّرقِيم، حَرِيصًا علَىٰ عمَلِ الفقرَاتِ ونَحْوهَا -ممَّا يُيَسِّرُ علَىٰ القاريء البُلُوغ للمَعْنَىٰ المرَاد.

والعُذر لَدىٰ الكرِيم مَقْبُول -إنْ وَصَفَ عمَلِيَ بالطَّويلَ المَلُول، أو المعْطُوب المفْلُول؛ فإنِّي لَا أزعُم الإصَابَةَ فِي كلِّ شيء؛ لأنه مِن عمَل بَشَر، وأبَىٰ اللهُ أنْ يتِمَّ إلَّا كتابَه، وأستغفِرُه سبحانه مِن زلَلِي، وسَبْق قلَمِي، وانزِلَاق نظَرِي، ومَن رأىٰ مِن هَذَا شيئًا؛ فالدِّين النَّصِيحَة.

وخَاتمة المطَاف، أتحلَّل بأنَامِلي مِن أشْجَان خَاطِري، لِأَقْطُفَ لكَ ثمرتَه

بِهذَا الجهْدِ الضَّئِيل؛ لتَسعَدَا! ويَسْعَد مَن تَنشُر إليه؛ فإنْ رأيتَ خيرًا فاحمَدِ الله وابذُل الخير لغَيْرِك بنَشْرِه.. وإنْ وجدتَ غير ذلك؛ فوجبَتْ النَّصِيحة، والدُّعاءُ بالعَفْوِ والمغفِرَة.

وَظنِّي أَنَّنِي لَمْ أُثقِل علَيْكَ بتَعْلِيقي علَيْه بما يُناسب، دُونَ شرحٍ مُطوَّلٍ مُمِل، ولَا تَقْصِيرٍ مُخِل؛ راجيًا ربيَ أنْ يَكُون اتَّضَح المقصُود مِن هذَا الَّذِي صار يَشْغَل مجتمَعنَا؛ لِنَنْهَض بدِينِنَا، وأُمَّتِنا، ونرْقَىٰ بوطَنِنَا؛ لأنَّ الأُمَم الأخْلَاقَ مَا بَقِيَتْ؛ فإنْ هُمُ ذهَبَتْ أخلَاقهُم ذهَبُوا(١).

هذَا، وأُصَلِّىٰ وأسَلِّم علَىٰ عبْدِه ورَسُوله محمدٍ، وآلِهِ وأصْحَابهِ أجْمَعِين، وآخِرُ دَعوَانا أنِ الحمْدُ للهِ ربِّ العَالمين.

وكتب
أبو مارية أحمد محمد فتحي
الأحد ٢٧ جمادَىٰ الآخرة ١٤٣٨هـ - ٥ أبريل ٢٠١٧م
مصر -حرسها الله وبلاد المسلمين-
هاتف - واتس/ ٠١٢٨٣٣٠٥١٦٨-٠٠٢
بريد إليكتروني/ ahmad_binfathy@hotmail.com



(١) مِن بيتٍ للشَّاعِر أحمد شوقي.

٢

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد
سيد المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فهذه دروس في الأخلاق الدينية [illegible]
الطلبة العلوم الدينية، وقد ضمنتها من الأخلاق ما يحتاج إليه
[illegible] في بداية [illegible] حتى [illegible] وفقه الله لتحقيق
[illegible] ينفعه الله تعالى وأن ينفع به كثيرًا
من خلقه [illegible] الصراط المستقيم.

المؤلف

الدرس الأول

نصيحة الأستاذ لتلميذه

يا بني: أرشدك الله ووفقك لصالح الأعمال، إنك مني
بمنزلة الولد من أبيه، يسرني أن أراك صحيح البنية، قوي
الإدراك، زكي القلب، مهذب الأخلاق، محافظًا على الأدب، بعيدًا
عن الطيش في القول، لطيف المعاشرة، محبوبًا من إخوانك،
تواسي الفقراء، وتشفق على الضعفاء، وتغفر الزلات، وتعفو

٣

[illegible] ولا تهمل في عبادة ربك.

يا بني: [illegible] نصيحة ناصح فإن حق من [illegible]
نصيحته [illegible] ومتى رأيت [illegible]
حرص على سمعتك وصلاحك مني

يا بني: إني لك [illegible] أمين [illegible] عليك من النصائح
واعمل به في حضوري وبينك وبين إخوانك وبينك
بين نفسك.

يا بني: إذا لم تعمل بنصيحتي في حضرتك فقلما تحافظ
عليها بين إخوانك. يا بني: إذا لم تتخذني قدوة فبمن
تقتدي؟ وعلام تجهد نفسك في الجلوس أمامي؟

يا بني: إن الأستاذ لا يحب من تلاميذه إلا الصالح المؤدب
فهل يسرك أن يكون أستاذك ومربيك غير راض عنك و
طامع في صلاحك؟ يا بني: إني أحب لك الخير، فساعد
على إيصال الخير إليك بالطاعة والامتثال لما أمرك به و
مكارم الأخلاق. يا بني: الخلق الحسن زينة الإنسان

الصفحة الأولى والثانية من النسخة القديمة «ق»

التَّعْرِيفُ بِالمؤَلِّف
العَلَّامَةِ/ مُحَمَّد شَاكِر

هُوَ رَأْسُ آلِ شَاكِرٍ، وَأَبُو الْعُلَمَاءِ؛ فَهُوَ أَبُو العَلَّامَةِ، الْمحَدِّثِ، شَمْسِ الأَئِمَّةِ، أَبِي الْأَشْبَالِ أَحْمَدَ مُحَمَّد شَاكِر، وَأَبُو العَلَّامَةِ الأُسْتَاذِ، عَمِيدِ الأَدَبِ الْعَرَبِيِّ، شَيْخِ المُحَقِّقِينَ أَبِي فِهْرٍ مَحْمُود مُحَمَّد شَاكِر؛ رَحِمَهُمُ اللهُ أَجْمَعِينَ.

بَلْ هُوَ عَالِمٌ أَزْهَرِيٌّ برزَ فِي مَطْلَعِ الْقَرنِ الرَّابع عَشر الهِجْرِيِّ، وَهُوَ مُجَدِّدُ الأَزْهَرِ فِي عَصْرِهِ، وقَاضِي قُضَاةِ السُّودَانِ، وَشَيخُ عُلَمَاءِ الإِسْكَنْدِرِيَّةِ...

الشَّرِيفُ/ مُحَمَّد شَاكِر بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ القَادِرِ بْنِ عَبْدِ الوَارِثِ، مِنْ آلِ أَبِي عَلْيَاء، مِنْ أُسْرَةٍ كَرِيمَةٍ، مَعْرُوفَةٍ بِمَدِينَةِ «جِرْجَا» -بِصَعِيدِ مِصْرَ.

وُلِدَ فِي مُنْتَصَفِ شَوَّال، عَام (١٢٨٢هـ - ١٨٦٦م)، وَحَفِظَ كِتَابَ اللهِ، وَتَلَقَّىٰ مَبَادِئَ التَّعْلِيمِ، ثُمَّ رَحَلَ إِلَىٰ القَاهِرَةِ، حَيْثُ الأَزْهَر؛ فَتَلَقَّىٰ العِلْمَ عَنْ كِبَارِ شُيُوخِ الأَزْهَرِ فِي ذَلِكَ العَهْدِ.

وَبَعْدَ أَنْ تَرَقَّىٰ فِي المَـنَاصِبِ؛ صَارَ أَمِينًا لِلْفَتْوَىٰ عَامَ (١٣٠٧هـ - ١٨٩٠م)، ثُمَّ فِي السَّابع مِنْ شَعْبَانَ سَنَة (١٣١١هـ) الموافق الثَّالِث عَشر مِن فِبْراير سَنَة (١٨٩٤هـ) وَلِيَ مَنْصِبَ «نَائِبِ مَحْكَمَةِ مُدِيرِيَّةِ القَلْيُوبِيَّةِ»، وَمَكَثَ فِيهِ نَحْوَ سَبْعِ سِنِينَ، وقَدْ اطَّلَعَ خِلَال المدَّة الَّتِي قضَاهَا فِي المحَاكِم الشَّرعِيَّة علَىٰ وُجُوهِ النَّقْصِ فِيهَا،

ومَا يتَطَلَّب العِلَاج مِنْهَا سَواء مِنْها مَا كَانَ مُتعَلِّـقًا بإجرَاءاتها المعقَّدة، أو نظُمِها الملْتَوِيَة؛ فوَضَع تَقْرِيرًا فِيمَا أوْحَتْ به غَيْرَتُه، وأمْلَتْهُ خِبرُتُه، ورفعَهُ لِلأسْتَاذ الشَّيخ محمَّد عبده، مُفتِي الدِّيار المصرِيَّة إذْ ذَاك في أوائل سَنة (١٨٩٩م)، وهَذَا التَّقرير مُصَوَّر ضَوْئِيًّا ومحفوظٌ بِـ«دار الكتب والوثائق المصرِيَّة».

فلَمَّا اطَّلع الشَّيخ محمَّد عَبدُه، وطَافَ بكَثِيرٍ مِنْ مَحاكِم الوَجْه البَحرِي؛ مُتفَقِّدًا أحْوَالَها، دَارِسًا شُؤونَها -اتَّفقَ رأيُه في الإصْلَاح مَع ما اهْتدَىٰ إلَيْه وعرَضَهُ الشَّيخ محمَّد شَاكِر، بل مَهَّد لَهُ الشَّيخ محمَّد عَبْدُه عِنْدَ وَلِي الأَمْر – الخِدِيوِ عبَّاس حِلْمِي الثَّاني- لِيَشْغَل مَنْصِب قَاضِي قُضَاة السُّودان؛ فَاقْتنَعَ الخدِيو عبَّاس بذَلِكَ، وأسنَد إلَيْهِ مَنْصِبِ «قَاضِي القُضَاةِ» بِالسُّودَانِ في (١٠ ذي القعدة ١٣١٧هـ – ١١ مارس ١٩٠٠م)، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ وَلِيَ هَذَا المَنْصِبَ.

وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ وَضَعَ نُظُمَ القَضَاءِ الشَّرْعِيِّ فِي السُّوْدَانِ عَلَىٰ أَوْثَقِ الأُسُسِ وَأَقْوَاهَا.

ثُمَّ عُيِّنَ «شَيْخ عُلَمَاءِ الإِسْكَنْدرِيَّةِ»، وَذَلِكَ فِي (١٣٣٢هـ – ١٩٠٥م)، فَوَضَعَ القَوَاعِدَ الثَّابِتَةَ لمنَاهِجِ التَّعْلِيم، وَتَنْظِيمِ المَعَاهِدِ الإِسْلَامِيَّةِ؛ حَتَّىٰ تُؤْتِيَ ثَمَرَهَا؛ فَتخَرَّجَ لِلمُسْلِمِينَ رِجَالٌ هُدَاةٌ، يُعِيدُونَ لِلإِسْلَامِ مَجْدَهُ فِي أَنْحَاءِ الأَرْضِ.

ثُمَّ عُيِّن «وَكِيل مَشْيَخَةِ الأَزْهَرِ» في (٩ ربيع الآخر ١٣٢٧هـ – ٢٩ إبريل ١٩٠٩م)، فَبَذَرَ فِيهِ بُذُورَ الإِصْلَاحِ.

ثُمَّ انْتَهَزَ فُرْصَةَ إِنْشَاءِ «الجَمْعِيَّةِ التَّشْرِيعِيَّةِ» عَامَ (١٩١٣م)؛ فَسَعَىٰ إِلَىٰ أَنْ صَارَ عُضْوًا فِيهَا، مُعَيَّنًا مِنْ قِبَلِ الحُكُومَةِ المِصْرِيَّةِ؛ وَبِذَلِكَ تَرَكَ المَنَاصِبَ الرَّسْمِيَّةَ، وَأَبَىٰ أَنْ يَعُودَ إِلَىٰ شَيْءٍ مِنْهَا، وَلَمْ يَخْضَعْ بَعْدَ ذَلِكَ لِشَيْءٍ مِنْ مُغْرَيَاتِهَا.

بَلْ فَضَّلَ أَنْ يَعِيشَ حُرَّ الرَّأْيِ، وَالعَمَلِ، وَالقَلْبِ، وَالعِلْمِ؛ لِيَتَفَرَّغَ لِكِتَابَاتِهِ وَمَقَالَاتِهِ وَأَبْحَاثِهِ.

وَكَانَتْ لَهُ فِي الصُّحُفِ جَوْلَاتٌ صَادِقَةٌ، وَمَقَالَاتٌ نَيِّرَةٌ، لَا يَزَالُ صَدَاهَا يُدَوِّي فِي أَذْهَانِ كَثِيرٍ مِمَّنْ عَنَوْا بِالأُمُورِ الاجْتِمَاعِيَّةِ.

مِنْ أَبْرَزِ سَجَايَاهُ:

أَنَّهُ صَلْبٌ فِي دِينِهِ، صَلْبٌ فِي عَقِيدَتِهِ، صَلْبٌ فِي رَأْيِهِ، شُجَاعٌ غَيرُ جَبَانٍ، لَا يَرْهَبُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ، وَلَا يَخْشَىٰ إِلَّا اللهَ تَعَالَىٰ.

مِن أَشْهَرِ المَوَاقِفِ الَّتِي تُبرزُ هَذِهِ السَّجَايَا:

لمَّا عادَ الأَدِيبُ طَهَ حُسَين مِنْ بَعْثَتِهِ إِلَىٰ أُورُوبَّا، أَرَادَ السُّلطَان حُسَيْن كَامِل الَّذِي تولَّىٰ حُكْمَ مِصْر بَعْدَ الخدِيو عبَّاس حِلْمِي الثَّاني أَنْ يُكَرِّمَه، فَاسْتَقبَلَهُ فِي قَصْرِه اسْتِقبَالًا حَافِلًا، وَكانَ خَطِيبُ المسْجِد الَّذِي كانَ السُّلطَان مُوَاظِبًا علَىٰ صلَاة الجمُعَةِ فِيهِ هو «محمد المهدي» أَحَد أَشْهَر خُطَباء «وَزَارةُ الأَوْقَاف» آنذاك، فأَرَادَ أَنْ يَمْدَحَ السُّلطَان تَنْوِيهًا بمَا أَكْرمَ بِهِ طَهَ حُسَيْن.

فخَانَتْهُ فصَاحَتُه، وغَلبَهُ حُبُّ الغُلُوِّ في المدْح، فقَال في خُطْبَتِه: «جَاءَهُ الأَعْمَىٰ، فَما عَبَسَ فِي وَجْهِهِ ومَا تَولَّىٰ»!!

وكانَ مِنْ شُهُودِ هَذِه الخُطْبَة الشَّيخُ «محمَّد شَاكِر» الَّذِي لم يَتمالَكْ نَفْسَهُ غَيْرةً علَىٰ كَلَام اللهِ عَزَّوَجَلَّ والتَّلاعب به، وغَيْرةً علَىٰ جَنَاب رَسُولِ اللهِ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وحُبًّا، فقَامَ بعد الصَّلَاةِ ونَادَىٰ فِي النَّاس دَاخِل المسْجِد؛ أَنْ أَعِيدُوا الصَّلَاة فإنَّها بَاطِلَة، وقَدْ كفَر خَطِيبُكُمْ بِنِسْبَتِه لِلسُّلْطَان مَنْقَبةً لم تكُن لِرَسُولِ الله! وَبالفِعْل أَعَادهَا النَّاسُ.

ولَكِنْ.. هَلْ يُترك الشَّيْخ محمَّد شَاكِر؟!

لم يَكُن إلَّا أنِ انْقلَبَتْ الدُّنيا عَلَيْه، وَكثُراللغط حَوَالَيْه، وَنالَ مِنهُ كُلُّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يتَقرَّبَ لِلسُّلطَان، وَلم يَتْركْهُ ذلِكَ الخطِيب، المُسمَّىٰ زُورًا بـ«محمد المهدي»! فَقرَّرَ أَنْ يُقِيم ضِدَّهُ دَعْوَىٰ؛ بِمَا نالَ بهِ مِنْه، فاحْتكَمَ «شاكر» إلَىٰ مُسْتَشْرِقِين أجَانِب لهم خِبْرةٌ بدَلَالَاتِ الأَلفَاظِ علَىٰ المعاني؛ لِيَسْتَدِلَّ علَىٰ التَّعرِيض بالمقَام النَّبوِيِّ، مُؤْثِرًاعدَمَ إقْحَامِ «الأزهر» فِي القَضِيَّة.. وأَصرَّ علَىٰ مَوْقفِهِ غَيْر عَابِئٍ بـ«المهدي»، ولَا بِمَنْ ورَاءَهُ مِنَ الصُّحُفِيِّـينَ وَكِبَار المسؤولِين -فيَشَاءُ اللهُ أَنْ تتدَخَّل الحكومَةُ في القَضِيَّة خوفًا مِنَ الفِتْنَةِ؛ فتَطْوِي بِسَاطَهَا قَبْلَ أَنْ يَفْصِلَ فِيهَا القضَاء.

ولَكِنْ.. أيْنَ صَارَ أمْرُهما.. أعْنِي: «شاكر»، و«المهدي»؟

أمَّا «شَاكِر»: أُخْتِيرَ لِعُضْوِيَّة «هيئة كبار العلماء»، بَعْدَ أنْ وَلِيَ مَنْصِبَ «قاضي القُضَاة» في السودان، ومِنه إلَىٰ عِدَّة مَناصِب أسْنَدَتْهَا إليه الحكُومَةُ المصْرِيَّةُ، كمَا أشَرْتُ سَابقًا.

وَأمَّا «المهدي»: فاللهُ عَزَّوَجَلَّ لم يَكُنْ لِيدَعَهُ وجُرْمَه فِي الدُّنيا قَبْل الأُخرَىٰ.

يَقُول القَاضِي، العلَّامَة المُحَدِّث أحمَد محمَّد شَاكِر: «فَأُقسِمُ باللهِ لقَدْ رَأيتُه بعَيْنَيْ رَأسِي بَعْدَ بِضع سِنِينَ، وبَعْدَ أنْ كانَ مُتعَالِيًا مُنْتَفِخًا، مُسْتَعِزًّا بِمَنْ لَاذَ بِهِمْ مِن العُظمَاء والكُبَراء، رأيْتُه مهِينًا ذَليلًا، خَادِمًا علَىٰ بَابِ مَسْجِدٍ يتَلقَّىٰ نِعَالَ المصَلِّين في ذلةٍ وصَغَار، حتَّىٰ لقَدْ خَجلْتُ أنْ يرَانِيَ وأنَا أعْرِفُه وهُوَ يَعْرِفُنِي، لَا شَفقةً علَيْهِ؛ فمَا كانَ مَوْضِعًا لِلشَّفقَة، ولَا شَماتةً فيه؛ فالرَّجُل النَّبِيل يَسْمُو علَىٰ الشَّماتَة -ولَكِن لِمَا رَأيْتُ مِنْ عِبرَةٍ ومَوْعِظَة».

وهَكذَا، كَلِمَةُ الحقِّ تَنصُر صَاحِبَها ولو بَعْد حِين.

وَكَانَ الشَّيخ محمَّد شَاكِر رَحِمَهُ ٱللَّهُ أيضًا قَوِيًّا فِي العُلُومِ النَّقْلِيَّةِ، وَالعَقْلِيَّةِ[1]،

---

(١) قسَّمَ العُلمَاء قديمًا العُلومَ إلَىٰ قِسْمَين:

١- عُلوم نَقلِيَّة: وهي ما تشتمل علىٰ العلوم الشَّرعِيَّة، ومَا يتعَلَّق بها مِن أصُولٍ وفُروعٍ ومصْطلَحَات، كعلم الاعتِقَاد، والقُرآن، والسُّنة، والفِقه، واللُّغة العَربِيَّة، والتَّاريخِ

وَلَمْ يَصْمُدْ لَهُ أَحَدٌ فِي مُنَاظَرَةٍ أَوْ جِدَالٍ؛ لِإِبْدَاعِهِ فِي إِقَامَةِ الحُجَجِ، وَإِفْحَامِ المُنَاظِرِ، لِخُصُوبَةِ ذِهْنِهِ، وَتَسَلْسُلِ أَفْكَارِهِ، وَانْتِظَامِهَا عَلَىٰ قَوَاعِدِ المَنْطِقِ السَّلِيمِ.

= والأنسَاب، وغير ذلك مِمَّا تمَيَّز به المسلمون عمَّن سِوَاهم.

٢- **علوم عقلِيَّة**: وهي التي أخذها المسلمون عن غيرهم، وكان بعضهم يطلق عليها «علوم العجَم»، أو «العلوم القديمة»، مثل: الفلسفة، والمنطق، والهندسة، والفيزياء، والكيمياء، والجغرافيا...، وغير ذلك مما اشتَهَرَتْ به الأُمَم الأخرىٰ من غير المسلمين، كالفُرْس، والرُّوم، واليونان.

وظل المسلمون رافِضِينَ لهَا منذ خلافة عُمَر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ، إلىٰ خلافة أبي جعفر المنصور، الَّذِي بَعَث إلىٰ مَلِك الرُّوم أن يبعث إليه بكتب التَّعاليم مُتَرجمَة؛ فبعث إليه بكتاب العالِم أوقليدس، وبعض كتب الطبيعيات؛ فقرأها بعضُ العلماء المتسببين للإسلام، وازْدَادُوا حرصًا عليها.

حتَّىٰ جاء عصر الخليفة المأمون؛ ليستخرج علوم اليونان، ويخصص مَن يُتَرجِمُها بِغَثِّها وسَمِينهَا؛ فعكف علماء العرب عليها، حتىٰ برَزُوا فيها، وصَارَتْ لَهُم الغَايَةُ والمُنتهَىٰ، وخالَفُوا مؤسِّسِي تِلك العُلوم، بل صارَتْ لهم آراء وقواعد وتأصِيلَاتٌ مُستَقِلَّة، واختُصُّوا بالرَّد والقَبول -وعلَىٰ إثْرِهَا فُتِنَ عُلمَاء كُثر، كالفارابي، وابن سينا، وابن الهيثم، وأشباههم.

ومع مُرور الأزمِنَة والعُصور ظلَّ البَعضُ يُنَقِّح ما جاء فيها مِن مُخَالفَات عقيدية؛ فتنقح شيءٌ وبقِيَتْ أشياء، وأزَالُوا وأضَافُوا، حتَّىٰ جعَلُوا «علم المَنطِق» -علىٰ سبيل المثال- في العصُور المتأخِّرة أكثر موضوعاته في أبواب البحث وطرائقه، والمُناظَرة والجدَل، وهذا ما قُصِد في ترجمة الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ، والله أعلم.

وَفِي آخِرِ عُمُرِهِ أَقْعَدَهُ المَرَضُ فِي مَنْزِلِهِ، وَأَلْزَمَهُ الفِرَاشَ، إِذْ أَصَابَهُ الفَالِجُ[(١)]؛ فَاحْتَمَلَ -نَحْسَبُهُ- صَابِرًا مُحْتَسِبًا، رَاضِيًا عَنْ رَبِّهِ وَعَنْ نَفْسِهِ، مُوقِنًا أَنَّهُ قَامَ بِمَا وَجَبَ عَلَيهِ خَيْرَ قِيَامٍ نَحْوَ دِينِهِ، وَنَحْوَ أُمَّتِهِ، مُنْتَظِرًا دَعْوَةَ رَبِّهِ لِعِبَادِهِ الصَّالِحِينَ، ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠]؛ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ رَحْمَةً وَاسِعَةً.

تُوُفِّي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سَنَةَ (١٣٥٨هـ) - المُوَافِق (١٩٣٩م)[(٢)].

---

(١) «الفَالِج»: هو مرضٌ يُعرف بـ«الشلل النصفي»، وهو مُتعَلِّق بالأعصَاب الدِّمَاغية، ويُصِيب أَحَد شِقَّيِ الجِسْم، مِن الدِّماغ إلىٰ القَدَم، فلا يتحرك نصف الجسم مصابًا بالشَّلل؛ نسأل الله العافية.

(٢) للرجوع إلىٰ مصادر سيرته رَحِمَهُ ٱللَّهُ، انظر: «محمد شاكر علَم مِن أعلام مصر» لوَلَدِه العلَّامة أحمد شاكر، وهو مقال نُشر في مجلة «المقتطف»، عدد (أغسطس ١٩٣٩م)، و«محمد شاكر» مقال لمحمد عبد الغني حسن، في مجلة «الكتاب»، عدد (يوليه ١٩٤٦م)، و«جمهرة مقالات العلَّامة أحمد شاكر» (١/ ١١)، و«الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة» لمحمد كامل الفقي (٢/ ١٨٢)، و«جريدة الأمة» الأليكترونية.

وصايا الآباء للأبناء

أو

الدروس الأولية في الأخلاق المرضية

تأليف

فضيلة الشيخ العلامة

محمد شاكر

أمين الفتوى ووكيل مشيخة الأزهر

(المتوفى سنة ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م)

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه

أبو مارية أحمد محمد فتحي

طبعة مشكولة ومنقحة ومقابلة على نسخ قديمة

مُقدِّمَةُ المُؤَلِّفِ
الشَّيخ/ مُحمَّد شَاكِر

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَىٰ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ سَيِّدِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

وَبَعْدُ:

فَهَذِهِ «دُرُوسٌ أَوَّلِيَّةٌ فِي الأَخْلَاقِ المَرْضِيَّةِ»، وَضَعْتُهَا لِطَلَبَةِ العُلُومِ الدِّينِيَّةِ، وَقَدْ ضَمَّنْتُهَا[(١)] مِنَ الأَخْلَاقِ مَا يَحْتَاجُ إِلَيهِ طَالِبُ العِلْمِ فِي بِدَايَةِ أَمْرِهِ، حَتَّىٰ إِذَا وَفَّقَهُ اللهُ لِلتَّخَلُّقِ بِهَا؛ كَانَ مَرْجُوًّا أَنْ يَنْفَعَهُ اللهُ بِعِلْمِهِ، وَأَنْ يَنْفَعَ بِهِ كَثِيرًا مِنْ خَلْقِهِ.

وَاللهُ وَلِيُّ الرَّشَادِ، وَالهَادِي إِلَىٰ الصِّرَاطِ المُسْتَقِيمِ.

المؤلف[(٢)]

---

(١) في «ق»: [ضمَنتها] بتخفيف الميم، والصَّواب التَّشدِيد.

(٢) سقطت من «ع».

الدَّرْسُ الأَوَّلُ
نَصِيحَةُ الأُسْتَاذِ لِتِلْمِيذِهِ

يَا بُنَيَّ: أَرْشَدَكَ اللهُ، وَوَفَّقَكَ لِصَالِحِ الأَعْمَالِ، إِنَّكَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ الوَلَدِ مِنْ أَبِيهِ[(١)].

يَسُرُّنِي أَنْ أَرَاكَ صَحِيحَ البِنْيَةِ[(٢)]، قَوِيَّ الإِدْرَاكِ، زَكِيَّ القَلْبِ[(٣)]، مُهَذَّبَ

---

(١) استهل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ أُولَىٰ نصائحه، وباكُورَةَ سلسلة دروسه بمخاطبة المنصوح بـ«يَابُنَيَّ»، وجعلها مستهلَّ كل نصيحةٍ في هذا الكتاب، وهو بهذا حَلَّ محلَّ الوالِد؛ عطفًا وحُنوًّا علَىٰ مَنصُوحِه، وتقريبًا له؛ لإشعاره بالحرص عليه، وذلك أدعَىٰ طريق يسلكها النَّاصِح «الرفق»؛ إذْ الغرَض انتشاله مِن باطل، أو تحذيره من الوقوع فيه، لا تَبْكِيته أو تَغْيِيره أو تنفيره، ولأنَّ غالب مَن يَقْبل النصيحة، يقبلها مِن أقربَ النَّاس وأحبِّهم إليه، فلَمَّا عُلم في دنيا النَّاس منزلة الوالد في عَيْن ولَدِه؛ وضَعَ الشيخ نفسه هذا الموضع؛ لجَذْبِ قَبُول المَنصُوح.
وزيَّنَ عَطْفَهُ بدُعَائه: «أَرْشَدَكَ اللهُ، وَوَفَّقَكَ لِصَالِحِ الأَعْمَالِ»؛ لبيان حُبِّهِ لمنصوحه، وإرادة الخير والرشاد والتوفيق له.. ترىٰ بعد هذا التَّلَطُّف لا يقبل منصوحٌ نَصِيحة؟!

(٢) «صَحِيحَ البِنْيَةِ»: قوي الجسم، صحيح مِن الأسقام، وقدَّم قوة الجسم وسلامته؛ إذْ به يذهب لدروسه ويجيء، ويتحمَّل العبادات، ويَسْتَفِيق العقل تَبعًا؛ لذلك قيل: العقل السليم في الجسم السليم.

(٣) «زَكِيَّ القَلْبِ»: أيْ طَاهر القلب وصالحه، وهذه لَافِتةٌ مِن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ مهمة، قَلَّ مَن يَذكُرها ويُنبِّه عليها، إذْ لا يكفي أن يكون طالب العلم ذكيًّا فَطِنًا، مُدرِك العقل، بل لا بد =

الأَخْلَاقِ، مُحَافِظًا عَلَىٰ الآدَابِ، بَعِيدًا عَنِ[١] الفُحْشِ فِي القَوْلِ، لَطِيفَ المُعَاشَرَةِ، مَحْبُوبًا مِنْ إِخْوَانِكَ، تُوَاسِيَ الفُقَرَاءَ، وَتُشْفِقَ[٢] عَلَىٰ الضُّعَفَاءِ، تَغْفِرَ[٣] الزَّلَّاتِ، وَتَعْفُوَ عَنِ[٤] السَّيِّئَاتِ، وَلَا تُفَرِّطْ فِي صَلَاتِكَ، وَلَا تُهْمِلْ فِي عِبَادَةِ رَبِّكَ.

يَا بُنَيَّ: إِنْ كُنْتَ تَقْبَلُ نَصِيحَةَ نَاصِحٍ، فَأَنَا أَحَقُّ مَنْ تَقْبَلُ نَصِيحَتَهُ.

أَنَا أُسْتَاذُكَ وَمُعَلِّمُكَ وَمُرَبِّي[٥] رُوحِكَ، لَا تَجِدُ أَحَدًا أَحْرَصَ عَلَىٰ مَنْفَعَتِكَ وَصَلَاحِكَ مِنِّي.

يَا بُنَيَّ: إِنِّي لَكَ نَاصِحٌ أَمِينٌ، فَاقْبَلْ مَا أُلْقِيهِ عَلَيكَ مِنَ النَّصَائِحِ، وَاعْمَلْ بِهِ حُضُورِي، وَبَيْنَكَ وَبَينَ إِخْوَانِكَ، وَبَيْنَكَ وَبَيْنَ نَفْسِكَ[٦].

= أن يصحب ذكاءَ العقلِ زكاءُ القلبِ وصلاحُه وهِدَايتُه.

ولذلك كان ابنُ تَيْمِيَّة رَحِمَهُ اللَّهُ يقول عن عُلمَاء الكلام: «أوتُوا ذكاءً، وما أوتُوا زكاءً»، انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٥/ ١١٩).

(١) في «ق»: [عَلَىٰ]، وهو خطأ.

(٢) في «ق» جاءت مرفوعة الآخِر، والصَّواب النَّصْب؛ عطفًا علىٰ قول الشيخ: «**يَسُرُّنِي أَنْ أَرَاكَ...**».

(٣) كما سبق.

(٤) في «ق»: [وَتَعْفُوَ السَّيِّئَاتِ].

(٥) في «ق» [وَمُرَبِّيَ] هكذا بالنصب، وهو خطأ؛ لأنَّ علامة الرفع ضمة مقدَّرة.

(٦) وهنا توجيهٌ وتربيةٌ علىٰ مراقبة النَّفس أمام الله عَزَّوَجَلَّ، فالإنسان يَجِب أن تكون حاله مع نفسه مُوافِقَةً، بل أفضل مِن حاله بين الناس.

يَا بُنَيَّ: إِذَا لَمْ تَعْمَلْ بِنَصِيحَتِي فِي خَلْوَتِكَ، فَقَلَّمَا تُحَافِظُ عَلَيْهَا بَيْنَ[1] إِخْوَانِكَ.

يَا بُنَيَّ: إِذَا لَمْ تَتَّخِذْنِي قُدْوَةً فَبِمَنْ تَقْتَدِي؟! وَعَلَامَ تُجْهِدُ نَفْسَكَ فِي الجُلُوسِ أَمَامِي[2]؟!

يَا بُنَيَّ: إِنَّ الأُسْتَاذَ لَا يُحِبُّ مِنْ تَلَامِيذِهِ إِلَّا الصَّالِحَ المُؤَدَّبَ، فَهَلْ يَسُرُّكَ أَنْ يَكُونَ أُسْتَاذُكَ وَمُرَبِّيكَ غَيرَ رَاضٍ عَنْكَ، وَلَا طَامِعٍ فِي صَلَاحِكَ[3]؟

يَا بُنَيَّ: إِنِّي أُحِبُّ لَكَ الخَيْرَ، فَسَاعِدْنِي عَلَىٰ إِيصَالِ الخَيرِ إِلَيْكَ بِالطَّاعَةِ، وَالامْتِثَالِ لِمَا آمُرُكَ بِهِ مِنْ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ[4].

يَا بُنَيَّ: الخُلُقُ الحَسَنُ زِينَةُ الإِنْسَانِ فِي نَفْسِه، وَبَيْنَ إِخْوَانِهِ وَأَهْلِهِ

---

(١) في «ق»: [وَبَيْنَ]، الواو زائدة.

(٢) لأنَّ المُعلِّم هو المُرَبِّي الأكثر جلوسًا مع طَالِبه؛ فإنْ لم يَنْـتَفِع الطَّالبُ بمُعَلِّمِه؛ فقلَّ أن ينتفع بغيره مِمَّن يقلُّ جلُوسُه معَهُم.

(٣) لاشكَّ أنَّ كُلَّ مُربٍّ صالحٍ ليس هَمُّه جمْعَ المال -يكون حريصًا وطامعًا في إصلاح أبنائه من المُتعَلِّمِين؛ لأنه بهذا يُكمِل رسالة الأنبياء والمرسلين في استخراج أجيالٍ من الصالحين والمُصلحين؛ ولذلك يجب علىٰ كل طالب أن يقدِّر هذا حق التقدير، ويعمل لأجل ذلك، ولا يخيب ظن مُعَلِّمِيه.

(٤) فالمُتعلِّم إنْ لم يُطِع ويَمْتَـثِل أوَامر مُعَلِّمه؛ يُحْرَم كثير خيرٍ واعتِنَاء.

وَعَشِيرَتِهِ[(١)]، فَكُنْ حَسَنَ الخُلُقِ؛ يَحْتَرِمْكَ النَّاسُ وَيُحِبُّوكَ.

يَا بُنَيَّ: إِذَا لَمْ تُزَيِّنْ عِلْمَكَ بِكَرَمِ أَخْلَاقِكَ؛ كَانَ عِلْمُكَ أَضَرَّ عَلَيكَ مِنْ جَهْلِكَ، فَإِنَّ الجَاهِلَ مَعْذُورٌ بِجَهْلِهِ[(٢)]، وَلَا عُذْرَ لِلْعَالِمِ عِنْدَ النَّاس إِذَا لَمْ

---

(١) في «ع»: [وَأَهْلِ عَشِيرَته]، وهو خطأ، والصواب ما ثبت في «ق».

(٢) قوله: «فَإِنَّ الجَاهِلَ مَعْذُورٌ بِجَهْلِهِ»، الجاهل هنا غير المُفْرِط؛ لأنَّ الشَّيخ إنْ قصدَ الإِطْلَاق؛ فعَلَيْنا أنْ نُفَصِّل -فليس كل جهل يُعَدُّ صاحِبهُ مَعذُورًا، وإلَّا فلو عُذِرَ كُلُّ جَاهلٍ؛ لَكانَ الجهل خيرًا وأنفعَ لصاحبه مِن العلم!

قال الزركشيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إعْذَارُ الجاهل مِن باب التَّخفيف، لَا مِن حَيْثُ جَهْلِهِ، ولهذَا قالَ الشَّافعِيُّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لو عُذِرَ الجَاهِلُ، لأَجْلِ جَهْلِهِ؛ لكَانَ الجَهْلُ خَيْرًا مِنَ الْعِلْم، إذْ كَان يَحُطُّ عَنِ العَبْدِ أعْبَاءَ التَّكْلِيف، وَيُرِيحُ قَلْبَهُ مِنْ ضُرُوبِ التَّعنِيف -فلَا حُجَّةَ للعَبْدِ في جَهْلِهِ بالحُكْم بَعْد التَّبلِيغ والتَّمكِين؛ لِئَلَّا يكون للنَّاس علَىٰ الله حُجَّةٌ بَعْد الرُّسُل»، انظر: «المنثور في القواعد» (٢/ ١٦-١٧).

وقال القَرَافِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القَاعِدة الشَّرعيَّة دَلَّتْ علَىٰ أنَّ: كُلَّ جَهْلٍ يُمْكِن الْمُكَلَّفَ دَفعُه لَا يَكُونُ حُجَّةً لِلْجَاهِلِ -فإنَّ الله تَعَالَىٰ بَعث رسلَهُ إِلَىٰ خَلْقِهِ بِرَسائله، وأوجَبَ عليهم كَافَّةً أنْ يُعلِّمُوها، ثُم يَعْمَلُوا بِهَا، فالعِلمُ وَالعَمَلُ بِهَا وَاجِبَانِ، فمَن تَرك التَّعلُّمَ وَالْعَمَل، وَبَقِيَ جَاهِلًا؛ فَقَدْ عَصَىٰ مَعْصِيَتَيْنِ لِتَرْكِهِ وَاجِبَيْنِ، وَإِنْ عَلِمَ وَلَمْ يَعْمَلْ فَقَدْ عَصَىٰ مَعْصِيَةً وَاحِدَةً بِتَرْكِ الْعَمَلِ، وَمَنْ عَلِمَ وَعَمِلَ فَقَدْ نَجا»، انظر: «الفروق» (٨/ ٤٦٥).

وقال أيضًا لمَّا بيَّنَ قاعدةَ مَا لا يَكُون الجَهلُ عُذرًا فيه، وبيَّن قاعِدَةَ مَا يَكُون الجَهْلُ عُذرًا فيه: «اعْلَمْ أنَّ صَاحِبَ الشَّرعِ قَدْ تَسَامَحَ فِي جَهَالَاتٍ في الشَّرِيعَة؛ فعفَا عَنْ مُرْتَكِبِهَا، وَأخذَ بجهالَاتٍ؛ فلَمْ يَعْفُ عَنْ مُرْتَكِبِهَا، وضَابِطُ مَا يُعْفَىٰ عَنْهُ مِنَ الجهالَات: الجَهْلُ

يَتَجَمَّلْ(١) بِمَحَاسِنِ الشِّيَمِ(٢).

يَا بُنَيَّ: لَا تَعْتَمِدْ عَلَىٰ مُرَاقَبَتِي لَكَ، فَإِنَّ مُرَاقَبَتَكَ لِنَفْسِكَ أَفْضَلُ وَأَنْفَعُ مِنْ مُرَاقَبَتِي لَكَ(٣).

يَا بُنَيَّ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِنَّ اللهَ اسْتَخْلَصَ هَذَا الدِّينَ لِنَفْسِهِ؛ وَلَا يَصْلُحُ لِدِينِكُمْ إِلَّا السَّخَاءُ، وَحُسْنُ الخُلُقِ، أَلَا فَزَيِّنُوا دِينَكُمْ بِهِمَا»**(٤).

= الَّذِي يتعَذَّر الاحتِرَاز عَنْهُ عادةً، ومَا لَا يتعَذَّر الاحْتِرَاز عَنْهُ، ولَا يَشُقُّ لَمْ يَعْفُ عَنْه»، انتهىٰ من «الفروق» (٤/ ٢٧).

وَالكلَامُ فِي هَذِه المَسْأَلةِ يَطُول، إذْ تكثُر فيها النُّقول؛ فأكْتَفِي بهذَا المَنقُول.

(١) في «ق»: [تَتجَمَّلْ]، والصواب ما ثبت في «ع».

(٢) لأن العالِم إذا كانت أخلاقه رَدِيَّة؛ نفر النَّاس منه، وغالبًا لا يأخذون عنه؛ ولذلك كانت الأنبياء، وعلىٰ رأسهم نبيُّنا محمد -صلىٰ الله عليهم جميعًا وسلم- من أحسن الناس خلُقًا، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝﴾، ولو كان غير ذلك لانفَضُّوا مِن حَوْلِه!

(٣) كرَّر الشَّيخ رَحِمَهُ اللَّهُ هذه النَّصيحَة؛ مُبَالغَةً في التَّحذِير مِنْ أنْ يَكُون الإنسَانُ بَيْنَه وبين نفسه علىٰ حال، وأمام النَّاس علَىٰ حال أخرىٰ، وللتَّأكِيد علَىٰ مُراقَبَة النَّفس، وترسيخ هذا الخلُق في نفس منصوحه.

(٤) **قال الشيخ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «رواه الطبرانِيُّ عن ابن حصين، وأشار السيوطي إلىٰ أنه حديثٌ ضعيف».

قلت: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨/ ١٦٥) (٨٢٨٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٦٠) عن عمران بن حصين. قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣/ ١٢٧): وفيه عمرو بن الحصين العقيلي، وهو متروك. وقال الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٢٨٢): موضوع.

الدَّرْسُ الثَّانِي
فِي الوَصِيَّةِ بِتَقْوَى اللهِ العَظِيمِ

يَا بُنَيَّ: إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّهُ[١] فِي صَدْرِكَ، وَمَا تُعْلِنُهُ بِلِسَانِكَ، وَمُطَّلِعٌ عَلَىٰ جَمِيعِ أَعْمَالِكَ، فَاتَّقِ اللهَ -يَا بُنَيَّ-، وَاحْذَرْ أَنْ يَرَاكَ عَلَىٰ حَالَةٍ لَا تُرْضِيهِ.

احْذَرْ أَنْ يَسْخَطَ عَلَيكَ رَبُّكَ الَّذِي خَلَقَكَ، وَرَزَقَكَ، وَوَهَبَكَ العَقْلَ الَّذِي تَتَصَرَّفُ بِهِ فِي شُؤُونِكَ.

كَيْفَ يَكُونُ حَالُكَ إِذَا اطَّلَعَ عَلَيْكَ أَبُوكَ وَأَنْتَ تَفْعَلُ أَمْرًا نَهَاكَ عَنْهُ؟

أَمَا تَخْشَىٰ أَنْ يُشَدِّدَ عَلَيْكَ العُقُوبَةَ؟

فَلْيَكُنْ حَالُكَ مَعَ اللهِ كَذَلِكَ؛ لِأَنَّهُ يَرَاكَ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَاهُ! فَلَا تُفَرِّطْ فِي شَيءٍ أَمَرَكَ بِهِ، وَلَا تَمْدُدْ يَدَكَ إِلَىٰ شَيءٍ نَهَاكَ عَنْهُ.

يَا بُنَيَّ: إِنَّ رَبَّكَ شَدِيدُ الْبَطْشِ، شَدِيدُ العِقَابِ؛ فَاحْذَرْهُ[٢] يَا بُنَيَّ، وَاتَّقِ

---

(١) أيْ: تُخْفِيه، ولَوْ أَسْنَدَ الشَّيخُ رَحِمَهُ اللَّهُ الفِعْلَ إِلَىٰ الصَّدرِ، فقال: «يَعْلَم مَا يُكِنُّ صَدْرُكَ» لكَانَ أوْلَىٰ؛ لِيُوَافِقَ بذَلِكَ بَلَاغةَ قوله تعالىٰ: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٦٩﴾.

(٢) في «ق»: [فَاحْذَرْ].

غَضَبَهُ وَسَخَطَهُ، وَلَا يَغُرَّنَّكَ حِلْمُهُ، وَ«إِنَّ اللهَ يُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»(١).

يَا بُنَيَّ: إِنَّ فِي طَاعَةِ اللهِ مِنَ اللَّذَّةِ وَالرَّاحَةِ مَا لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِالتَّجْرِبَةِ؛ فَيَا بُنَيَّ: اسْتَعْمِلْ طَاعَةَ مَوْلَاكَ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّجْرِبَةِ أَيَّامًا لِتُدْرِكَ هَذِهِ اللَّذَّةَ، وَتَشْعُرَ(٢) بِهَذِهِ الرَّاحَةِ، وَتَعْلَمَ إِخْلَاصِي لَكَ فِي النَّصِيحَةِ(٣).

يَا بُنَيَّ: إِنَّكَ سَتَجِدُ فِي طَاعَةِ اللهِ ثِقَلًا عَلَىٰ نَفْسِكَ أَوَّلَ الأَمْرِ، فَاحْتَمِلْ هَذَا الثِّقَلَ، وَاصْبِرْ عَلَيهِ، حَتَّىٰ تَصِيرَ الطَّاعَةُ عِنْدَكَ مِنَ العَادَاتِ الَّتِي تَأْلَفُهَا(٤).

---

(١) قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا لفظُ حَدِيثٍ شَرِيفٍ، رواه البخاريُّ، ومسلمٌ، والترمذيُّ، وابن ماجه عن أبي موسىٰ الأشعري، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».
قلت: أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

(٢) في «ق» [تشعرُ] بالرفع، وهو خطأ، والصواب النصب كما في «ع»؛ عطفًا علىٰ: «لتدركَ» المسبوقة بأداة النصب «ل».

(٣) أيْ لا تُسْتَشْعَر لَذَّة الطاعة إلَّا عند ممارستها ممارسةً فيها مِن الاستعداد والإقبال ما يجلب تلك اللذة، وإلَّا فكَثِير مِن النَّاس يُمارس الطَّاعة ممارسةً اعتِيَاديَّة؛ فشرط الحصول علىٰ اللَّذة والرَّاحة في العبادة، هو: الإقبال والاستعداد، وهَذَا يَتطلَّب مُجاهدةً مِن العَبْد، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ...﴾.

(٤) لو قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مِن العادات»، وسكت؛ لكان كما أشرتُ آنفًا، مجرد اعتياد، لكنه قال: «مِنَ العادات التي تألفها»، أي يحصل إلفٌ بهذه العادة؛ فيصير العبد طائعًا مُحِبًّا، لا مُعتَادًا فحسب.

=

يَا بُنَيَّ: انْظُرْ إِلَىٰ نَفْسِكَ حِينَمَا كُنْتَ فِي المَكْتَبِ[1]: تَتَعَلَّمُ القِرَاءَةَ وَالكِتَابَةَ،

= وقد كان بعض السلف يقولون: «جاهدتُ نفسي علىٰ قيام الليل عشرين سَنة، ثُمَّ تلَذَّذتُ به عشرين سَنة»، وهذا معنًىٰ ورَدَ عن كثيرٍ مِن السَّلف بألفاظ مختلفة؛ فكانوا يُجَاهِدُون أنفُسَهُم علَىٰ الطَّاعة حتَّىٰ يَألَفُوها.

وصدق شوقي حين قال:

وَمَـــا نَيْـــلُ الْمَطَالِـــبِ بِـــالتَّمَنِّي ... وَلَكِـــنْ تُؤْخَـــذ الـــدُّنيَا غِلَابَـــا

(١) وهو ما تُسَمِّيه العامَّة اليَوْم: «الكُتَّاب»، الَّذِي كاد أنْ يَندثِرَ في زمَاننا، وإنْ كان موجودًا ولكنه لا يُؤدِّي ما كان يُؤدِّيه سَالِفًا، فقد كان الأطفال يتَخَرَّجُون منه حفَظَةً للقُرآن، يقرؤون ويكتبون بشكل يجعلهم يدرسون أي علم بعد ذلك التَّأسِيس، أما اليوم فالحال لا تَخْفَىٰ، وأسباب ذلك:

١- قِلَّة المُؤهَّلِين للقيام بهذا الأمر.

٢- إنْ وُجِد المُؤهَّلُون، فمَحْصُولهم المَاليُّ ضعيف، مما يجعل بعضهم يتَعجَّلُون لجمع أكبر عدَدٍ مِن الأطفال بُغْيَة زيادة ماليَّة.

٣- عدَم صَبْر بيُوت الأطفَال علَىٰ تَرْكِهم مُدَّةً أطوَل خارج المنزل، مع عدَم متابعتهم؛ فأصبح يذهب الطِّفل ويرمي بكرَّاسِه، ويشاهد المسلسلات الكرتونية، ثم قبل نومه يحفظ حفظًا سريعًا، وهكذا لا يكون متمكنًا مِن حفظه؛ فسريعًا ما ينساه.

٤- إدخَال علوم لا دَاعِيَ لهَا في هَذِه السِّن التَّأسِيسِيَّة المُهِمَّة، فَـيُدخِلُون الإنجليزية بل والفرنسية! وبعضهم يُثلِّث بالإيطالية!.. ولِمَ كل هذا؟! ثُمَّ يُهدِرون الوقت في سَماع الأناشيد، ومشاهدة المَرْئِيَّات.

بعد ذلِكَ كُلِّه يذهب الطَّالب المرحلة الابتِدَائية وهو لا يُحْسِنُ يَكْتب، ولا يحفظ مِن =

وَتُؤْمَرُ بِحِفْظِ القُرْآنِ الكَرِيمِ غَيْبًا، أَلَمْ تَكُنْ إِذْ ذَاكَ تَكْرَهُ المَكْتَبَ وَالمُعَلِّمَ، وَتَتَمَنَّىٰ أَنْ تَكُونَ مُطْلَقَ السَّرَاحِ؟

فَهَا أَنْتَ اليَوْمَ قَدْ بَلَغْتَ الدَّرَجَةَ الَّتِي عَرَفْتَ بِهَا فَائِدَةَ الصَّبْرِ عَلَىٰ التَّعَلُّمِ فِي المَكْتَبِ، وَعَلِمْتَ أَنَّ مُعَلِّمَكَ كَانَ سَاعِيًا فِي مَصْلَحَتِكَ(١).

فَيَا بُنَيَّ: اسْمَعْ نَصِيحَتِي، وَاصْبِرْ عَلَىٰ طَاعَةِ اللهِ كَمَا صَبَرْتَ عَلَىٰ التَّعَلُّمِ فِي المَكْتَبِ، وَسَوْفَ تَعْلَمُ فَائِدَةَ هَذِهِ النَّصِيحَةِ، وَتَظْهَرُ لَكَ جَلِيًّا إِذَا سَاعَدَتْكَ العِنَايَةُ الإِلَٰهِيَّةُ عَلَىٰ العَمَلِ بِنَصِيحَةِ أُسْتَاذِكَ.

يَا بُنَيَّ: إِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ أَنَّ تَقْوَىٰ اللهِ هِيَ الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَنَحْوُهُمَا مِنَ العِبَادَاتِ فَقَطْ.

إِنَّ تَقْوَى اللهِ تَدْخُلُ فِي كُلِّ شَيْءٍ:

فَاتَّقِ اللهَ فِي عِبَادَةِ مَوْلَاكَ، لَا تُفَرِّطْ فِيهَا.

وَاتَّقِ اللهَ فِي إِخْوَانِكَ، لَا تُؤْذِ أَحَدًا مِنْهُم.

= القرآن سِوَىٰ جزءين أو ثلاثة علىٰ الأكثر! إنْ حَفِظ! والله المستعان.

فلو رجَعَ الأمر كما كان في العصُور السَّالِفَة؛ لوجَدْنا الأمر خِلَاف ما نراه اليوم مِن التَّرَدِّي.

(١) وهُنا يأتي دَوْر البَيْت في التَّحبِيب والتَّشْويق والمُتابعَة، ووضع النَّماذج النَّاجحة كمُثُلٍ عُلْـيَا أمام أطفالهم.

وَاتَّقِ اللهَ فِي بَلَدِكَ لَا تَخُنْهُ، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيهِ عَدُوًّا.

وَاتَّقِ اللهَ فِي نَفْسِكَ[١]، لَا تُهْمِلْ فِي صِحَّتِكَ[٢]، وَلَا تَتَخَلَّقْ بِسِوَىٰ الأَخْلَاقِ الفَاضِلَةِ.

---

(١) **فائدة**: رتَّب الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ الأَوْلَىٰ فالأَوْلَىٰ، فقدَّم حقَّ الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ سائر الحقوق؛ لأنه رَأس الأمر، وبه ينصلح ما دُونَه، ثُم قدَّم حَقَّ الوطَن علَىٰ حقِّ النَّفس؛ لأنَّ النَّفسَ لا تَقُوم بغير وطَنٍ يُؤوِيهَا، وَطَن خالٍ من الخوَنةِ المُندَسِّين، والأعداء المُعتَدِين؛ وهذا يصدق مقولة من قال: «حب الوطن مِن الإيمان».

واعْلَمْ، أنَّ خيانة الوطَن لا تقتصر علىٰ موالاة أعدائه ومعاونتهم فقط، بل كُلُّ ما يَفْعَله مُواطِنٌ مِن فسَادٍ في وطَنِه يُعدُّ خيانةً؛ فعَدَم طاعتك، بل انتِقَاصك وشَتْمك لـ«كبير الدَّار» -«ولي أمر وطنك» بداية الخيانة، وعدَم التِزَام قوانين البلَاد التَّنظيمية خيانة، والبطالةُ والكسَلُ عن الإنتاج خِيَانة، والكلام عن وطَنِك بما يُشِينه خيانة، وطلب الرِّشوَة أو دفعها أو السُّكوت عن ذلك خيانة، وتعطيل مصَالح أبناء وطنك خيانة، واحتِكَار السِّلَع واستِغلَال حاجات المواطنين خيانة، وزعزعة أَمْن وطنك خيانة...، وعلىٰ هذا فقِس.

(٢) المحافظة علىٰ الصحة والنَّفْس لها أصل في الشَّرع الحَنيف، فقد أوصَىٰ النبيُّ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك فيما أخرجه البخاري (٥١٩٩) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا**»، بل إنَّ الله عَزَّوَجَلَّ قد حرَّم كل ما يؤذي بني آدم مِن مطعم ومشرب، فحرَّم الخمر، والخنزير، والدم، والمَيْتَة علىٰ الخصوص، وحرَّم كل خبيثٍ علىٰ العموم، حتىٰ الإسراف في المباحات بما يضر قد نهىٰ الله عنه، فقال: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾، فمَا ظَنُّك بتعَاطِي ما يضر مِن الدُّخَان، والمُخدِّرات وغيرها مِمَّا تسَاهَلَ فيه النَّاس؟!

يَا بُنَيَّ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[١].

٭٭٭

(١) قال الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ: «رواه الإمام أحمد والترمذي والحاكم عن أبي ذر، ومعاذ بن جبل».
قلت: أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ١٥٣) (٢١٣٩٢)، والترمذي (١٩٨٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٧).

الدَّرْسُ الثَّالِثُ
فِي حُقُوقِ الخَلَّاقِ العَظِيمِ، وَحُقُوقِ رَسُولِهِ(١) صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

يَا بُنَيَّ: إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هُوَ الَّذِي خَلَقَكَ، وَأَوْجَدَكَ(٢)، وَأَسْبَغَ عَلَيْكَ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً.

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّكَ فِي أَوَّلِ أَمْرِكَ كُنْتَ نُطْفَةً فِي بَطْنِ أُمِّكَ، فَمَا زِلْتَ تَتَقَلَّبُ(٣) فِي نِعْمَةِ رَبِّكَ وَرَحْمَتِهِ؛ حَتَّىٰ وَلَدَتْكَ إِنْسَانًا كَامِلًا، وَوَهَبَ لَكَ:

- لِسَانًا تَتَكَلَّمُ بِهِ.
- وَعَيْنًا تُبْصِرُ بِهَا.

---

(١) في «ق»: [رسول الله]، وفي «ع»: [رسوله].

(٢) وهنا مَلْمَحٌ مُهِمٌّ ألمح الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إليه، وأحب أنْ أعرِّج عليه، حيث استعمل «الخلق، والإيجاد»، فالخلق هو الصُّنع والا بداع كما هو معلوم، فأراد بذكره أنه تعالىٰ صَنَعَ وأبْدَع وجَمَّل الخِلْقَة، أما الإيجاد فيكون من عدم، حيث لم تكن شيئًا... وهي إحدىٰ المعاني في لغة العرب.

فكأنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد أن يقول: إنَّ الله (أَوْجدَكَ) مِن عدم، إذْ لم تَكُ شيئًا، ثم لم يجعلك كأي موجود! حيوانًا مثلًا...، بل (خَلَقَكَ) فأحسن خِلْقَتك، وميَّزك، وصوَّرَك، وحسَّنكَ، وجمَّلكَ؛ ألَا يستحق أنْ يُعبد ويُعرف بصفاته؟! سبحان الله وبحمده.

(٣) في «ق»: [تَتَقَلَّبُ] دون [فَمَا زِلْتَ].

- وَأُذُنًا تَسْمَعُ بِهَا[١].

- وَعَقْلًا تُدْرِكُ بِهِ مَا يَضُرُّكَ وَمَا يَنْفَعُكَ.

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: ٧٨].

أَلَيْسَ الَّذِي وَهَبَكَ هَذِهِ النِّعَمَ تَفَضُّلًا مِنْهُ وَإِحْسَانًا -قَادِرًا عَلَىٰ سَلْبِهَا إِذَا أَغْضَبْتَهُ فَغَضِبَ عَلَيْكَ؟

يَا بُنَيَّ: أَوَّلُ وَاجِبٍ عَلَيْكَ لِخَالِقِكَ -جَلَّ شَأْنُهُ-:

- أَنْ تَعْرِفَهُ بِصِفَاتِهِ الكَمَالِيَّةِ[٢].

- وَأَنْ تَكُونَ شَدِيدَ الْحِرْصِ عَلَىٰ طَاعَتِهِ بِامْتِثَالِ أَوَامِرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ.

- وَأَنْ تَعْتَقِدَ اعْتِقَادًا جَازِمًا أَنَّ الخَيْرَ فِيمَا يَخْتَارُهُ اللهُ لَكَ، لَا فِيمَا تَخْتَارُهُ أَنْتَ لِنَفْسِكَ.

---

(١) سقطَتْ مِن «ق».

(٢) فتعرِفه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ كَوْنه إلَهًا واحِدًا مُتَفَرِّدًا مَعبُودًا لَا شَرِيكَ لَه، وتَعْرِفه خَالِقًا رَازِقًا، مَالِكًا مُدَبِّرًا -فتؤمن بهذا كله، وبِأَنَّ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَىٰ وَالصِّفَاتُ العُلَىٰ، التي لَا مَثِيلَ، ولَا شَبِيهَ ولَا تَكْيِيفَ ولَا تَعْطِيلَ ولا تَأْوِيلَ لهَا، ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾﴾، سبحانه وبحمده ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾.

فَلَا تَصُدَّنَّكَ عَنْ طَاعَةِ مَوْلَاكَ وَعِبَادَتِهِ الشَّهَوَاتُ وَالمَلَاهِي، وَلَا طَاعَةُ أَحَدٍ مِنَ المَخْلُوقَاتِ، عَظِيمًا كَانَ أَوْ حَقِيرًا.

يَا بُنَيَّ: مِنْ لُطْفِ اللهِ بِعِبَادِهِ إِرْسَالُ الرُّسُلِ عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِإِرْشَادِ الخَلْقِ، وَهِدَايَتِهِمْ إِلَىٰ مَا يُصْلِحُ شَأْنَهُمْ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ.

وَآخِرُ الرُّسُلِ هُوَ: سَيِّدُنَا «مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ»، العَرَبِيُّ، الهَاشِمِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فَكَمَا تَجِبُ عَلَيْكَ طَاعَةُ مَوْلَاكَ الَّذِي خَلَقَكَ؛ تَجِبُ عَلَيْكَ طَاعَةُ رَسُولِهِ الأَكْرَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩].

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [الفتح: ١٧].

يَا بُنَيَّ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَىٰ، فَكُلُّ أَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ مُسْتَنِدَةٌ إِلَىٰ الوَحْيِ الإِلَهِيِّ، فَطَاعَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ طَاعَةِ اللهِ جَلَّ شَأْنُهُ، ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران ٣١].

يَا بُنَيَّ: لَا يَكْمُلُ إِيمَانُ العَبْدِ حَتَّىٰ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ[1] إِلَيهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ، حَتَّىٰ أَكُونَ أَحَبَّ[2] إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ، وَوَلَدِهِ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»[3].

---

(١) في «ق»: [أَحَبُّ] بالرفع، وهو خطأ.

(٢) كما تقدَّم.

(٣) **قال الشيخ** رَحِمَهُ اللهُ: «رواه الإمام أحمد، والبخاري، والنسائي، وابن ماجه، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ».

قلت: أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤).

الدَّرْسُ الرَّابِعُ
فِي حُقُوقِ الوَالِدَيْنِ

يَا بُنَيَّ: مَهْمَا تَكَبَّدْتَ مِنَ المَشَقَّاتِ فِي خِدْمَةِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ، فَإِنَّ حُقُوقَهُمَا[1] عَلَيْكَ فَوْقَ ذَلِكَ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً[2]، ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل

---

(١) في «ق» خُفِضَت القاف الثانية مع الهاء، والصواب: نصب القاف ورفع الهاء علىٰ ما جاء في «ع».

(٢) صدق الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فما أعظم حقوقهما علينا! وقد تكاثرت آيات كتاب الله عَزَّوَجَلَّ الدالة علىٰ حقوقهما، وهي لا تخفىٰ.

وأمَّا مِن السُّنة: فمِن أفْضَل مَا يُذكَر فِي هَذَا الصَّدَد، حَدِيث الثَّلاثة الذين آوَاهُم المَبِيت إلىٰ غارٍ، فانحَدَرَتْ صخرةٌ فسَدَّت عليهم الغَار، فقال أحدهم: «اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا، فَنَأَىٰ بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا، فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّىٰ نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا، فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ، وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا، فَلَبِثْتُ وَالقَدَحُ عَلَىٰ يَدَيَّ، أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّىٰ بَرَقَ الفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا، فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ؛ فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا»، أخرجه البخاري (٢١١١)، ومسلم (٤٩٢٦) من حديث ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا.

فها هو، كاد أن يهلك ومَن معه في الغار، إلَّا أنه دعا الله بعملٍ صالح عمِلَهُ لِوَالِدَيه، حيث كان يظل الليل منتظرًا استيقاظهما، لا يَشْرب، ولا يُشْرِب أهله وأبناءه حتَّىٰ يَسْقِيَ والديه أوَّلًا؛ فكان فِعْلُه سببًا لنجاته.

ومِمَّا يَتناسب ذِكْرُه: ما أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١١)، بسند صححه الألباني

لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝٢٣ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۝٢٤﴾ [الإسراء: ٢٣-٢٤][(١)].

يَا بُنَيَّ: انْظُرْ إِلَىٰ الطِّفْلِ الصَّغِيرِ، وَإِلَىٰ إِشْفَاقِ أَبَوَيْهِ عَلَيهِ، وَاعْتِنَائِهِمَا بِصِحَّتِهِ وَطَعَامِهِ وَشَرَابِهِ وَمَلَاذِّهِ، فِي[(٢)] لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، وَصِحَّتِهِ وَسَقَمِهِ؛ تَعْلَمْ مِقْدَارَ مَا قَاسَىٰ أَبَوَاكَ فِي تَرْبِيَتِكَ حَتَّىٰ بَلَغْتَ مَبْلَغَ الرِّجَالِ.

يَا بُنَيَّ: إِنَّكَ فِي هَذِهِ السَّاعَةِ -الَّتِي وَفَّقَنِي اللهُ لِأَنْ أَتَوَلَّىٰ إِرْشَادَكَ فِيهَا- لَا تَزَالُ تَتَقَلَّبُ فِي نِعْمَةِ أَبِيكَ الَّذِي يُوَالِيكَ بِالنَّفَقَةِ بِمَا فِي وُسْعِهِ، وَلَا يَضِنُّ[(٣)] عَلَيْكَ بِمَا فِي طَاقَتِهِ؛ لَوْلَا أَبَوَاكَ مَا اسْتَطَعْتَ أَنْ تَجلِسَ هَذَا المَجْلِسَ بَيْنَ طُلَّابِ العِلْمِ الشَّرِيفِ.

= في «صحيح الأدب المفرد» (ص٦) عن أبي بردة: «أَنَّ ابْنَ عُمَر شَهِدَ رَجُلًا يمَانِيًّا يطوف بالبيتِ حمَلَ أُمَّهُ وراء ظهره، يقول:

إِنِّــي لَهَــا بَعِيرُهَــا المُــذَلَّلِ ... إِنْ أُذْعِــرَتْ رِكَابُهَــا لَــمْ أُذْعَــرِ

ثُمَّ قَال: يَا بْنَ عُمَر، أتَرَانِي جزَيْتُهَا؟ قال: «لَا، وَلَا بِزفْرَةٍ وَاحِدَةٍ».

فرُغْمَ اعتِنَائه بأُمِّه في كِبَرِهَا أو مرَضِهَا، وحَمْلِه إيَّاهَا علَىٰ ظهره طائفًا -وما أصعب ذلك علَىٰ مَن جرَّبه!-، ومع ذلك لَمْ يَتبَرَّم، بل عَدَّ نَفْسَه بَعِيرهَا، ومع ذلك لم يُوَفِّ حَقَّهَا!

(١) في «ق» و«ع»: [الإسراء: ٣٣-٣٤]، وهو خطأ في العزو لرقم الآية، والصَّواب ما أثبتُّه.

(٢) [فِي] زائدة في «ع».

(٣) أي: لَا يَبْخَل.

يَا بُنَيَّ: كُلُّ إِنْسَانٍ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ رَفِيعَ القَدْرِ، عَظِيمَ الجَاهِ، مَحْبُوبًا عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ النَّاسِ، وَيَتَمَنَّىٰ أَنْ يَكُونَ مَقَامُهُ فَوْقَ كُلِّ مَقَامٍ، لَكِنَّ الْوَالِدَ يُحِبُّ لِوَلَدِهِ أَنْ يَكُونَ أَرْفَعَ مِنْهُ مَنْزِلَةً، وَأَكْبَرَ مِنْهُ مَقَامًا؛ وَأَعَزَّ مِنْهُ جَاهًا؛ فَبِمَاذَا يَجِبُ أَنْ تُعَامِلَ مَنْ يُقَدِّمُكَ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَيَتَمَنَّىٰ لَكَ أَكْثَرَ مِمَّا يَتَمَنَّىٰ لَهَا؟

يَا بُنَيَّ: احْذَرْ كُلَّ الحَذَرِ أَنْ تُغْضِبَ أَبَاكَ، أَوْ تُغْضِبَ أُمَّكَ؛ إِنَّ غَضَبَ اللهِ مَقْرُونٌ بِغَضَبِ الوَالِدَيْنِ، وَمَنْ غَضِبَ اللهُ عَلَيهِ؛ فَقَدْ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ[١].

---

(١) كيف لا يكون غضب الله عَزَّوَجَلَّ مقرونًا بغضب الوالدين، وقد أورد سبحانه عِدَّة آياتٍ في فضل بِرِّهما؟! بل قَرَنَ حقوقهما بحَقِّهِ عَزَّوَجَلَّ، فقال: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾.

وَرُوِيَ أنَّ أبا بكرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: «**كُلُّ الذُّنُوبِ يُؤَخِّرُ اللهُ مَا شَاءَ مِنْهَا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، إِلَّا عُقُوقَ الوَالِدَيْنِ؛ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُعَجِّلُهُ لِصَاحِبِهِ فِي الْحَيَاةِ قَبْلَ الْمَمَاتِ**»، أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٧٢٦٣) وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وأورده الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٢١٣).

وهذا الحديث وإن كان فيه ضعف يسير إلَّا أنه يصلح للاستشهاد في هذا الباب؛ لصحة معناه وشواهده، وإذا كان الله عَزَّوَجَلَّ يقتص للمظلوم مِمَّن ظلمه، أفلا يقتص مِمَّن ظلم والديه وعَقَّهُمَا؟!

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ لَا شَكَّ فِيهِنَّ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ عَلَىٰ وَلَدِهِ**»، أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٢٥٨) (٧٥٠١)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٣١)؛ فاللهم قنا غضبك، وغضب وَالِدَيْـنَا.

يَا بُنَيَّ: أَطِعْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ؛ وَلَا تُخَالِفْهُمَا فِي شَيْءٍ، إِلَّا إِذَا أَمَرَاكَ بِمَعْصِيَةِ مَوْلَاكَ، فَإِنَّهُ «**لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ**»(١)، ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ١٤، ١٥].

يَا بُنَيَّ: إِنَّ أَشَدَّ النَّاس حُبًّا لَكَ هُوَ أَبُوكَ الَّذِي تَوَلَّىٰ تَرْبِيَتَكَ(٢) صَغِيرًا، وَسَلَكَ طَرِيقَ الرَّشَادِ فِي تَعْلِيمِكَ؛ حَتَّىٰ صِرْتَ مِنْ طُلَّابِ العُلُومِ الدِّينِيَّةِ؛ فَاحْرِصْ عَلَىٰ قَبُولِ نَصَائِحِهِ، فَهُوَ أَدْرَىٰ مِنْكَ بِمَا يُصِيبُكَ، وَمَا يَنْفَعُكَ، وَمَا يَضُرُّكَ.

وَاللهُ يَتَوَلَّىٰ هِدَايَتَكَ وَإِرْشَادَكَ وَصَلَاحَكَ.

---

(١) قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو حديث شريف، رواه الإمام أحمد والحاكم عن عمران بن حصين، والحكم بن عمرو الغفاري.

قلت: أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٦٦) (٢٠٦٧٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٥٢٠).

(٢) في «ق» [تربيتك] بالخفض، وهو خطأ، والصواب النصب.

الدَّرْسُ الخَامِسُ
فِي حُقُوقِ الإِخْوَانِ

يَا بُنَيَّ: هَا أَنْتَ قَدْ أَصْبَحْتَ مِنْ طَلَبَةِ العِلْمِ الشَّرِيفِ، وَلَكَ رُفَقَاءُ فِي دَرْسِكَ، هُمْ إِخْوَانُكَ، وَهُمْ عَشِيرَتُكَ؛ فَإِيَّاكَ أَنْ تُؤْذِيَ أَحَدًا مِنْهُمْ أَوْ تُسِيءَ مُعَامَلَتَهُ.

يَا بُنَيَّ: إِذَا جَلَسْتَ لِلدَّرْسِ فَلَا تُضَايِقْ أَحَدًا مِنْ إِخْوَانِكَ، وَافْسَحْ[1] لَهُ فِي المَكَانِ حَتَّىٰ يَتَمَكَّنَ مِنَ الجُلُوسِ؛ فَإِنَّ مُضَايَقَةَ الإِخْوَانِ فِي مَجَالِسِهِمْ تُوغِرُ الصُّدُورَ، وَتُوَلِّدُ الأَحْقَادَ، وَتُثِيرُ الشُّرُورَ[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ١١﴾ [المجادلة: ١١].

يَا بُنَيَّ: إِذَا أَشْكَلَتْ[3] مَسْأَلَةٌ عَلَىٰ أَحَدِ إِخْوَانِكَ فِي دَرْسِهِ، وَطَلَبَ مِنَ الأُسْتَاذِ إِيضَاحَهَا لَهُ، فَاسْتَمِعْ لِمَا يَقُولُهُ أُسْتَاذُكَ فِي الجَوَابِ؛ لَعَلَّكَ تَسْتَفِيدُ مِنَ

---

(١) في «ق»: [وَافْسَخْ] بالخاء، وهو خطأ.

(٢) في «ق»: [السُّرُور] بالسين، وهو خطأ.

(٣) في «ق»: [اشْتَكَلَتْ]، وهو خطأ.

الإِعَادَةِ فَائِدَةً لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُهَا، وَإِيَّاكَ ثُمَّ إِيَّاكَ أَنْ تَـتَـكَلَّمَ(١) بِكَلِمَةٍ تَدُلُّ عَلَىٰ احْتِقَارِهِ، أَوْ أَنْ يَظْهَرَ عَلَىٰ وَجْهِكَ مَا يُفِيدُ الاسْتِخْفَافَ(٢) بِأَفْكَارِهِ.

يَا بُنَيَّ: قِيلَ لِلإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(٣): بِمَ بَلَغْتَ مَا بَلَغْتَ مِنَ العِلْمِ؟

---

(١) في «ق»: [يَتَكَلَّم]، وهو خطأ.

(٢) في «ق»: [الاستخفافِ] بالخفض، والصواب النصب.

(٣) هو الفَقِيه الكَبِير، صَاحِبُ المَذْهَب الشَّهير، وَاسْمُه: النُّعمانُ بْنُ ثَابتٍ الكُوفِيُّ، ويُعَدُّ مِن التَّابعين، فقد لقِيَ مِن أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنس بن مالك، وجابِر، ومَعقل بن يسَار، وواثِلَة بن الأَسْقَع، وغيرَهُم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وُلِدَ (٨٠ هـ)، ومِن شيوخه: عطاء، وهو أكبر شيخ له وأفضلهم علَىٰ ما قال، والشَّعبي، وطاووس، وعاصم بن أبي النجود، وروَىٰ عنه: ابنُه حمَّاد، وإمامُ دارِ الهجرة أَنَسُ بْنُ مالكٍ، والمقرئُ الكَبيرُ حَمْزةُ بن حبيب الزَّيَّات أحَدُ القُرَّاء السبعة، ومحمَّد بن الحَسَن الشَّيباني وغيرهم، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ وَرِعًا عالِمًا مُتعبِّـدًا، كبير الشَّأن، عزِيزَ النَّفْس، لا يَقبَلُ جوائز السُّلطان، بل يتَّجِر ويتكسَّب.

قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما رأيت في الفقه مثله».

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «النَّاس عِيالٌ فِي الفقه عَلَىٰ أبي حنيفة».

أُخِذَ عليه ضَعْفه فِي الحَدِيث، فقَال عَلِيٌّ بنُ المَدِينِي: «قيل ليحيىٰ القَطَّان: كيْفَ كانَ حَدِيث أبي حَنِيفَة؟ قال: لم يَكُن بصَاحِب حَدِيث».

وقال البخاري: «ضَعِيفٌ ترَكُوا حدِيثَه».

وقال النَّسائِيُّ: «ليْسَ بالقَويِّ في الحديث، وهو كثير الغلَط والخطإ علَىٰ قِلَّة روَايتِه».

وقال ابنُ مَعِين: «لَا يُكتَب حَدِيثُه. وقال مرة: هو أَنْبَل مِن أَنْ يَكْذِب»، انظر: «الضعفاء =

قَالَ: «مَا بَخِلْتُ بِالإِفَادَةِ، وَلَا اسْتَنْكَفْتُ عَنِ الاسْتِفَادَةِ»[(١)].

= والمتروكون» لابن الجوزي (١٦٣/ ٣).

قلت: وبالجملة، فَهُو فقيهٌ بلَا مُدافعة، قويٌّ بلَا مُنازَعة، ولكن أهل الحديث قالوا ما قالوا كمَا تقَدَّم.

وأُخِذ عليه أيضًا: أنه خالَفَ جُمهورَ السَّلَف في مسألة «إخراج الأعمال عن حقيقة الإيمان»؛ لأنه يَرىٰ أن: «الإيمان التَّصدِيق بالجَنان، والإقرَار باللِّسَان».

ويرَىٰ غيرُه مِن الأئمة: «أنه اعتِقَاد القَلْب، وإقرَار اللِّسَان، وعمَل الأرْكَان»، وهذا اعتقاد أهل السُّنة بلَا رَيْب؛ فمِنْ هُنا عَابُوا عليه، واتُّهِمَ بالإرجَاء.

قال ابن عبد البر: «كلُّ مَن قال مِن أهل السُّنة: الإيمَان قولٌ وعمَلٌ يُنكرون قوله ويُبَدِّعُونه»، «الانتقاء» (١٤٩).

فهو وإنْ خالف السلف بتأخيره العمل عن رُكنِيَّة الإيمان، فإنه لم يَدَع برَأْيِهِ هذَا أربَابَ الشَّهوات لإشباع شهَواتهم، وتحقيق رغباتهم باللَّعِب بالمَحْظُورات، وانتِهَاك أسْتَار الشَّريعة الغرَّاء كمَا فعَلَ المُرجئة، الذين رفَعُوا اللَّوم عن العُصَاة، وفتَحُوا لَهُم الطَّريق إلىٰ هَتْك مَحارم الله، دُونَ خشيةٍ مِن عِقَاب الله تعَالىٰ، وقيل: إنَّ أبا حَنيفةَ، رجع عن قوله، ووافق السَّلَف في أنَّ الأعمال من الإيمان.

قال ابن أبي العِز: «والظَّاهِر أنَّ هذه المُعارَضات لم تَـثْبُت عن أبي حنيفة، وإنَّما هي مِن الأصحَاب، فإنَّ غالبها ساقطة لا يرتضيها أبو حنيفة»، انظر: «شرح الطحاوية» (٣٩٥).

وقد تُوفِّيَ أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ سنة (١٥٠هـ)؛ رَحِمَهُ اللَّهُ وغفر له. انظر: «تاريخ بغداد» (١٣/ ٣٢٣)، و«شذرات الذهب» (١/ ٢٢٧)، و«سير أعلام النبلاء» (٦/ ٣٩٠).

(١) أورده العيني في «عمدة القاري» (٣/ ٤٣٢)، وابن عابدين في «رد المحتار» (١/ ١٢٧).

فَيَا بُنَيَّ: لَا تُضَيِّقْ عَلَىٰ إِخْوَانِكَ طَرِيقَ العِلْمِ إِذَا طَلَبُوا مِنْ أُسْتَاذِهِمْ تَحْقِيقَ مَسْأَلَةٍ لَمْ يَعْرِفُوهَا حَقَّ المَعْرِفَةِ، وَشَارِكْهُمْ[١] فِي الاسْتِمَاعِ إِلَىٰ مَا يَقُولُ الأُسْتَاذُ[٢]، إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الخَيْرَ لِنَفْسِكَ.

يَا بُنَيَّ: إِنَّ لَكَ مِنْ إِخْوَانِكَ مَنْ يُشَارِكُكَ فِي المَسْكَنِ وَالمَبِيتِ؛ فَاحْرِصْ عَلَىٰ رَاحَةِ إِخْوَانِكَ فِي مَسَاكِنِهِمْ، وَإِذَا جَاءَ وَقْتُ النَّوْمِ فَلَا تُزْعِجْهُمْ بِالمُطَالَعَةِ وَالمُذَاكَرَةِ، وَاطْلُبْ لَهُمْ مِنَ الرَّاحَةِ مَا تَطْلُبُهُ لِنَفْسِكَ.

فَإِذَا طَلَعَ الفَجْرُ وَاسْتَيْقَظْتَ لِأَدَاءِ فَرِيضَةِ الصَّلَاةِ، فَأَيْقِظْ إِخْوَانَكَ بِرِفْقٍ وَلُطْفٍ، وَحَافِظُوا عَلَىٰ الصَّلَاةِ فِي جَمَاعَةٍ؛ فَإِنَّ صَلَاةَ الجَمَاعَةِ أَفْضَلُ مِنَ الصَّلَاةِ أَفْذَاذًا[٣].

---

(١) في «ق»: [وَشَارَكَهُمْ] بالماضي، وهو خطأ.

(٢) ذلك لأن لكل مقامٍ مقال، فأنت في مقام استماعٍ وتعلُّمٍ، لا مُناقشةٍ وتكَلُّم، وبكلامك يظن الشارح الآخرين فِهَامًا؛ فتقطع عليهم السبيل، كذلك باستماعك قد تُحَصِّل جديدًا لم تكن حصلته من قبل؛ فتكون أردتَ الخير لنفسك قبل غيرك.

(٣) «**أفذاذًا**»: جَمْعُ «فَذّ»، أي: منفرد، ويُقَال: «جاء القوم أفذاذًا» أي أفرادًا، والشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ يُشير إلىٰ الحديث المتفق عليه عند البخاري (٦٤٥)، ومسلم (٦٥٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**صَلَاةُ الجَمَاعَةِ تَفْضُلُ صَلَاةَ الفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً**».

وفي رواية عند البخاري (٦٤٦) من حديث أبي سعيد الخدري: «**بِخَمْسٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً**».

ولا تعارُضَ بين الرِّوَايتين في ذِكْر العدَدَيْنِ؛ لأن ذِكْر العَدَد الأقل لا يَنْفِي الأكثر، وقيل:

يَا بُنَيَّ: إِذَا اسْتَعَانَ بِكَ أَحَدُ إِخْوَانِكَ عَلَىٰ عَمَلٍ لَا يَسْتَطِيعُ القِيَامَ بِهِ وَحْدَهُ؛ فَلَا تَبْخَلْ بِمُسَاعَدَتِهِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُظْهِرَ لَهُ أَنَّكَ صَاحِبُ الفَضْلِ عَلَيهِ بِهَذِهِ المُسَاعَدَةِ[(١)].

يَا بُنَيَّ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«الْمُؤْمِنُ لِلمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا»**[(٢)].

❀❀

= «إنَّه -عليه الصلاة والسلام- أُخبِرَ بالخَمْس، ثم أعْلَمَهُ الله بزيادة الفَضْل؛ فأُخبِر بالسَّبع»، ذكَرَهُ القَسْطَلاني في «إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري» (٢/ ٢٦)، وقيل: المراد التكثير لا التحديد.

(١) فقد قيل: «أَحْيِي مَعْرُوفَك بإمَاتَتِه»، وقيل: «المَنُّ يُفسِد الصَّنيعَة»، انظر: «بهجة المجالس وأنس المجالس» لابن عبد البر (١/ ٦٤).

وقال امرؤ القيس:

أَفْسَدْتَ بِالْمَنِّ مَا أَوْلَيْتَ مِن حُسْنٍ ... لَيْسَ الكَرِيمُ بِمَا أَسْدَىٰ بِمَنَّانِ

وهو بيتٌ مِن بحر «البسيط»، أنشأه امرؤ القيس ردًّا علىٰ رجلٍ امتنَّ عليه، انظر: «ديوان امرئ القيس» (ص١٦١)، تحقيق: عبد الرحمن المصطاوي.

(٢) **قال الشيخ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، عن أبي موسىٰ الأشعري».

قلت: أخرجه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).

الدَّرْسُ السَّادِسُ
فِي آدَابِ طَلَبِ العِلْمِ الشَّرِيفِ

يَا بُنَيَّ: أَقْبِلْ عَلَىٰ طَلَبِ العِلْمِ بِجِدٍّ وَنَشَاطٍ، وَاحْرِصْ عَلَىٰ وَقْتِكَ أَنْ يَذْهَبَ مِنْهُ شَيءٌ لَا تَنْتَفِعُ فِيهِ بِمَسْأَلَةٍ تَسْتَفِيدُهَا(١).

---

(١) إنَّ الحِرْصَ علَىٰ الوَقْتِ مِنْ أَهَمِّ آداب ووسَائل طلَبِ العِلْم، بل مِن أَهَمِّ مُهِمَّات الإنسَان في سائر حياته، إذْ الوقت الَّذِي يَنْسَحِب لَا يَعُود؛ لأنه مِن العُمر، وكُلَّما انقضَىٰ نَقَص، وحِينمَا نطَّلِع علَىٰ أحوال السَّلف والعُلمَاء، والمُلوك والأُمَراء، وسائر العُظمَاء...، نَجِدهُم يَحْرِصُون علىٰ الوقت أحْرص مِن البَخِيل علىٰ ماله!

قال الحسَن البصريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أدْرَكتُ أقوامًا كان أحَدهُم أشَحَّ علَىٰ عمُرِه مِنْهُ علَىٰ درَاهِمِه ودنَانِيره»، «الزهد» لابن المبارك (ص٤).

وقسَّم إمامُ العَربيَّة، الخليلُ بنُ أحمَدَ الفرَاهِيدِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **الوقتَ ثلاثة أقسام**: «وقتٌ مضَىٰ عنك؛ فلن يعود، ووقتٌ أنت فيه؛ فانظر كيف يخرج عنك؟ ووقتٌ أنت منتظره؛ وقد لا تبلغ إليه!»، «طبقات الحنابلة» (١/ ٢٨٨)، وهَذَا تقسيمٌ جيدٌ مُستنبَط، ثُم أفَادني أخِي الفَاضِلُ الشَّيخُ مُحمَّد سَعِيد البُحَيْرِي أنه أخذه من أزمنة الفِعل «ماض - مضارع أنت فيه مستمر - وأمر مستقبلي».

وقال أحد الحُكَماء: «مَن أمْضَىٰ يومًا مِن عمُره في غير حقٍّ قَضاه، أو فرضٍ أدَّاه أو مَجْدٍ أثَّله [أي: وَرَّثه]، أو حَمْدٍ حَصَّله، أو خَيرٍ أَسَّسه، أو عِلْمٍ اقتبَسَه؛ فقد عقَّ يَوْمَه، وظَلَم نفْسَه»، «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص٥٧).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إضاعة الوقت أشد مِن الموت؛ لأنه يقطعك عن الله والآخرة، =

يَا بُنَيَّ: طَالِعْ دُرُوسَكَ الْمُقَرَّرَةَ عَلَيْكَ مُطَالَعَةً جَيِّدَةً قَبْلَ اسْتِمَاعِهَا مِنَ الأُسْتَاذِ فِي مَجْلِسِ الدَّرْسِ، وَإِذَا أَشْكَلَ عَلَيْكَ الأَمْرُ فِي مَسْأَلَةٍ مِنَ المَسَائِلِ، فَلَا تَسْتَنْكِفْ[1] مِنْ عَرْضِهَا عَلَىٰ أَحَدِ إِخْوَانِكَ، لِتَشْتَرِكَ مَعَهُ فِي فَهْمِهَا، وَلَا تَنْتَقِلْ مِنْ مَسْأَلَةٍ إِلَىٰ أُخْرَىٰ قَبْلَ فَهْمِ الأُولَىٰ فَهْمًا جَيِّدًا.

وَإِذَا أَجْلَسَكَ الأُسْتَاذُ فِي مَكَانِكَ الَّذِي عَيَّنَهُ لَكَ مِنَ الدُّرُوسِ، فَلَا تَجْلِسْ فِي غَيْرِهِ، وَإِذَا تَعَدَّىٰ عَلَيْكَ أَحَدُ إِخْوَانِكَ بِالجُلُوسِ فِيهِ فَلَا تُنَازِعْهُ، وَلَا تُشَاتِمْهُ، وَارْفَعِ الأَمْرَ إِلَىٰ أُسْتَاذِكَ حَتَّىٰ يُقِيمَهُ[2] وَيُجْلِسَكَ فِي مَكَانِكَ المُعَيَّنِ.

= والموت يقطعك عن الدُّنيا وأهلها»، بتصرف مِن «الفوائد» (ص٣١).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما مضىٰ مِن الدُّنيا أحلام، وما بقِيَ أمَاني، والوقت ضائع بينهما»، «الفوائد» (ص٤٨).

فإذَا ابتُليتَ بتَضْيِيع الوقت؛ فاعلم أنك علىٰ خطر عظيم، وسوف يضيع عمُرك في الدُّنيا، وعملُك في الآخرة.

وتأمّل قول سيف اليماني رَحِمَهُ اللَّهُ إذْ قَال: «إنَّ مِن علامة إعراض الله عن العبد: أنْ يشغله بما لَا ينفعه»، «طبقات المُحَدِّثين» لأبي الشيخ الأصبهاني (٣/ ٢٩٢)؛ فأدرِك نفسك.. ولَمْلِم بقايَا عُمُرك!

(١) «الاسْتِنكَاف»: الامتِنَاعُ بأَنَفةٍ واستِكْبَار.

(٢) في «ق»: [يُقَيِّمَهُ] مِن الفِعل: «قيَّم» أيْ قدَّر، كقيَّم النتيجة، والصواب في السياق: «يُقيمَه» بالمَدِّية، مِن فِعل «أقَامَ» أي نصبَ، أو أزال فلانًا مِن مَكانه، أو عدَّل وأزال العِوَج، ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾.

يَا بُنَيِّ: إِذَا شَرَعَ الأُسْتَاذُ فِي قِرَاءَةِ الدَّرْسِ فَلَا تَتَشَاغَلْ عَنْهُ بِالحَدِيثِ، وَلَا بِالمُنَاقَشَةِ مَعَ إِخْوَانِكَ، وَأَصْغِ إِلَىٰ مَا يَقُولُهُ الأُسْتَاذُ إِصْغَاءً تامًّا.

وَإِيَّاكَ أَنْ تَشْغَلَ فِكْرَكَ بِشَيْءٍ آخَرَ مِنَ الهَوَاجِسِ(١) النَّفْسِيَّةِ أَثْنَاءَ الدَّرْسِ، وَإِذَا أَشْكَلَتْ عَلَيْكَ مَسْأَلَةٌ بَعْدَ تَقْرِيرِهَا؛ فَاطْلُبْ مِنَ الأُسْتَاذِ بِالأَدَبِ وَالكَمَالِ إِعَادَتَهَا.

وَإِيَّاكَ أَنْ تَرْفَعَ صَوْتَكَ عَلَىٰ أُسْتَاذِكَ(٢)، أَوْ تُنَازِعَهُ إِذَا أَعْرَضَ عَنْكَ وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَىٰ قَوْلِكَ.

---

(١) في «ق»: [الهواجش]، وهو خطأ.

(٢) بل إن أكابر العلماء كانوا في زمَن طَلَبهم أحرصَ ألَّا يَرْفَعُوا أصوات الورَقات عند تصَفُّحِها بين يدَيْ عُلمائهم، فضلًا عن غَضِّ أصواتهم!

فعن حَرْمَلة بن يحيىٰ قال: سمعتُ الشَّافعِيَّ يقول: «ما أعلمُ أنِّي أخذتُ شيئًا مِن الحَدِيث، أو القرآن، أو النَّحو، أو العَرِبيَّة، أو شيئًا مِن الأشياء ما كنت أستفيده؛ إلَّا كنت أستعمل فيه ما ذكَرتُم [يعني: الأدَب]، فكنتُ أفعَلُ هذَا قَدِيمًا، وكان ذَلِكَ طبعِي، إنْ قَدِمتُ المَدِينةَ فرأيتُ مِن مَالِك بن أنس ما رأيتُ مِنْ هَيْبَتِه وإجلَالِه للعلم؛ فَازْدَدتُ لذلك، حتَّىٰ رُبمَا كنتُ أكُون فِي مَجْلسِه وأُرِيدُ أنْ أصْفحَ الورَقَة، فأصْفَحها صفحًا رقِيقًا هَيْبةً له؛ لِئَلَّا يَسْمعَ وَقْعهَا»، «تاريخ دمشق» (١٤/ ٢٩٣).

وعَنْ عَلِيِّ بْنِ أبي طَالِب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** «مِن حَقِّ العَالِم عليك: أنْ تُسَلِّم علَىٰ القوم عامَّة وتَخُصَّهُ بالتَّحِية، وأن تجلِسَ أمامه، ولا تُشِيرَنَّ عنده بِيَدِك، ولا تعمدنَّ بعينك غيره، ولا تقولَنَّ قال فلانٌ خِلَاف قوله، ولا تغتَابنَّ عنده أحدًا، ولا تسَارَّ في مجلسه، ولا تأخذ بثَوْبه، ولا تلحَّ عليه إذا كسل، ولا تشبع مِن طُول صُحبَتِه؛ فإنَّما هو كالنَّخلة، تنتظر متىٰ يسقط عليك منها شيء»، انظر: «المجموع شرح المهذب» (١/ ٣٦).

يَا بُنَيَّ: إِذَا خَرَجَ التِّلْمِيذُ عَنْ حَدِّ الأَدَبِ بَيْنَ يَدَي أُسْتَاذِهِ، سَقَطَتْ قِيمَتُهُ عِنْدَ أُسْتَاذِهِ، وَعِنْدَ إِخْوَانِهِ، وَاسْتَحَقَّ التَّأْدِيبَ، وَالزَّجْرَ عَلَىٰ قِلَّةِ أَدَبِهِ.

يَا بُنَيَّ: إِذَا لَمْ تَحْتَرِمْ أُسْتَاذَكَ فَوْقَ احْتِرَامِكَ لِأَبِيكَ، لَمْ تَسْتَفِدْ مِنْ عُلُومِهِ، وَلَا مِنْ دُرُوسِهِ شَيْئًا.

يَا بُنَيَّ: زِينَةُ العِلْمِ التَّوَاضُعُ وَالأَدَبُ، فَمَنْ تَوَاضَعَ للهِ رَفَعَهُ[1]، وَحَبَّبَ فِيهِ خَلْقَهُ، وَمَنْ تَكَبَّرَ وَأَسَاءَ الأَدَبَ؛ سَقَطَ مِنْ أَعْيُنِ النَّاسِ، وَبَغَّضَهُ اللهُ إِلَيهِمْ، فَلَا يَكَادُ يَجِدُ إِنْسَانًا يُكْرِمُهُ أَوْ يُشْفِقُ عَلَيْهِ[2].

---

(١) يُشير رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ حديث: «**وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ**»، وقد أخرجه مسلمٌ (٢٥٨٨) مِن حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**رَفَعَهُ اللهُ**»، **فيه وجهان**:

أحدُهمَا: يرفعه الله في الدُّنيا، ويُثَبِّت له بتواضُعِه في القلوب مَنْزِلةً، ويَرفعهُ عند النَّاسِ، ويُجِلُّ مكَانَه.

والثَّاني: أنَّ المُراد ثوَابه في الآخِرَةِ، ورَفْعه فيها بتَواضُعِه في الدُّنيا.

وقد يكون المراد الوجهين معًا، والله أعلم. انظر: «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٦/ ١٤٢).

(٢) بل إنَّ الكِبر هو ما جعل جميع الخلائق تُبغض مَن كان محبوبًا عند الله، وعند ملائكته؛ فأبغضه اللهُ وبغَّض إليه جميع الخلَائق، وطرَدَهُ عَزَّوَجَلَّ مِن رحمته، وهو إبليس الطَّريد اللَّعين؛ ولذلك فقد حذَّرَ الله من الكِبر أشدَّ التَّحذِير، فقال: «**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ**»، أخرجه أبو داود (٤٠٩٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ولفظ ابن ماجه: «**أَلْقَيْتُه فِي جَهَنَّمَ**».

فاحْذَر الكِبر، فإنه طريق جهنم؛ عصَمنِي اللهُ وإيَّاك، آمين.

يَا بُنَيَّ: لَا شَيءَ أَضَرُّ عَلَىٰ طَالِبِ العِلْمِ مِنْ غَضَبِ الأَسَاتِذَةِ وَالعُلَمَاءِ؛ فَإِيَّاكَ -يَا بُنَيَّ- أَنْ تُغْضِبَ أَحَدًا مِنَ المُدَرِّسِينَ، أَوْ تُسِيءَ الأَدَبَ أَمَامَهُ، فَإِنَّ أَقَلَّ مَا يُنْتِجُهُ غَضَبُ الأَسَاتِذَةِ: الحِرْمَانُ، وَالقَطِيعَةُ.

فَاقْبَلْ -يَا بُنَيَّ- نَصِيحَتِي لَكَ، وَالْتَمِسْ رِضْوَانَ مَشَايِخِكَ، وَاسْأَلْهُمُ الدُّعَاءَ لَكَ بِالفَتْحِ؛ عَسَىٰ اللهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ دُعَاءَهُمْ لَكَ.

وَإِذَا خَلَوْتَ بِنَفْسِكَ؛ فَأَكْثِرْ مِنَ الدُّعَاءِ وَالابْتِهَالِ إِلَىٰ اللهِ تَعَالَىٰ: أَنْ يَرْزُقَكَ العِلْمَ النَّافِعَ(١)، وَالعَمَلَ بِهِ(٢)؛ إِنَّ رَبَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ، وَاسِعُ الكَرَمِ وَالجُودِ.

---

(١) فالعلم النافع هو الرِّزق الحقيقي، وهو أحق ما يَسأل العبدُ ازدِيادَه؛ لذلك أمَرَ اللهُ نبيَّه فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾، وكان النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في دعائه: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ عِلْمًا نَافِعًا**»، أخرجه ابن ماجه (٩٢٥) من حديث أُمِّ سلَمة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٧٥٣)، وكان يقول لأصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: «**سَلُوا اللهَ عِلْمًا نَافِعًا، وَتَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ**»، أخرجه ابن أبي شيبة في «المؤلف» (٢٦٧١٢)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٥١١).

(٢) اعْلَم -علَّمني اللهُ وإيَّاك- أنَّ كُلَّ ما ذُكِر في فضل العلم وأهله كان في حق العَامِلِين به، لا المُفتَخِرين، ولَا المُستَكثِرين، ولَا طَالِبي الأغراض الدُّنيويَّة مِن مالٍ أو جاهٍ، أو تكثير أتبَاعٍ، أو شُهرةٍ وذِيَاعٍ!

وقد ذمَّ الله عَزَّ وَجَلَّ مَن تركُوا العمَل في قوله: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤﴾.

وقال سبحانه علَىٰ لِسان شُعيب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ ...﴾.

=

= وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣﴾.

وعن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَثَلُ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الْخَيْرَ وَيَنْسَىٰ نَفْسَهُ، كَمَثَلِ السِّرَاجِ، يُضِيءُ لِلنَّاسِ وَيحْرِقُ نَفْسَهُ**»، أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٦٨٢)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٣١).

وللسلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ **كلام كثير في هذا الباب، أذكر لك طرفًا منه:**

فقد رُوِيَ عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **أَنَّهُ قال:** «يَا حملةَ العِلم، اعمَلُوا بِه؛ فإنَّما العالِم مَن عَلِم ثُمَّ عَملَ ووَافقَ عملُه عِلْمَه، وسيكُون أَقْوَامٌ يَحملُونَ العِلمَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُم، تُخَالِفُ سَرِيرَتُهُمْ عَلَانِيَتَهُمْ، وَيُخَالِفُ عَمَلُهُمْ عِلْمَهُمْ».

وقال عبدُ الله بْنُ مَسْعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّ النَّاسَ أَحْسَنُوا الْقَوْلَ كُلُّهُمْ، فَمَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ فِعْلَهُ؛ فَذَلِكَ الَّذِي أَصَابَ حَظَّهُ، وَمَنْ خَالَفَ قَوْلُهُ فِعْلَهُ؛ فَإِنَّمَا يُوَبِّخُ نَفْسَهُ».

وقال مُعَاذ بن جَبلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اعْلَمُوا مَا شِئْتُمْ أَنْ تَعْلَمُوا، فَلَنْ يَأْجُرَكُمُ اللهُ بِعِلْمِهِ حَتَّىٰ تَعْمَلُوا».

وعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قال:** «لَا تَكُونُ تَقِيًّا؛ حَتَّىٰ تَكُونَ عَالِمًا، وَلَا تَكُونُ بِالْعِلْمِ جَمِيلًا؛ حَتَّىٰ تَكُونَ بِهِ عَامِلًا».

وعَنْ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ **قال:** «إِنَّ حَقًّا عَلَىٰ مَنْ طَلَبَ الْعِلْمَ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَقَارٌ وَسَكِينَةٌ وَخَشْيَةٌ، وَأَنْ يَكُونَ مُتَّبِعًا لِآثَارِ مَنْ مَضَىٰ قَبْلَهُ».

وَارْجِع -جعلَكَ اللهُ لِلحقِّ رَجَّاعًا- إلىٰ هذه الآثار في «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر، ولغيرها في: «ذَم مَن لا يعمل بعلمه» لابن عساكر، و«أخلاق العلماء» للآجُرِّي، و«اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي، وفي غيرها من كتب أهل العلم رَحِمَهُمُ اللَّهُ في هذا الباب المهم.

الدَّرْسُ السَّابِعُ
فِي آدَابِ المُطَالَعَةِ وَالمُذَاكَرَةِ وَالمُنَاظَرَةِ

يَا بُنَيَّ: إِنْ أَرَدْتَ الخَيْرَ لِنَفْسِكَ؛ فَلَا تُطَالِعْ دَرْسَكَ وَحْدَكَ، وَاتَّخِذْ لَكَ صَدِيقًا مِنْ إِخْوَانِكَ[1] يُشَارِكُكَ فِي المُطَالَعَةِ، وَيُعِينُكَ عَلَىٰ الفَهْمِ، فَإِذَا مَرَرْتَ

---

(١) والمُشارَكة في المُذاكَرة ليْسَتْ حادثة عَصْرنَا، بل استَحبَّها السلف قبل أنْ يَسْتَحسِنَها الخلَف؛ فقد قال عُمَر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنتُ أنا وجارٌ لِي مِن الأنصَار نَتنَاوَبُ النُّزُولَ علَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَنْزِلُ يومًا وأنزِلُ يومًا، فإذَا نَزَلْتُ؛ جِئتُهُ بِخبَر ذلك اليومِ مِن الوَحْي وَغَيْرِه، وإذَا نزَلَ فَعَلَ مِثلَ ذَلِكَ»، أخرجه البخاري (٨٩).
وقال أنسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كُنَّا نكُونُ عِندَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنَسْمَعُ مِنهُ الحَدِيث، فَإِذَا قُمْنَا تَذاكَرْنَاهُ فِيمَا بيْننا؛ حتَّىٰ نَحْفَظَه»، انظر: «الجامع لأخلاق الراوي» للخطيب (١/ ٢٣٦).
إذَنْ، هي سُنةٌ عن أصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعلَيْهَا درجَ أئمة التَّابعِين، والعُلمَاء العَامِلين:
فعن إبرَاهِيم بن أدْهَم رَحِمَهُ اللَّهُ أنه كان يقول: «إنَّه لَيطُولُ علَيَّ اللَّيل، حتَّىٰ أَلْقَىٰ أصْحَابِيَ فَأُذاكِرهُم».
وهَذَا الشَّافعيُّ الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ يُروَىٰ عنه أنه كان يقول: «لَوْلَا مُذاكَرة الإخوان في العِلْم، والتَّهجُّد في اللَّيل؛ ما أَحْبَبْتُ البَقاءَ في هَذِه الدَّار» [يعني الدنيا].
وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل رَحِمَهُمَا اللَّهُ أنه قال: «لَمَّا قَدِمَ أبو زُرْعَةَ نَزَلَ عِندَ أَبِي، فكان كثيرَ المُذاكَرةِ له، فسَمِعتُ أبي يقول يومًا: مَا صلَّيتُ غَيرَ الفَرْضِ؛ اسْتَأثرتُ بمُذاكَرَةِ أبي زُرعةَ علَىٰ نوَافِلِي»، انظر: «تاريخ بغداد» (١٠/ ٣٢٦).
=

بِمَسْأَلَةٍ وَظَنَنْتَ أَنَّكَ فَهِمْتَهَا؛ فَلَا تَكْتَفِ بِظَنِّكَ حَتَّىٰ تَدَعَ الكِتَابَ مِنْ يَدِكَ وَتُقَرِّرَهَا لِنَفْسِكَ أَوْ لِمَنْ مَعَكَ، كَأَنَّكَ تُلْقِي دَرْسًا عَلَىٰ الْمُتَعَلِّمِينَ.

يَا بُنَيَّ: تَأَدَّبْ مَعَ أَخِيكَ الَّذِي تَخْتَارُهُ[1] لِلْمُطَالَعَةِ، وَإِذَا فَهِمْتَ قَبْلَهُ؛ فَلَا تَفْتَخِرْ عَلَيهِ بِالسَّبْقِ، وَإِذَا عَارَضَكَ فِي فَهْمِ مَسْأَلَةٍ؛ فَاسْتَمِعْ لِمَا يَقُولُ، فَرُبَّمَا يَكُونُ الحَقُّ مَعَهُ وَأَنْتَ مُخْطِيءٌ فِي فَهْمِكَ.

وَإِيَّاكَ وَالْمُجَادَلَةَ بِالبَاطِلِ، وَالانْتِصَارَ لِرَأْيِكَ إِنْ كَانَ خَطَأً، فَإِنَّ العِلْمَ أَمَانَةٌ؛ وَمَنِ انْتَصَرَ لِلْبَاطِلِ؛ فَقَدْ ضَيَّعَ أَمَانَةَ اللهِ.

يَا بُنَيَّ: أَكْثِرْ مِنَ الْمُذَاكَرَةِ لِمَا حَصَّلْتَ مِنَ العُلُومِ، فَإِنَّ آفَةَ العِلْمِ النِّسْيَانُ[2].

= وفي فضلها، يَذكُر الرَّافعيُّ عن محمَّد بن عبد الله البُجَلِيِّ، قال سَنة (ثَمانٍ وأَرْبَع مِئَة): «سمِعتُ رُوَيْمًا يَقُول: الكلَام بَيْنَ المُتفَاوضين، علَىٰ ثلَاثة أَوْجُه: إمَّا مناظرة، وإمَّا مُذاكَرة، وإمَّا مُكابَرة -فالمُناظرة للعَالِمين، والمُذاكَرة للعَارفين، والمُكابَرة للجَاهلِين»، انظر: «التدوين في أخبار قزوين» (١/ ٢٧٠).

(١) في «ق»: [تختارَه] بنصب الراء، وهو خطأ.

(٢) «آفَةُ الْعِلْمِ النِّسْيَانُ» قولٌ ينسبه البعض إلىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يصح عنه، بل صحَّ موقوفًا مِن قول ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد أخرجه الدَّارميُّ في «سننه» (٦٤٧).
وعن الحَسَن قال: «غَائِلَةُ العِلْمِ النِّسيَانُ»، أخرجه الدارمي أيضًا في «سننه» (٦٤٩)، و«الغَائِلَة»: صِفةٌ لخَصْلةٍ مُهْلِكَة.
وعن الزُّهْرِيِّ قال: «إِنَّمَا يُذْهِبُ الْعِلْمَ: النِّسْيَانُ، وَتَرْكُ الْمُذَاكَرَةِ»، أخرجه أبو نعيم في =

وَاعْلَمْ.. أَنَّكَ فِي نِهَايَةِ العَامِ سَتُمْتَحَنُ فِي كُلِّ مَعْلُومَاتِك، وَعِنْدَ الامْتِحَانِ يُكْرَمُ المَرْءُ(١) إِذَا أَحْسَنَ الإِجَابَةَ.

وَيَسْتَهِينُ بِهِ أَهْلُهُ وَإِخْوَانُهُ إِذَا لَمْ يُحْسِنِ الْجَوَابَ، وَظَهَرَ أَنَّهُ مُفَرِّطٌ فِي التَّحْصِيلِ.

يَا بُنَيَّ: إِيَّاكَ أَنْ تَكُونَ(٢) مُذَاكَرَتُكَ عِبَارَةً عَنْ حِفْظِ أَلْفَاظٍ لَا تَعْقِلُ مَعْنَاهَا، وَلَكِنِ اجْعَلْ هِمَّتَكَ مُوَجَّهَةً إِلَىٰ تَعَقُّلِ المَعَانِي وَتَثْبِيتِهَا فِي ذِهْنِكَ.

فَإِنَّ العِلْمَ هُوَ مَا تَفْهَمُهُ لَا مَا تَحْفَظُهُ(٣).

= «الحلية» (٣/ ٣٤)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (٦٨٥).

فلا محالةَ.. النِّسيان جِبِلَّة الإنسان، وعلاجه: الحِرصُ علَىٰ المُذاكَرة، ومُوَالَاة الاطِّلاع؛ بهذا يُحفَظ لك علمُك أبدًا؛ علَّمَني اللهُ وإيَّاك، آمين.

(١) وبهذه المناسبة، لا بد مِن ذِكر المَثل الشَّهير: «عِندَ الامْتِحَان؛ يُكرَم المَرءُ أو يُهَان»، وهو مَثَلٌ قَدِيمٌ غَابِر، ذكَرَهُ الميداني في «مجمع الأمثال» (٢/ ٣٧)، والحريري في «المقامات» (ص٦)، وذَكَر الشريسي شارح «مقامات الحريري» -وعهدي به قديم، وهو ليس تحت يدَيَّ- أنَّه مِن أمثال الفُرس؛ فليُرجع إليه.

(٢) في «ق»: [يكون]، وهو خطأ.

(٣) هذه مسألة من المسائل الاجتهادية التي اختُلف عليها كثيرًا، فمِنهم مَن يَجعل الحِفْظ مقدَّمًا علَىٰ الفَهم، ومنهم مَن يقول بأَوْلَوِيَّة الفَهم كما ذهَبَ الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ودون الخوض والإطالة في ذِكر ما جاء عن السَّلَف في الحِفْظ وثِمَاره، أو الفَهْم =

= وفوَائده، يتحصَّل أنَّ كلَّ امْرِئٍ أدْرَىٰ بإمكاناته، وكلَّ مرحلةٍ تختلف عن غيرها؛ فالحِفْظُ والفَهم صِنْوَان لَا يَفترِقَان.

فلَوْلَا الحِفظ: ما حُفِظ كتابُ الله عَزَّوَجَلَّ بأسانيده المُتواتِرَةِ، وسُنةُ رَسُولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بأسانيدها المُتَّصِلَة، حيث كان ذلك كله في صدور أصحاب النبيِّ قَبْل التَّدوين والنَّسْخ.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾.

قال البغوي رَحِمَهُٱللَّهُ: «فحَفِظَتْهُ الصُّدور، وحَفِظَتْهُ السُّطُور، وقيَّض اللهُ مَن يأخُذُ بيَانَهُ عن رَسولِ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ لتَجِدَ الأُمَّةُ مَا يُعِينُها علىٰ فَهْم كِتَاب رَبِّهَا، وحُسْنِ الأخْذِ به». اهـ. «تفسير البغوي» (١/ ٦).

فتأمَّل، كيف جعل الفَهم مُكَمِّلًا للحِفظ، وإلَّا فكيف يَعمل مَن لَمْ يَفْهَم؟

إذَنْ، ولَولَا الفَهم: مَا عُمِل بتِلْك النُّصوص الشَّريفة، ولَصَار الحَافِظُ غير الفاهم كالحِمَار يَحْمِل أسفارًا، كما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾.

قَالَ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: «كمثَل الحِمَار يَحْمِل علَىٰ ظَهْره كُتبًا مِن كتُبِ العِلْمِ لَا ينتفع بها، ولا يعقل ما فيها». اهـ. «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٧٧).

وقال القُرطبيُّ رَحِمَهُٱللَّهُ **في وَصْفه لحَامِل القُرآن:** «يَنبغِي له أن يتعلَّم أحكَام القرآن، فيَفْهَم عن الله مُرَادَهُ ومَا فُرِض عليه؛ فينتفع بما يَقْرأ، ويَعْمَل بما يَتْـلُو.. فكيف يَعْمَل بما لَا يفهم معناه؟ ومَا أقْبَحَ أنْ يسأل عن فِقْه ما يَتلُوه ولَا يَدْرِيه! فمَا مثل مَنْ هَذِه حالَتُه إلَّا كمثل الحِمَار يحمل أسفارًا». اهـ. «تفسير القرطبي» (١/ ٢١).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُٱللَّهُ: «فشَبَّهَهُم بالحِمَار، لا يَعْقِل ما يَحْمِل إذْ لم ينتفعوا بما في التَّوارة، وهي دالَّة علَىٰ الإيمان بمحمد، وهذا المَثَل يَلْحَق مَن لم يعمل بالقرآن ولم =

يَا بُنَيَّ: قَلَّمَا اجْتَمَعَ طَالِبٌ مَعَ زُمْرَةٍ مِنْ إِخْوَانِهِ إِلَّا كَانَ مَدَارُ المُحَاوَرَةِ بَيْنَهُمْ عَلَىٰ المُنَاظَرَةِ وَالمُفَاوَضَةِ فِي المَسَائِلِ الَّتِي يَعْرِفُونَهَا.

فَلَا تَقْطَعْ عَلَىٰ مُتَكَلِّمٍ حَدِيثَهُ، وَلَا تَتَسَرَّعْ بِالإِجَابَةِ قَبْلَ التَّثَبُّتِ، وَلَا تُنَازِعْ فِي

= يفهم معَانيه، بئس مثل القوم ذم مثلهم، والمراد ذمهم، واليَهُود كذَّبوا بالقرآن وبالتَّوارة حين لم يؤمنوا بمحمد، واللهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالمين أنفسهم بتكذيب الأنبياء». اهـ. «زاد المسير» (٨/ ٢٦٠).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقاسَ مَن حمله سبحانه كتابه ليؤمن به ويتدَبَّره، ويعمل به ويدعو إليه، ثُم خالف ذلك ولم يحمله إلَّا علىٰ ظهر قلب، فقراءته بغير تدَبُّر ولا تفَهُّم، ولا اتِّباع له، ولا تحكيم له وعمل بموجبه كحِمَار علَىٰ ظهره أسفار لا يَدْرِي ما فيها، وحَظُّه منها حمله علَىٰ ظهره ليس إلَّا، فحَظُّه مِن كتاب الله كحَظِّ هذا الحمار مِن الكتب التي علىٰ ظهره -فهذَا المَثَل وإن كان قد ضُرِبَ لليهود؛ فَهُو مُتناوَل مِن حيث المعنىٰ لِمَن حَمَل القرآن فترَكَ العمَلَ به، ولم يُؤَدِّ حقَّه، ولم يَرْعَه حق رعايته». اهـ. «إعلام الموقعين» (١/ ١٩٧).

وحدَّثني أَحَدُ إِخْوَانِي اللُّغَوِيِّين أَنَّ سِيبويه رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «كَان الخَلِيلُ يُوصِينَا إِذَا لَمْ نَفْهَم المسألة أَنْ نَحْفظَها، ويقول: لَا بُدَّ وأَنْ تَفْهمَها في يومٍ مِن الأيَّام».

وكما أثنىٰ الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ الحِفظ، وجعله وسيلةً رئيسةً لحِفْظ العِلْم، أَثْنَىٰ كذلك علَىٰ الفَهم، فقال: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًاۚ﴾، فداود وسليمان -عليهما الصلاة والسلام- رُزِقَا مِن الله النبوَّة والعِلْم والفَهْم، إلَّا أنَّ اللهَ اختَصَّ سُليمَانَ بفَهمٍ زائدٍ في مسألة الحَرْث، ولم يَنْفِ العِلْم عنهما.

إذَنْ، الحِفظ والفَهم متلازمان، ولكُلٍّ مِن الناس مَلَكَاته.

مَسْأَلَةٍ لَمْ يَسْبِقْ لَكَ الاطِّلَاعُ عَلَيْهَا، وَلَا تُجَادِلْ بِغَيرِ الْحَقِّ، وَلَا تُظْهِرِ العَظَمَةَ عَلَىٰ مَنْ يُنَاظِرُكَ، وَلَا تَخْرُجْ عَنْ مَوْضُوعِ المُنَاظَرَةِ إِلَىٰ تَسْفِيهِ رَأْيِ مُنَاظِرِكَ، وَلَا إِلَىٰ تَقْرِيعِهِ(١) بِالكَلَامِ المُؤْلِمِ، وَلَا إِلَىٰ تَوْبِيخِهِ إِذَا ظَهَرَ خَطَؤُهُ فِي الفَهْمِ.

يَا بُنَيَّ: المُحَاوَرَةُ بَيْنَ الطُّلَّابِ فِي المَسَائِلِ العِلْمِيَّةِ:

جَزِيلَةُ الفَوَائِدِ.

تُقَوِّي الفَهْمَ.

وَتُطْلِقُ اللِّسَانَ.

وَتُعِينُ عَلَىٰ حُسْنِ التَّعْبِيرِ عَنِ الأَغْرَاضِ المَقْصُودَةِ.

وَتُوَلِّدُ فِي الطَّالِبِ الجُرْأَةَ وَالإِقْدَامَ.

وَلَكِنْ -يَا بُنَيَّ- لَا يَنْفَعُكَ هَذَا عِنْدَ اللهِ، وَلَا عِنْدَ النَّاسِ إِلَّا:

إِذَا كُنْتَ مُهَذَّبَ الأَخْلَاقِ.

بَعِيدًا عَنِ الفُحْشِ فِي القَوْلِ.

تَقُولُ الْحَقَّ وَلَوْ عَلَىٰ نَفْسِكَ، وَلَا تَأْخُذُكَ فِي الْحَقِّ لَوْمَةُ لَائِمٍ(٢).

---

(١) «التَّقْرِيعُ»: التَّأْنِيب واللَّوْم.

(٢) قول الحق مِن شِيَم الشُّجعَان، وهو وصِيَّة رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وسَوْف يَأتي معَنا الحَدِيثُ بتَمامِه -إنْ شَاء اللهُ- فِي مَوْضِعه.

الدَّرْسُ الثَّامِنُ
فِي آدَابِ الرِّيَاضَةِ وَالمَشْيِ فِي الطُّرُقَاتِ

يَا بُنَيَّ: إِنَّكَ فِي بَعْضِ أَوْقَاتِ فَرَاغِكَ لَا تَسْتَغْنِي عَنِ الرِّيَاضَةِ الْبَدَنِيَّةِ(١)؛

---

(١) لم يَفُت الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنْ يَتطرَّق إلىٰ أهَمِّيَّة ممارسة الرِّياضة لطَالب العِلْم، وذَكَر مِن فوائدها: «تَجْدِيد النَّشاط»؛ لإيقاظ الذِّهن -وهذا حقٌّ لا يُمارِي فيه أحَد، ولا يُنكِره عَاقِل.
كمَا أنَّ للرِّياضة فوائد أُخَرَ لَا يُمكِن حَصْرُها في هَذِه التَّعليقات المُختصَرات، ولكن يَكْفِينا أنْ نُـعَـرِّج علَىٰ أهمِّيتها لصِحَّة الجِسْم.. هَذِه الصِّحة التي تُعَدُّ نِعمةً كُبرىٰ، لا يعرف قيمتها إلَّا مَن فقدَها؛ إذْ حُرِم مِن حياةٍ سعيدةٍ يُمارِس خلَالها عباداتِه، وأعمَالَ حيَاته؛ فهو يحتاج للمَشْي الطَّويل، والتنقُّل الكثير، مع كثرة سَهَرِهِ غالبًا، وطُولِ قيامه، وسَعْيه إلىٰ رِزْقِه؛ فَلاشَكَّ أنه إنْ لَمْ يَكُ ذَا صحةٍ جيدةٍ؛ لَمَا استَطَاعَ أن يقوم بكل هَذَا.
والذي يُهمل صِحَّته ورياضته؛ يُحْرَم جسمًا معتدلًا قويمًا، لاسيما إذا عَلِم أنَّ النَّبِيَّ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان قويَّ البِنْيَة، سَلِيم الجِسْم، «سَواءَ البَطْن والصَّدْر [بِلَا كِرْش!]»؛ حتَّىٰ كان محل إعجاب مِمَّن حوله مِن سائر أصحابه؛ فقد وصَفُوه بأوصافٍ لم يصِفْهَا أصحابُ نبيٍّ نبيَّهم، فقالوا عنه: «عَظِيم المَنكِبَين، لم يكن بالمُطهَّم [أي منتفخ الوجه، وفاحش السِّمنة]، مُتمَاسك البدن، ضَرْب اللَّحْم [ليس مترهِّلًا، ولحمُ جسمه قليل]»، انظر: «الشفا» للقاضي عياض (ص٦٠).
فإنْ لَمْ يَكُن لِهَذا أهمِّية عندهم؛ ما ذَكَرُوه.
وحِينمَا اعتمر صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابُه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بعد صُلح الحُدَيْبِية بعَامٍ، كان قَدْ رَآهم كُفَّار قريش يَشْرَعُون في الطَّواف بالكعبة، فقال كُفَّار قريشٍ مُسْتَهْزئين: «يَقْدُم

= علَيكُم وقَدْ وَهَنَهُم حُمَّىٰ يَثْرب [أيْ يأتون مِن المدينة ضُعَفاء، ومَرْضَىٰ بالحُمَّىٰ]»، فاضْطبَع النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بردَائه مِن تَحْت إبطِه؛ بحيث يُبدِي لَهُم مَنْكِبَه وعَضُدَه، وانفِتَالَ عضَلاتِه، وأمر أصحابَهُ وشبَابَ المُسلِمين ورِجَالَهم بذلك، وأنْ يَرْمُلوا في الأشواط الثَّلاثة الأولىٰ؛ إظهارًا لقوَّتِهم، وسلَامة صِحَّتِهم، وانظر أصل ذلك عند البخاري (١٦٠٢)، و(٤٢٥٦)، ومسلم (١٢٦٦).

والسُّنة حافلةٌ بالمَوَاقف النَّبوِيَّة والأقوَال، وسائر ما للسَّلف مِن أحوَال، الدَّالَّة علَىٰ أهَمِّية ممارسة الرِّياضة، والمحافظة علَىٰ الصِّحة، فمنهم مَن كان يُمَارس الفُروسِيَّة، ومنهم مَن كان يمارس الرِّماية، ومنهم مَن مارس العَدْو، بل السِّباحة، والمُصَارعَة، وكان ذلك تحت مَرْأىٰ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه دون نكير، بل بتشجيع واهتمام.

وكان في زمن السَّلَف يُعَيَّر الرَّجُل بكِرْشِه! فعن سَلَمة بنِ سَعِيدٍ قال: «إنْ كانَ الرَّجُلُ لَيُعيَّر بالبِطْنَة كمَا يُعيَّر بالذَّنب يَعمَلُهُ»، أخرجه ابن أبي الدنيا في «الجوع» (٨٣).

كذلك، مُمارسَة الرِّياضة وسلَامة الصِّحة تُسَاعد أجهِزَة الجسم البَاطِنَة علىٰ أداء وظائفها بصورة أفضل؛ فلا يشتكي مِن أمراضٍ متتابعة؛ فيَضِيعُ وقتُهُ ومَالُه، ويُقَصِّر في وظائفه الدِّينية والدُّنيويَّة؛ ولِذَا، قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ...**»، وهذا شامِل لقُوَّتَي الإيمان، والجسم.

لهذا، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ **في مَعرِضِ كلَامه عمَّن ترَكَ بعض الواجبات لعَجْزه:** «وإنْ كانَتْ صلَاةُ القَادرِ علَىٰ الإتمَامِ أكْمَلَ وَأفْضَل، كما قال النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...»، وذكر الحديث السالف، انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٢/ ٤٧٩).

وأوْرَدَ الحديثَ أيضًا ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ **في كتابه «الفروسية»، تحت فصل بعنوان:** «فصلٌ في مَدْحِ القُوَّة والشَّجاعَة، وذَمِّ العَجز والجُبن».

بل إنَّ الصِّحة لشدة أهميتها عدَّها الله عَزَّوَجَلَّ ضِمْنَ أوَّل ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة!
=

حَتَّىٰ يَتَجَدَّدَ نَشَاطُكَ لِمُزَاوَلَةِ دُرُوسِكَ.

فَإِذَا خَرَجْتَ لِلرِّيَاضَةِ:

فَاقْصِدِ الأَمَاكِنَ الجَيِّدَةَ الْهَوَاءِ مِنَ الضَّوَاحِي.

وَعَلَيْكَ السَّكِينَةَ وَالوَقَارَ(١)؛ فَلَا تُسْرِعْ فِي مِشْيَتِكَ(٢).

= فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، -يَعْنِي العَبْدَ- مِنَ النَّعِيمِ، أَنْ يُقَالَ لَهُ: أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ؟**»، أخرجه الترمذي (٣٣٥٨)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٦٧٤)؛ ذلك لأنَّ الصحة مِن النِّعم التي امتنَّ الله عَزَّوَجَلَّ بها علَىٰ عباده، مع تفريط كثيرين فيها، فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصِّحَّةُ، وَالفَرَاغُ**»، أخرجه البخاري (٦٤١٢) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

فلَا يتم عِلْمٌ ولا عمَلٌ إلَّا بهذه النِّعمة العَظِيمة؛ فاحفظها -حفظك الله-، وقوِّها، واغتَنِمْهَا قبل أن تُسلب، فعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِرَجُلٍ وَهُو يَعِظُه: «**اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ: شَبابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ، وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ**»، أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٧٨٤٦)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٣٥٥).

(١) **كذا «السكينةَ والوقارَ»، ويجوز أيضًا: «السكينةُ والوقارُ»**، بعدَم إعْمَالِ الجارِّ والمَجْرور عمَلَ اسْمِ الفِعْل؛ وتكُون حِينَئِذٍ الجُملَةُ حالًا مِن فَاعِل «خرجتَ»، أي: فإذَا خرَجْتَ حالَةَ كَوْنِكَ مُتحَلِّيًا بالسَّكِينَةِ والوَقَار.

(٢) في «ق»: [مُشيتك] بضم الميم، وهو خطأ.

وَلَا تُمَازِحْ أَحَدًا فِي طَرِيقِكَ، وَلَا تَضْحَكْ إِلَّا بِقَدْرِ التَّبَسُّمِ[١].

يَا بُنَيَّ: إِذَا خَرَجْتَ لِلرِّيَاضَةِ أَوْ لِغَيرِهَا مَعَ إِخْوَانِكَ:

فَإِيَّاكُمْ أَنْ تَعْتَرِضُوا أَحَدًا مِنَ المَارَّةِ فِي الطُّرُقَاتِ.

وَإِيَّاكُمْ أَنْ تَصْطَفُّوا فِي طَرِيقِ العَامَّةِ.

فَإِنْ كَانَ الطَّرِيقُ وَاسِعًا، فَامْشُوا مَثْنَى مَثْنَى، وَإِلَّا فَامْشُوا فُرَادَى: وَاحِدًا فَوَاحِدًا.

يَا بُنَيَّ: إِنَّ الطُّرُقَ العُمُومِيَّةَ[٢] لَيْسَتْ مَمْلُوكَةً لِأَحَدٍ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ مَارٍّ حَقُّ المُرُورِ فِيهَا؛ فَلَا تَزْدَحِمُوا فِي الطُّرُقَاتِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُزْرِي[٣] بِطَلَبَةِ العِلْمِ الشَّرِيفِ، وَيَذْهَبُ بِاحْتِرَامِ النَّاسِ لَهُمْ.

يَا بُنَيَّ: إِذَا رَأَيْتَ فِي طَرِيقِكَ غَوْغَاءَ، أَوْ فِئَةً يَضْرِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَإِيَّاكَ أَنْ تُعَرِّجَ عَلَيهِمْ[٤]، أَوْ تَقْتَرِبَ مِنْهُمْ؛ فَرُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِإِهَانَتِكَ، أَوْ اتِّهَامِكَ

---

(١) وهَذَا أدَبٌ نبوِيٌّ راقٍ رَفِيع، فقَدْ كان هَذَا ضحِكُه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في كُلِّ أوقَاتِه، لا فقَط في طرُقَاتِه؛ «كَانَ لَا يَضْحَكُ إِلَّا تَبَسُّمًا»، أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ١٠٥) (٢١٠٤٢)، والترمذي (٣٦٤٥)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٠٨٦)، وسوف يأتي معنا تفصيلٌ مهمٌّ في هَدْيِه -عليه الصلاة والسلام- في الضَّحِك.

(٢) في «ع»: [العموميَّة] بكسر الياء وشدها، وهو خطأ.

(٣) «يُزْرِي»: يَحُطُّ مِن شأنِهم.

(٤) عرَّج علَىٰ، أيْ: مالَ؛ فـ«تُعَرِّج عَلَيْهِم»: تميل إليهم، وتقِف عِنْدَهُم.

بِشَيءٍ أَنْتَ مِنْهُ بَرِيءٌ(١).

يَا بُنَيَّ: إِذَا تَعَدَّىٰ عَلَيْكَ أَحَدٌ فِي طَرِيقِكَ مِنْ عَامَّةِ النَّاسِ، فَلَا تُقَابِلِ العُدْوَانَ بِمِثْلِهِ، وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ؛ يَرْفَعِ اللهُ قَدْرَكَ، ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠]، بِهَذَا الخُلُقِ الجَمِيلِ أَدَّبَنَا اللهُ فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ.

يَا بُنَيَّ: إِذَا خَرَجْتَ مِنَ المَسْجِدِ، أَوْ مِنَ المَسْكَنِ لِشِرَاءِ شَيءٍ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنْ طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ أَوْ كِسْوَةٍ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ:

فَلَا تَتَعَرَّضْ لِمُنَازَعَةِ السُّفَهَاءِ، وَلَا تُعَرِّضْ(٢) نَفْسَكَ لِسَمَاعِ أَلْفَاظِهِمُ

---

(١) وهَذَا لَا يُخَالف الأمر بالمَعرُوف والنَّهي عن المُنكر، كما لا يُخالِف حقَّ الطَّريق الَّذِي سُئِل عنه رسُولُ الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: «غَضُّ البَصَرِ، وَكَفُّ الأَذَىٰ، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ»، أخرجه البخاري (٦٢٢٩)، ومسلم (٢١٢١) من حديث أبي سعيدٍ الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

بل هو مِن جُمْلة كفِّ الأذىٰ لِمَن تأمَّل! لأنَّه كفَّ الأذىٰ عن نَفْسِهِ الَّتِي هي أَوْلَىٰ بالصِّيانة والحِفظ، ولو حَفِظ كلٌّ نفسَه؛ فقَدْ كُفَّ الأذىٰ مِن الطُّرقات.

ثُم إنَّ كفَّ الأذىٰ عن الآخَرِين، والأمر بالمَعرُوف والنَّهي عن المنكر في موطن كالذي يَحكِيه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يتطلَّب قوةَ بُنيَان، وحُجَّةً بلِسَان، مع صَبْرٍ مِن الكافِّ الآمِر النَّاهي وسُلْوَان، مُزَيِّنًا ذلك كلَّهُ بحُسْن منطقٍ وبيان، وهذا غالبًا لا يكون عند طائفة صغار الطُّلَّاب التي خاطبها الشيخ مِن خلَال هذا الكتاب؛ ف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وجزاه علىٰ بصيرتِه الجِنَان.

(٢) في «ق»: [تَعَرَّض]، وهو خطأ.

البَذِيئَةِ، وَابْتَعِدْ عَنْ هَؤُلَاءِ القَوْمِ جُهْدَكَ(١).

وَإِيَّاكَ وَالمُمَاحَكَةَ(٢) مَعَ البَاعَةِ فِي تَقْدِيرِ الأَثْمَانِ، فَإِنْ وَافَقَكَ الثَّمَنُ اشْتَرَيْتَ، وَإِلَّا فَانْصَرِفْ بِسَلَامٍ(٣).

---

(١) «جُهدك»، أي: طاقَتك، يعني بقدر طاقتك، وقد تأتي «جَهدك»، فَهُمَا لُغتان عِند العرَب.

وَلِلفَائِدَة: لفْظَا «جُهد - جَهد» يَتقَاربَان في اللفظ، ويَلْتَبِسَان في المعنىٰ، وكثيرٌ مِن طُلَاب العلم يغلط بِوَضْع أحَدَهُما مَوْضِع الآخَر، فـ«الجُهد» بالضَّم لُغَةُ قريشٍ وأهلِ الحجاز، بمعنىٰ: الطاقة، تقول: «هَذَا جُهدي»، أي: طاقتي، أمَّا «الجَهد» بالفتح فَلُغَة أهل نَجْد، بمعنىٰ: المَشقَّة، تقول: «فَعَلتُ ذلك بِجَهْدٍ».

وهذا التفريق مذهب بعض الكُوفِيِّين، وإليه ذهب الشَّعبِيُّ، والفرَّاء.

أمَّا البصريُّون فَجعَلُوهُمَا علَىٰ معنًىٰ واحدٍ وإنْ اخْتلفَا لفظًا، واحْتَجوا بقوله الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾، فقرأ عطاء، والأعْرَج، وابن هرمز، وجماعة: «جَهدهم» بالفتح، والقول بالتَّفريق أولىٰ، والله أعلم. انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٢٣٧)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/ ١١٨)، و«تفسير البغوي» (٤/ ٧٩)، و«البحر المحيط» لأبي حيان (٥/ ٧٥)، و«تفسير الثعلبي» (١/ ١٠٥٠)، و«تفسير أبي السعود» (٣/ ١٩٢)، و«النكت والعيون» للماوردي (٢/ ٣٨٤)، و«أدب الكاتب» للدينوري (ص٢٣٨)، و«لسان العرب» لابن منظور (٣/ ٢٢٤).

(٢) «المُماحَكَة»: المُساوَمة، والمُناقشَة القَائمة علىٰ الجدَل والنِّزَاع.

(٣) ويُستَحْسَن هنا الكلَامُ عن هَذِه المُسَاومَة؛ لِانتِشَارهَا بين النَّاس اليوم، والتي تُسمَّىٰ اصطِلَاحًا: «المُمَاكَسَة»، ويُسَمِّيها العامَّة: «الفِصَال»، وهو أمر مشهور، ومعمول به في دنيا النَّاس، ولن يصلح مع كل أحدٍ أنْ يَترُك سلعةً يحتاجها بالفعل لِارتِفَاع ثمَنِها، وإلَّا =

وَإِيَّاكَ أَنْ تَتَعَرَّضْ لِلبَاعَةِ بِقَصْدِ المُسَاوَمَةِ فَقَطْ دُونَ الشِّرَاءِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ

= فَلَنْ يَشْتَرِيَ شيئًا! لاسيما أن غالب البائعين صارُوا يضَعُون أسعارًا افتراضِيَّةً عالِيَة، فيُسعِّر بمئة ما هو أصلًا بخمسين في العادة، فيُساوِمُه المُشتَرِي حتىٰ يصل إلىٰ سبعين، ويتَظَاهَر البائع بالخَسَارة والغَبن! -وهذا حاصلٌ في أغلبهم إلَّا مَن رَحِم الله-؛ لذا فمَن لم يُماكس ويُساوم؛ لَغُبِن غبنًا!

ولِهَذا، قد أباح بعض السَّلَف هَذِه المُماكسَة:

فقال ابن عُمر رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا: «لا بأس بالمماكسة في البيع».

وعن عُمَر بن عبد العَزِيز رَحِمَهُاللَّهُ: «أنه كان لَا يَرىٰ بالمُماكسَةِ في البيع والشِّراء بأسًا»، انظر: «إصلَاح المال» لابن أبي الدنيا (٢٧١).

وكان «محمد بن واسع رَحِمَهُاللَّهُ بهراة [اسم مدينة] يُماكس بقَّالًا، فقِيلَ له في ذلك؟ فقال: «تَرْك المكَاس غبن، ومَن رضِيَ بالغبن؛ فقد ضيَّعَ ماله، وأمَر اللهُ تعالىٰ بحِفْظ الأموال»، انظر: «الإرشاد في معرفة علماء الحديث» لأبي يعلىٰ (٣/ ٨٧٨).

وعن سُفيَان الثَّوري رَحِمَهُاللَّهُ **قال**: «رأيتُ أيُّوبَ يَشْتَرِي نعالًا بمكَّة، فجعل يُماكس»، أخرجه أحمد في «العلل ومعرفة الرجال» (٢/ ٣٦١).

وقال الحافظ ابن حَجَر رَحِمَهُاللَّهُ: «ووَرَدَ بسَنَدٍ قويٍّ عن سُفْيانَ الثَّوري أنه قال: كان يُقال ماكِسُوا الباعة؛ فإنه لا أَخْلَاقَ لَهُم»، انظر: «المقاصد الحسنة» (١٧٦).

لكن علىٰ مَن يُماكس أنْ يَكُون: سَمْحًا، مُحافظًا علىٰ مروءته ووقَاره، حَافِظًا لِسَانَه، غير مُطِيل في نِقَاش ومُسَاومَة لا طائلَ مِنهَا.

وليتَذكَّر كلٌّ مِن البائع والمشتري حديث النَّبيِّ صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**رَحِمَ اللهُ رَجُلًا سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَىٰ، وَإِذَا اقْتَضَىٰ**»، أخرجه البخاري (٢٠٧٦) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا.

يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ إِسْمَاعِكَ مَا تَكْرَهُ مِنْ كَلِمَاتِ التَّقْرِيعِ وَالازْدِرَاءِ.

يَا بُنَيَّ: إِذَا حَدَّثْتَ إِنْسَانًا، فَلَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ إِلَّا بِمِقْدَارِ مَا تُسْمِعُهُ[(١)].

وَكُنْ لَطِيفَ القَوْلِ، حَسَنَ الحَدِيثِ.

وَاحْذَرْ أَنْ تَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ يَنْقُصُ بِهَا قَدْرُكَ عِنْدَ مَنْ تُحَدِّثُهُ، وَلَوْ كَانَ مِنْ أَمْثَالِكَ فِي السِّنِّ وَالمَنْزِلَةِ.

وَإِذَا حَدَّثَكَ إِنْسَانٌ فَأَحْسِنِ الاسْتِمَاعَ لَهُ، وَلَا تُقَابِلْهُ بِالغِلْظَةِ وَالفَظَاظَةِ، «وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[(٢)].

---

(١) في «ق»: [تَسْمِعُهُ] بفتح التاء، وهو خطأ.

(٢) قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هَذَا بعض حديث شريف، رواه الإمام أحمد، والترمذي، والحاكم عن أبي ذر، ورواه أحمد، والترمذي عن معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ».

قلت: أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ١٥٣) (٢١٣٩٢)، والترمذي (١٩٨٧)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٩٧).

الدَّرْسُ التَّاسِعُ
فِي أَدَبِ المَجَالِسِ وَأَدَبِ المُحَاضَرَةِ

يَا بُنَيَّ: إِذَا مَرَرْتَ بِقَوْمٍ فَأَقْرِئْهُمُ السَّلَامَ بِاللَّفْظِ المَعْرُوفِ الَّذِي وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ، وَهُوَ قَوْلُكَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ»[1]، وَلَا تَتَجَاوَزْ هَذِهِ التَّحِيَّةَ إِلَىٰ

---

(١) هكذا جاءت السُّنة بالتَّحِيَّة بين المسلمين، «فَإِنَّ الرَّجُلَ المُسْلِمَ إِذَا مَرَّ بِقَوْمٍ فَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ، فَرَدُّوا عَلَيْهِ؛ كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ فَضْلُ دَرَجَةٍ بِتَذْكِيرِهِ إِيَّاهُمُ السَّلَامَ، فَإِنْ لَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ؛ رَدَّ عَلَيْهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمْ وَأَطْيَبُ»، أخرجه البزار في «مسنده» (١٧٧١)، والبيهقي في «الشعب» (٨٧٨٢) من حديث ابن مسعودٍ عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٦٩٧).

وكما أنَّ له فَضْلًا عليهم، فكذلك السَّلام سببٌ لدخوله الجنة، «لَا تَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا، وَلَا تُؤْمِنُوا حَتَّىٰ تَحَابُّوا، أَوَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»، أخرجه مسلم (٥٤) من حديث أبي هريرة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

بل هُوَ أَوْلَىٰ النَّاس باللهِ عَزَّوَجَلَّ؛ «إِنَّ أَوْلَىٰ النَّاسِ بِاللهِ مَنْ بَدَأَهُمْ بِالسَّلَامِ»، أخرجه أبوا داود (٥١٩٧) من حديث أبي أُمامة عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٣٨٢).

بل إنَّ السلام مِن مُوجِبَات مغفرة الذُّنوب، «إِنَّ مِنْ مُوجِبَاتِ المَغْفِرَةِ: بَذْلَ السَّلَامِ، وَحُسْنَ الكَلَامِ»، أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٨٣٢١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٢٣٢).

=

= وقد ذكر الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ صيغةً هِيَ إحْدَىٰ ثلاث، تتفَاوتُ كُلٌّ مِنهُنَّ في الأجْرِ والمَثُوبة، فـ«مَنْ قَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ»؛ كُتِبَتْ لَهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ، وَمَنْ قَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ»؛ كُتِبَتْ لَهُ عِشْرُونَ حَسَنَة، وَمَنْ قَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُه»؛ كُتِبَتْ لَهُ ثَلاثُونَ حَسَنَة»، أخرجه الطبراني في «الكبير» (٥٧٤) من حديث سهل بن حنيف، عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٧١١).

ولِلسَّلام صيغةٌ رابِعَة: أحْدَثَها في زمَاننا بَعْضُ النَّاس، وابتدَعهَا مَن ليْسَ له في العِلْم أسَاس، يظنُّونَها تعظِيمًا لربِّ النَّاس، وهي لم تَرِدْ في قرون خير النَّاس؛ حيث صار بعض الناس يقولون: «السلام عليكم ورحمة الله -تعالىٰ- وبركاته»، ويَرُدُّ الرَّادُّ بزيادة «تعالىٰ»؛ فهل هَذِه الزِّيادة مِن قَبِيل مَا أخبَر رَسُولُ الله في الحديث السابق، فمن قال: (ورحمة الله تعالىٰ وبركاته) كُتِبَتْ له أربعون حسَنة؟! بالطَّبع لم يَرِد هذا عن رسول الله كما هو جلِيٌّ وَاضِح! فالأوْلَىٰ تَرْك هَذِه الزِّيادة، والاقتِصَار علَىٰ ما ثبَتَ في السُّنة.

وقد أفردتُ الكلَام عن هَذِه الزِّيادة في مقَالٍ مُسْتقِل علَىٰ مُدونتي الخاصة بشبكة المعلومات، وتوَسَّعتُ فيه بذكر بعض الأدلَّة والآثار، وقد لَقِيَ قبولًا بين كثير مِن المُسْلِمين ولله الحمد؛ فليرجع إليه مَن شاء.

ثُم أفادني أخِي الفاضل الشَّيخ/ عبد الحَلِيم الخرشاني التونسي -حفظه الله- ببعض نقولَاتٍ وأجوبَةٍ لأهل العِلْم تُؤكِّد ما ذهبتُ إليه، منها:

قَوْل الشَّيخ ناصِر الدِّين الألبَاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ **فِي مَعْرِض كلَامِه عن خُطبَة الحاجَة:** «زيادة «تعالىٰ» ليس لهَا أصل في هَذِه الخُطْبَة، وأظُـنُّـنا مُتَّفِقون جميعًا علىٰ أنه (انقطاع)، فهذه الزيادة في أيِّ مكانٍ كان مِن هذه الخطبة فهِيَ زيادة، ونحن متفقون علَىٰ أنَّ «كل زيادة في وِرْد وَرَد عن النبيِّ ـ لا ينبغي أن نأتي بها»، ومثل هذه الزيادة تقع مِن كثيرٍ مِن الذين =

غَيْرِهَا مِنَ الْمُسْتَحْدَثَاتِ[1]،[2].

وَلَا تَدْخُلْ[3] مَجْلِسَ قَوْمٍ إِلَّا بَعْدَ الاسْتِئْذَانِ، فَرُبَّمَا كَانُوا يَتَفَاوَضُونَ فِي أَمْرٍ لَا يُحِبُّونَ أَنْ يُشَارِكَهُمْ فِيهِ غَيْرُهُمْ، وَتَجَنَّبَ التَّطَفُّلَ[4] عَلَىٰ النَّاس جُهْدَكَ؛ فَإِنَّ الطُّفَيْلِيَّ[5] ثَقِيلٌ عَلَىٰ النُّفُوسِ، وَإِنْ كَانَ أَعْلَمَ أَهْلِ عَصْرِهِ.

= يُسَلِّمُون، فيقولون: «السلام عليكم ورحمة الله تعالىٰ وبركاته»، فكلمة «تعالىٰ» هنا أيضا مِن هَذَا القَبِيل.

والحِكْمة التي تُقال في بعض البلاد: «الزَّائد أخو النَّاقِص»، حكمة صحيحة، فكما أنه لا يجوز أن ننقص مِن الوِرْد الَّذِي علَّمَنا الرَّسُول -كذلك لَا يجوز أن نَزِيدَ فِيه»، انتهىٰ بتصرُّف مِن «سلسلة الهدىٰ والنور» (ش/ ٥٢٥).

وسُئِل الشَّيخ عبد المُحْسِن العبَّاد حفظه الله عن هذه الزِّيادة، فقال: «لَمْ تَرِد»، «شرح سنن الترمذي» (كتاب الاستئذان، ش/ ٢٩٣).

(١) في «ق»: [المستحدثان]، وهو خطأ.

(٢) ومِن التَّحِيَّات المُسْتَحْدَثات، قول البعض: «صباح الخير»، و«ومساء الخير» استعاضةً عن السَّلَام.. ولا بأس إذَا تَبِعَت السَّلام، بحيث يَكُون السَّلامُ أصلًا، والأسوأ مَن يقولون: «هاي»، ونحو ذلك مِن كل تحِيَّة بعيدة عن هَدْيِ خير البَرِيَّة؛ فَاظفَر بالأجْر تَسْعَد في الدُّنيا والآخِرَة.

(٣) كذا في «ع»، أمَّا في «ق»: [تَجْلِسْ].

(٤) في «ق»: [التطفلُ] بالضم، وهو خطأ.

(٥) «**الطُّفَيْلِيُّ**»: هُوَ مَن يَتدخَّل في شُؤون غيره، ومنه سُمِّيَت «الطُّفيليَّات» في «علم الأحياء»؛ =

يَا بُنَيَّ: انْظُرْ إِلَىٰ نَفْسِكَ إِذَا كُنْتَ فِي بَيْتِكَ -مَثَلًا- تَعْمَلُ عَمَلًا تُحِبُّ أَنْ لَا يَطَّلِعَ عَلَيْهِ أَحَدٌ غَيْرُكَ، فَفَاجَأَكَ إِنْسَانٌ بِالدُّخُولِ عَلَيْكَ! أَلَسْتَ تُحِسُّ بِثِقَلِهِ، وَتَتَمَنَّىٰ ذَهَابَهُ؟

فَكَذَلِكَ حَالُكَ إِذَا غَشِيتَ[١] قَوْمًا بِدُونِ اسْتِئْذَانٍ، وَلَا رَغْبَةٍ مِنْهُمْ فِي

= لأنَّها كائناتٌ حيَّةٌ تتدخَّل وتَعِيش مُتطَفِّلةً علَىٰ كائنات حيَّةٍ أُخْرىٰ في داخلها أو خارجها.

فترفَّع.. ولا يَكُن هذا شأنك!

والطُّـفَيلِيُّون مِن النَّاس نَوْعَان:

الأوَّل، صَاحِب الذَّوْق السَّلِيم: «فَخِدمَةُ النَّاس في نَفْسِهِ سَجِيَّة، نظِيف الثِّياب، سَرِيع الجَواب، يُشْرِحُ الأصْحَاب، ويَجْلِبُ لَهُم الأحبَاب، تربية الأحرار، يَقْنَع بالفُول الحار، إذا سَقَيْتَـهُ دَمْعَة يَخْدُمكَ جُمعَة، لَعُوبٌ ضَحُوك، لِلأَصْحَابِ مَمْلُوك، لِقَوْلك سَمَّاع، كثِير الاحتِمَال، لا يلحُّ في السُّؤال».

الثَّاني، صَاحِب الذَّوْق الذَّمِيم: «عِشْرَتُه بَلِيَّة، يُفَرْزِن بيت الوَلِيمَة، ويَحْضُر بِلَا عَزِيمَة، شيطانٌ عَـيَّار، أَوْكَل مِن نَار، يحسبه مِن الضُّيوف صاحِبُ الدَّار، يُصَابح علَىٰ المِلَاح، وفي الخاتمة يَخْطَف الأقْدَاح، لا لَطِيفٌ ولَا كَيِّس، يركب بلَاش ويَغْمِز امرَأة الرَّيِّس، دَواؤه السَّك بالبَرَاطِيش، إنْ مات لا يجيبه يعيش». انتهىٰ ما بين الأقواس، بتصرُّف واختصار من كتاب «صاحب الذَّوق» للسيوطي (ص٨).

(١) في «ق»: [عَشِيتَ] بالعين، وهو خطأ.

وتأمَّل تعبير الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بكلمة: «**غَشِيتَ**»، وأصلها مِن الغَشَيَان، ويُقَال: غَشِيَ الليلُ =

وُجُودِكَ مَعَهُمْ.

يَا بُنَيَّ: إِذَا دُعِيتَ لِمُجَالَسَةِ قَوْمٍ وَكُنْتَ أَصْغَرَهُمْ سِنًّا؛ فَلَا تَجْلِسْ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لَكَ القَوْمُ بِالجُلُوسِ.

وَإِذَا جَلَسْتَ؛ فَلَا تُزَاحِمْ أَحَدًا مِنْ جُلَسَائِكَ، وَلَا تَضْطَرَّ جَالِسًا إِلَىٰ أَنْ يَتْرُكَ مَجْلِسَهُ لِأَجْلِكَ.

وَلَا تَتَقَدَّمْ إِلَىٰ مَوْضِعٍ رَفِيعٍ إِذَا كَانَ فِي المَجْلِسِ مَنْ هُوَ أَحَقُّ مِنْكَ بِالجُلُوسِ فِيهِ[1].

وَإِذَا جَلَسْتَ فِي مَوْضِعٍ، ثُمَّ جَاءَ مَنْ هُوَ أَوْلَىٰ مِنْكَ بِالجُلُوسِ فِيهِ؛ فَاتْرُكْ لَهُ ذَلِكَ المَوْضِعَ قَبْلَ أَنْ تُؤْمَرَ بِالتَّنَحِّي عَنْهُ -يَزِدِ احْتَرَامُكَ فِي أَعْيُنِ جُلَسَائِكَ.

يَا بُنَيَّ: إِذَا جَلَسْتَ فِي قَوْمٍ فَلَا تَدْخُلْ مَعَهُمْ فِي حَدِيثِهِمْ حَتَّىٰ يُدْخِلُوكَ، وَلَا تَتَكَلَّمْ وَفِي القَوْمِ مَنْ هُوَ أَوْلَىٰ مِنْكَ بِالكَلَامِ، وَإِذَا تَكَلَّمْتَ فَلَا تَقُلْ إِلَّا حَقًّا، وَلَا تَتَوَسَّعْ فِي المَقَالِ إِلَّا بِقَدْرِ إِقَامَةِ الحُجَّةِ، وَلَا تُنَاقِشْ جُلَسَاءَكَ إِلَّا بِالأَدَبِ، وَالتَّحَفُّظِ مِنْ عَثَرَاتِ اللِّسَانِ.

= إذا أظْلَم، ومنه قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١﴾؛ فكأن مَن دخَل بغير استئذانٍ أظْلَمَ نُورَ بهجةِ الجَالِسِين، وأطفأ عليهم أفكارَهُم.

(١) كالجُلُوس علىٰ كُرسيٍّ -مثلًا- وَغَيْرُك علىٰ الأرض، أو الجلوس في مكانٍ أَمْيَز.

وَإِيَّاكَ وَالقَهْقَهَةَ(١) فِي المَجَالِسِ؛ فَإِنَّهَا مِنْ أَخْلَاقِ السِّفْلَةِ(٢) وَرَعَاعِ النَّاسِ.

وَأَقْلِلْ مِنَ المُزَاحِ جُهْدَكَ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ المُزَاحِ تَذْهَبُ بِالاحْتِرَامِ، وَرُبَّمَا

---

(١) وقد تقدَّم أنَّ ضَحِكَ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان تبسُّمًا، وإذَا زادَ فِي ضَحِكِه؛ فإنه يَضْحَك حتَّىٰ تَبْدُوَ نوَاجِذُه، وهي أنيابُه، وما يَلِيها مِن أضْرَاس.

وقد وَصَفَتْ ضحِكَه زَوْجُه التي عاشَتْ معه، أمُّنا عائشةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، فقَالتْ: «**مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **ضَاحِكًا حَتَّىٰ أَرَىٰ مِنْهُ لَهَوَاتِهِ، إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ**»، أخرجه البخاري (٦٠٩٢)، ومسلم (٨٩٩).

و«**لهَوَاته**»: جمع لَهَاة، وهي اللحمة الحَمْرَاء المُعلَّقة في أعلَىٰ الحنَك.

وعَن سِمَاكٍ قال: قُلتُ لجابر بن سَمُرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**أَكُنْتَ تُجَالِسُ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَكَانَ طَوِيلَ الصَّمْتِ، قَلِيلَ الضَّحِكِ، وَكَانَ أَصْحَابُهُ يَذْكُرُونَ عِنْدَهُ الشِّعْرَ وَأَشْيَاءَ مِنْ أُمُورِهِمْ؛ فَيَضْحَكُونَ، وَرُبَّمَا تَبَسَّمَ»، أخرجه أحمد في «مسنده» (٥/ ٨٦) (٢٠٨٢٩)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٨٢٢).

ومِن وصاياه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ: «**لا تُكْثِرِ الضَّحِكَ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ القَلْبَ**»، أخرجه ابن ماجه (٤٢١٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٣٨١).

وكان ذلك مِن بَاب الوَقارِ والهَيْبَة، وحضُور القَلْب ألَّا يَمُوت؛ فلا تؤثِّر فيه موعظة - ومع ذلك فقد كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشُوشَ الوجه، بَسَّامًا لِمَن نظَر إليه، غير مُقَهْقِهٍ -الأمر الذي يُخرجه عن وقاره؛ ف صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ القائل: «**تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ**»، أخرجه الترمذي (١٩٥٦) من حديث أبي ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٦٨٥).

(٢) في «ق» [السَّفِلة]، وفي «ع»: [السَّفَلة] وكِلَاهُما صحيح، ويَصِح «السِّفْلة» وهو مَا أثبتُّه.

أَوْغَرَتْ صُدُوْرَ بَعْضِ النَّاس عَلَيْكَ[1].

يَا بُنَيَّ: لَا تُجَالِسْ مِنَ النَّاس إِلَّا أَهْلَ الْمُرُوءَةِ وَالشَّرَفِ، وَالعِفَّةِ وَالكَمَالِ، وَإِيَّاكَ وَمُخَالَطَةَ[2] السُّفَهَاءِ وَمُجَالَسَتَهُمْ[3].

---

(١) وكمَا أنَّ الأصل في الضَّحِك الإباحَة إلَّا بكثرة، فالمزاح كذلك، وقد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا يَبْلُغُ عَبْدٌ صَرِيحَ الإيمَانِ؛ حَتَّىٰ يَدَعَ الْمِزَاحَ وَالْكَذِبَ...»، أخرجه أبو يَعْلَىٰ كما في «مجمع الزوائد» (١/ ٩٢)، قال الهيثمي: «فيه محمد بن عثمان عن سليمان بن داود، لم أرَ مَنْ ذَكرَهُما»، وقال الألباني: «صحيح لغيره، وفي أسانيدهم مَن لَا يَحْضُرني حالُه، ولِمَتْنِه شوَاهِدُ كَثِيرة»، انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٩٤٠).

والمقصود مِن الحديث: كَثْرَة المزَاح، لا أصله، وإلَّا فقَدْ كَان رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَمْزَح حتَّىٰ مع الصِّبيان، كمَا في حديث النُّغَير، و«كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ يتبَادَحُونَ -[أيْ: يترَامَوْنَ]- بِالبِطِّيخ»، ولكن «إِذَا كَانَتِ الحَقَائِقُ؛ كَانُوا هُمُ الرِّجَال»، أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٦٦)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٣٥).

وقد نبتَتْ نابتةٌ في عَصرِنَا يُقَال إنَّهم مِن طُلَّاب العِلْم الشَّرعيِّ! وإذا رُؤوا في الوَاقع، أو التَّواصُل مِن المَواقع؛ كأنَّهم تَافِهُون أرَاذِل.. حتَّىٰ أسَاؤوا لأنفُسِهم ولِمَا يَحْمِلُون، ولطُلَّاب العِلْم الَّذِين هُم كذلك بحق؛ فظَنَّ العامَّةُ أنَّ كل طُلَّاب هذا الشأن كذلك!

فيَا طَالِبَ العِلْم، إنْ ابتُلِيتَ بهذا؛ فاذكُر أنَّ لِلْعِلم خشية، وسَمْت يَظْهَر علَىٰ صَاحِبه - وإنْ لم يتقَصَّدْه!- في وجهه وطَلْعَته، وكلَامِه، وصَمْتِه، وسَائر أحْوَاله.

(٢) في «ق»: [المخالطة]، وهو خطأ.

(٣) حذَّر الشيخ رَحِمَهُ اللهُ مِن مخالطة السُّفهَاء ومجالسَتهم؛ لأنَّ الجليس له أثرٌ كبير علَىٰ جَلِيسِه، واللهُ عَزَّ وَجَلَّ إذا أراد بعَبْدِه خيرًا؛ وفَّقهُ لمُعاشَرة أهل السُّنة، وأهل السِّترِ =

وَاحْذَرْ مَجَالِسَ الغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ جُهْدَكَ[(١)].

وَلَا تُجَالِسْ أَحَدًا مِنَ الفُسَّاقِ وَالفُجَّارِ[(٢)].

= والصَّلاح والدِّين، وردَّه عن صُحْبَة أهل الهَوىٰ والبِدَع، والمخالفين؛ فاحْذَر أنْ تكُونَ مع المُخالِفِين، والسفهاء الساقطين، وضَعْ نصب عينيك دائمًا قول النبيِّ الأمِين صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الرَّجُلُ عَلَىٰ دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**»، أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٢٧).

وقال الشَّاعر الجَاهليُّ طَرَفَةُ بنُ العَبْد في «ديوانه»، والبيت من بحر «الطويل»:

عَنِ الْمَرْءِ لا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ ... فَكُلُّ قَرِينٍ بالْمُقَارِنِ يَقْتَدي

وروىٰ أبو عبد الرَّحمَن السُّلَمي في «آداب الصُّحبة» (ص٤٣) بإسناده، عن عليٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

لَا تَصْحَبْ أَخَا الْجَهْلِ ... وَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ

فَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أَرْدَىٰ ... حَلِيمًا حِينَ آخَاهُ

يُقَاسُ الْمَرْءُ بِالْمَرْءِ ... إِذَا مَا الْمَرْءُ مَاشَاهُ

وَلِلشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ ... مَقَايِيسٌ وَأَشْبَاهُ

وَلِلْقَلْبِ مِنَ الْقَلْبِ ... دَلِيلٌ حِينَ يَلْقَاهُ

فَإِنْ لَمْ تَجِدْ صَالِحًا؛ فكُن وَحِيدًا أَحب مِن أنْ تُدَنَّس، فقَدْ رُوِيَ أنَّ: «الْوَحْدَةُ خَيْرٌ مِنْ جَلِيسِ السَّوْءِ، وَالْجَلِيسُ الصَّالِحُ خَيْرٌ مِنَ الْوَحْدَةِ»، أخرجه البيهقي في «الشُّعَب» (٤٦٣٩)، وهو ضعيف، ولكن معناه صحيح.

(١) فهي مَجالِسُ آكِلِي لحُومِ البشَر المَيتَة! وهي تأكُل الحسَناتِ كمَا تأكُل النَّارُ الحطَب، وحدِّث ولا حرَجَ عمَّا توَعَّد به اللهُ ورَسُولُه المُغتَابَ والنَّمامَ، ففي البَاب نصوص لا تخفَىٰ علىٰ مُسْلم!، وسوف يأتي معنا -إنْ شاء اللهُ- شيء مِن ذَلِكَ لَاحقًا.

(٢) ولا أهلَ الأهواء والبِدع، فإنَّ مُجَالسَتهم مُمْرِضَةٌ للقُلوب، مُفسدةٌ للعقول، مُذهبةٌ لأصول الدِّين.

وَإِيَّاكَ وَمُعَاشَرَةَ أَهْلِ الخُبْثِ، وَالدَّسَائِسِ، وَالنِّفَاقِ؛ فَإِنَّ الأَخْلَاقَ[1] السَّيِّئَةَ تَسْرِي فِي الجُلَسَاءِ كَمَا تَسْرِي النَّارُ فِي الحَطَبِ[2].

❀❀❀

---

(١) في «ق»: [الأخلاقِ] بالخفض، وهو خطأ.

(٢) قَال ابنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إِنَّمَا يُمَاشِي الرَّجُلُ ويُصَاحِب مَن يُحِبُّه، ومَن هُو مِثْله»، «الإبانة الكبرىٰ» لابن بطة (٤٩٩).

وقال قَتَادَةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّا -واللهِ- مَا رَأَيْنَا الرَّجُلَ يُصاحِبُ مِن النَّاسِ إِلَّا مِثْلَه، وشَكْلَه؛ فصَاحِبُوا الصَّالحِينَ مِن عِبَادِ اللهِ، لعَلَّكُم أَنْ تَكُونُوا معَهُم، أو مِثلهُم»، «الإبانة الكبرىٰ» (٥١١).

وعلَّقَ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: علىٰ حديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المتفق عليه: «مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوْءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ وَنَافِخِ الكِيرِ...» بقوله: «وفِيه: فَضِيلَةُ مُجالَسَة الصَّالحِينَ، وأهْلِ الخَيْرِ وَالمُروءَة، ومَكارم الأَخْلَاقِ والورَع، والعِلْم والأدَب، والنَّهْي عن مُجالسَةِ أَهْل الشَّر، وأهل البِدَع، ومَن يَغْتَاب النَّاس، أو يَكْثُر فُجْرُه وبَطالَته، ونحو ذلك مِن الأنواع المذمومة»، انظر: «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٦/ ١٧٨).

فالسَّلَف الصَّالح مِن لدُن رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأصحابِه ومَن بَعْدَهُم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كانوا يَهجُرونَ مُخالِفِي السُّنة، ومَن انحرَفَ عن الاستقامةِ وأظهَر فِسْقًا، كالمُبتَدِعين، وأصحَاب الكبَائر مِن الزُّناة، والمُغَنِّين ونَحْوهم، وإنْ كانوا مِن أقرب الأقربين -عافاني الله وإيَّاك-، ولم يرَوْا أنَّ هذا مِن الهَجْر المَذْمُوم؛ لأنَّه به تُصان النَّفس وَالدِّيَانة.

الدَّرْسُ العَاشِرُ
فِي آدَابِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ

يَا بُنَيَّ: إِذَا كُنْتَ تُرِيدُ أَنْ تَعِيشَ صَحِيحَ البِنْيَةِ سَلِيمًا مِنَ الأَمْرَاضِ؛ فَلَا تُدْخِلْ فِي مَعِدَتِكَ طَعَامًا عَلَىٰ طَعَامٍ، وَلَا تَأْكُلْ إِلَّا إِذَا كُنْتَ جَائِعًا، وَإِذَا أَكَلْتَ فَلَا تَمْلَأْ بَطْنَكَ مِنَ الطَّعَامِ؛ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مَلَأَ ابنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ»[1].

---

(١) قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: «رواه الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم عن المقدام بن معد يكرب».

قلت: أخرجه الترمذي (٢٣٨٠)، وابن ماجه (٣٣٤٩)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٢٦٥)، والحديث بتمامه: «مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكُلاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ، فَإِنْ كَانَ لا مَحَالَةَ -فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ».

قَالَ ابنُ رجب رَحِمَهُ اللهُ فِي «جامع العلوم والحكم» تحت الحديث السَّابع والأربعِين: «وهَذَا الحديث أصلٌ جامعٌ لأصول الطِّبِّ كُلِّها، وقد رُوِيَ أَنَّ ابن ماسويه الطبيب لمَّا قرَأَهُ في كتاب أبي خَيْثَمَة، قال: «لو استَعْمَلَ النَّاسُ هَذِه الكَلِمَات؛ لسَلِمُوا مِن الأمراض والأسْقَام، ولتعَطَّلت المَارِسْتَانَات [هي دار المَرْضَىٰ، أو المستشفىٰ، انظر: «لسان العرب» (مرس)]، ودكَاكِين الصَّيادِلَة». اهـ.

وابن ماسويه، هو يحيىٰ بن ماسويه الحَرَّاني، كان نصرانيًّا، وطبيبًا حاذِقًا، وله مِن =

= المؤلفات «إصلَاح الأدوية المفردة تدبير الأصِحَّاء»، توفي (٢٤٣هـ). انظر: «كشف الظنون» (٦/ ٥١٥).

وعَن نَافِعٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: «كَانَ ابْنُ عُمَرَ، لَا يَأْكُلُ حَتَّىٰ يُؤْتَىٰ بِمِسْكِينٍ يَأْكُلُ مَعَهُ، فَأَدْخَلْتُ رَجُلًا يَأْكُلُ مَعَهُ؛ فَأَكَلَ كَثِيرًا. فَقَالَ: يَا نَافِعُ، لَا تُدْخِلْ هَذَا عَلَيَّ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًىٰ وَاحِدٍ، وَالكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ**»، أخرجه البخاري (٥٣٩٣)، ومسلم (٢٠٦٠).

وفي الحديث كِنَايةٌ عن الشَّرَه، والتَّطَلُّع، والرَّغبة في التَّشَبُّع مِن مَلَذَّات الدُّنيا، الَّتي مِن جُملَتِهَا: تنَوُّع المَآكِلِ والمَشَارِبِ.

وقد سبَقَ وبيَّن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أهمية الصِّحة، وما يترتَّب علَىٰ سلامتها من فوائد، وهنا يُكمل بيَان ذلك بتـرْك الشبع، وهو: إدخال الطعام لغير حاجة، وامتِلَاء البطن، حيث إنَّ لذلك أضرارًا عديدة بسَطها الأطباء في كتبهم وكلَامهم.

فلَكَ أنْ تعرف أن أمراض المخ والأعصَاب، والقَلب، ومفاصل الرُّكبتَيْن، وغيرها سببها امتلاء البطن والتُّخمة، ويعرف هذا القاصي والدَّاني، أضف إلىٰ أضرارها البدنية أضرارًا عقلية! فهي سبب رئيس في ضَعْف الذَّاكرة، وجَلْب النِّسيان، فقد كشفَتْ أحدث الدِّراسَات في بلاد الغَرْب أنَّ الجوع يقوي الذَّاكرة، ويُساعِد علَىٰ الحِفْظ، واستِرْجاع المعلومات؛ وذلك لأنَّ هرمون الجوع، وهو ما يُسَمُّونه: «جريلين»، يُزِيد عدد المُوَصلَات العصبية في منطقة الذَّاكرة داخل الجسم، والهِرمون يفرزه الجوع نحو مَجْرَىٰ الدَّم عندما تكون المعدة خاوية.

ولذلك تأمل فيمن يشبع، تَجِدُه لا يتحَكَّم في عينيه، ويُقبِل النَّوم عليه!

كما أنَّ هذا الهرمون يُنشِّط المُستَقبَلات العصبية للمخ، وأشار بعض الأطِبَّاء أنَّ هرمونًا آخر يُسمَّىٰ: «الهايبوتلاموس» هو الَّذِي يُؤثِّر علَىٰ مِنطَقةٍ أخرىٰ تُسمىٰ: «قرين أمون» =

يَا بُنَيَّ: إِذَا كَانَتْ بِكَ حَاجَةٌ إِلَىٰ الطَّعَامِ؛ فَاغْسِلْ يَدَيْكَ أَوَّلًا[(١)]، وَاذْكُرِ اسْمَ

= وتوجد في الدماغ، وقد أجروا العديد من التجارب؛ فوجدوا أنَّ الجِينات المُنتِجَة لهرمون «جريلين» تقلُّ لديها موصلَات الأعصاب بين الخلايا العصبية في هذه المنطقة.

وقد سبق سلَفُنا الصالح في كثير مِن كلَامهم ببيان هذا الأمر، مثلما يأتي:

عن مُحَمَّد بن وَاسِع رَحِمَهُ اللَّهُ **قال**: «مَنْ قَلَّ طُعْمُه فَهِمَ وأَفْهَم، وصَفا ورَقَّ، وإِنَّ كَثرةَ الطَّعام ليُثقِل صاحبَه عن كثير مِمَّا يُريد»، أخرجه ابن أبي الدنيا في «الجوع» (٥٩).

وعن أبي سُلَيمان الدَّاراني رَحِمَهُ اللَّهُ **قَال**: «إِذَا أَرَدْتَ حَاجةً مِن حَوائجِ الدُّنيا والآخِرَة، فلَا تأكُلْ حتَّىٰ تَقْضِيَها؛ فإنَّ الأكلَ يُغيِّر العَقْل»، **وكان يُقال**: «لَا تَسكُنُ الحِكمةُ مَعِدةً مَلْأَىٰ»، أخرجه ابن أبي الدنيا في «الجوع» (٨٧)، و(١٠٢).

وقال الشَّافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما شَبعتُ منذ ستَّ عشرةَ سَنة، إلَّا شبعةً اطرحتها؛ لأنَّ الشبع يُثقِلُ البَدَن، ويُزيل الفِطنَة، ويَجلِبُ النَّوم، ويُضعِف صَاحِبَه عن العبادة»، أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٩/ ١٢٧).

والكلَام في هذا الباب كثيرٌ وطَويل، وأكتفِي بهذا؛ علَىٰ أنَّ نصيحتي لك: كُفَّ مَعِدتَك؛ فإنَّها لن تَقُولَ: كفَىٰ.

(١) غَسْل اليَدَيْن يَتعلَّق بمَا سبَقَ مِن المُحافظَة علَىٰ الصِّحة، وقد حدَّثني صديقٌ طبيبٌ أنَّ (٥٪) مِن الأمراض المُنتَشِرَة -خصوصًا المعوية- بسَببِ تَرْك غَسْلهِمَا قبل الأكل؛ لأنَّ اليدَيْن مُعرَّضتَان لِلمَسِّ والإمْسَاك، لَاسِيَّما مع كثرة الأعمَال اليومية، والمُواصلَات، ومس أبواب السَّيارات؛ فتَعْلَق بهما الأتْربَة والعوَادِم وغيرها.

وقد كان بعض السَّلَف يَفْعَلُونه، وبعض الفُقهَاء يَسْتحِبُّونه.

قال ابنُ قُدَامَة رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُسْتَحبُّ غَسْل اليَدَيْنِ قَبْل الطَّعام وبَعْده، وإنْ كان علَىٰ وضُوء».

قال المَرْوَذيُّ: «رَأيتُ أبَا عبد الله [يعني أحمدَ بن حَنْبل] يَغْسِل يدَيْهِ قبل الطَّعام وبَعْده، وإنْ كانَ علَىٰ وضوء»، «المُغْني» (٨/ ١٢١).

اللهِ عَلَىٰ طَعَامِكَ(١)، وَلَا تَبْتَلِعِ الطَّعَامَ ابْتِلَاعًا(٢)، وَلَكِنِ امْضُغِ اللُّقْمَةَ مَضْغًا

---

(١) فإنَّ الشَّيطان يُشَارك طعَامًا لم يُذكَرِ اسمُ الله عليه؛ لحديث مسلم (٢٠١٧) عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لَا يُذْكَرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ**».

قال النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصَّوابُ الَّذِي عليه جمَاهِيرُ العُلمَاءِ مِنَ السَّلفِ وَالخلَفِ، مِن المُحَدِّثِينَ وَالفُقهَاءِ والمُتكلِّمين: أنَّ هذَا الحَدِيثَ وشبَهَهُ مِن الأحَادِيثِ الوَارِدَةِ في أكْلِ الشَّيطَانِ محمُولةٌ علَىٰ ظوَاهِرِهَا، وأنَّ الشَّيطان يَأكُل حقِيقةً؛ إذْ العَقل لَا يُحِيلُه، والشَّرع لم يُنكِرْه، بل أَثْبَتَه؛ فوَجَبَ قَبُولُهُ واعتِقَادُه، والله أعلم»، انظر: «شرح النووي علىٰ مسلم» (١٣/ ١٩٠).

وقَال ابنُ حَجَر رَحِمَهُ اللَّهُ: «الشَّيْطَان يَأكُل حقِيقةً؛ لأنَّ العقل لَا يحيل ذَلِك، وقد ثبَتَ الخبَرُ به؛ فلَا يحْتَاج إلىٰ تأوِيله»، «فتح الباري» (٩/ ٥٢٢).

أمَّا صِفَة ذِكْر اسْم اللهِ علَىٰ الطَّعَام: فلَا تكُون بقول بَعْضِهم: «بسم الله الرحمن الرحيم»؛ فهذه «بسملةٌ» تُقال عند أوائل سُوَر القرآن العظيم، **والصَّواب علَىٰ الطَّعام** «التسمية»: وهِيَ قَوْلُ: «بسم الله»؛ لحديث الترمذي (١٨٥٨) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا فَلْيَقُلْ: بِسْمِ اللهِ، فَإِنْ نَسِيَ فِي أَوَّلِهِ فَلْيَقُلْ: بِسْمِ اللهِ فِي أَوَّلِهِ وَآخِرِهِ**»، وصححه الألباني في «الصحيحة»، وقال: «وفيه دليل علَىٰ أنَّ التَّسمِيَة علَىٰ الطَّعام هي: «بسم الله» فقط...، وأمَّا قول النَّوويِّ: «والأفضل أن يقول: بسم الله الرحمن الرحيم؛ فإن قال بسم الله كفاه، وحصلت السُّنة»؛ فلَمْ أرَ لِمَا ادَّعَاه مِن الأفضَلِيَّة دلِيلًا خَاصًا، وأقول: لَا أفْضلَ مِن سُنَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وخَيْرُ الهَدْيِ هَدْيُ مُحمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ». اهـ. انظر: «السلسلة الصحيحة» (١/ ٦٧٧).

قلت: وأما قول النَّووي رَحِمَهُ اللَّهُ، فانظره في «الأذكار» (ص٣٧٢)، وقد ذهب ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ سُنِّية التَّسمِيَة دُون البَسْمَلة، ورَدَّ علَىٰ النَّووِيِّ؛ فارْجِع إليه في «فتح الباري» (٩/ ٥٢١)، ط. دار «المعرفة» - بيروت، (١٣٧٩هـ)، والله أعلم.

(٢) في «ق»: [ابتلاءً]، وهو خطأ.

جَيِّدًا؛ فَإِنَّ جَوْدَةَ المَضْغِ تُعِينُ عَلَىٰ الهَضْمِ[١]، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ، وَلَا تُذْهِبْ يَدَكَ فِي الإِنَاءِ هَاهُنَا وَهَاهُنَا[٢]، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الشَّرَهِ[٣] المَمْقُوتِ.

يَا بُنَيَّ: إِيَّاكَ أَنْ تَفْعَلَ كَمَا يَفْعَلُ السَّفِلَةُ وَرَعَاعُ النَّاسِ؛ فَلَا تَأْكُلْ فِي الأَسْوَاقِ[٤]،

---

(١) وقد ثَبتَ هذَا طبِّيًّا، وهي فائدةٌ مِن عِدَّة فوَائد لِلمَضْغِ الجَيِّد.
وعلَيْهِ، فإنَّ التَّسَرُّع في المَضْغ نتيجَتُه سُوء الهضم، الذي يؤدِّي إلىٰ الإمساك؛ فيحصُل امتلاءٌ وسِمْنَة، واضطِرَابات للقَوْلُون، وقد يُصَاب الإنسان بالسُّكَّرِي بسبب تدَهْوُر الإنزيمَات التي تعمل علىٰ إنتاج الأنسولين في الجسم؛ فعند تدَهْوُرِهَا يَقِلُّ الهِرمُون؛ فيحدث سُكَّر؛ عافانا الله وإياك!
وهذَا الكلَام ليْسَ مِن كِيسِي! بل أكَّدَتْهُ دراساتٌ أمريكية أُرسِلَت إليَّ بعد استِفسَاراتٍ، وزادَهُ تأكيدًا الدكتور/ محمد سعد، استشاري التغذية، وأستاذ الكيمياء الحيوية - بـ«جامعة القاهرة»، وأضافَ أنَّ هَذَا سببٌ رئِيسٌ أيضًا في مَرَض النَّاسُور الشَّرَجِي «البواسير»؛ عافانا الله وإيَّاك؛ فلَا تـتَسَرَّعْ في مَضْغِك؛ كيْ لا تُلْقي بنفسك إلىٰ التَّهلُكة كما قال الله عَزَّوَجَلَّ، ولأنَّه «**لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَار**».

(٢) وهذا توجيهٌ نبويٌّ ينبغي أن نُعَلِّمه أبنَائِنَا، فقد قال عُمَرُ بْنُ أَبِي سَلَمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «كُنْتُ غُلَامًا فِي حِجْرِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ فِي الصَّحْفَةِ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَا غُلَامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ**»، أخرجه البخاري (٥٣٧٦).

(٣) «الشَّرَه»: أسْوَأُ الحِرصِ وغلبَتُه وشِدَّتُه.

(٤) الأكل في الأسواق مِن المَسَائل المنتشرة في زماننا، حتىٰ صارت المطاعم داخل الأسواق، بل هي عند بعض الناس ضرورة حياتية، بحُكم عمَلِهم، أو تنَقُّلَاتهم وأسفارهم، أو لأيِّ ظروف عندهم، وقد اختُلف علىٰ الأكل في الأسواق:
=



وَلَا عَلَىٰ[(١)] قَارِعَةِ الطَّرِيقِ[(٢)]، وَلَوْ عَلَىٰ سَبِيلِ التَّفَكُّهِ[(٣)]، فَإِنَّ ذَٰلِكَ يُسْقِطُ

= **أولًا**: قد كَرِهَ كثيرٌ مِن السَّلف، -وتبعهم بعض علمائنا في هذا العصر- الأكلَ داخل الأسواق لا لِذَاته، وإنَّما لِمَا يَحْدُث فيها، مثل:

- أنَّه فِعْل المُتْرَفِين؛ فلَا ينبغِي للعُقلَاء وذَوي الشَّأن فِعلُه، لأنه يَخْرِمُ المُروءَة.
- أنَّ الآكِل قد تَصْدُر منه حرَكاتٌ وتَصرُّفات لا تَلِيق به في حضرة النَّاس يُشاهِدُونَه.
- أنَّه لن يأمَن مِن النَّظَر المُحَرَّم، حَيْثُ المُتَبَـرِّجَاتُ في كلِّ مكَان، ويَصْدُر مِنهُنَّ ما يَصدُر مِن غيرهن أثناء الأكل، بل مِن النِّساء مِمَّن انفلت حياؤهُنَّ قد تَجْلِس جِلْسةً غير لائقة، كأنْ تضَعَ قدَمًا علَىٰ الأُخرَىٰ، أو تَضْحَكَ بعُلوِّ صَوت، ونحو ذلك مِن قلَّةِ الحَياء الَّتِي ابتُلِيَت بها كثيراتٌ، والله المستعان.
- أنَّ تلك الأماكن غالبًا لا تَخْلُو مِن منكراتٍ وأغَانٍ وتلَافِز وصَخَب، وغيرها.

ثانيًا: توسَّط بعضُ أهل العِلْم، فرَأَوْا أنَّ الأمْرَ يَخْتَلِف مِن سُوقٍ إلىٰ أخرَىٰ، ومِن عاداتٍ وأعْرَافِ بُلْدَان إلىٰ غيرها، حتىٰ قال الغزاليُّ: «الأكل في السوق تواضُع، وترْك تكلُّف مِن بعض النَّاس؛ فهو حسَن، وخرقُ مروءةٍ مِن بعضهم؛ فهُوَ مَكْرُوه، وهو مُختلِفٌ بعادات البلاد، وأحوالِ الأشخاص». اهـ «الإحياء» (٢/ ١٩).

وعليه أقول: الأصل الإباحة، مع الْتِمَاس الضَّرُورَات، وتجَنُّب المَحظورات، وهُجران أمَاكن الفتن، والله أعلم.

(١) [عَلَىٰ] ليست في «ق»، وقد أثبتَها الشيخ عبد القادر الأرناؤوط في «ع».

(٢) «**قَارِعَةُ الطَّرِيقِ**»: وَسطُه، وسُمِّيَت قَارعةً؛ لأنَّ المَارَّة يَقْرَعُونَها، -أيْ يَضْرِبونها- بأرْجُلِهِم، وسُمِّيَت القيامة قارعةً؛ لأنَّها تَضْرب بأصناف الشَّدائد، والله أعلم.

أمَّا حُكْم الأكل علَىٰ قارعة الطَّريق؛ فَيُلْحَق بما سبَقَ بيانُه مِن الأكل في الأسواق، والله أعلم.

(٣) «**التفكُّه**»: يأتِي علىٰ عدة معانٍ، ولعل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ قصَدَ التمَتُّع والتَّلذُّذ، أو السَّير للتَّـنَـزُّه، والله أعلم.

الْمُرُوءَةَ[(١)]، وَيُزْرِي بِأَهْلِ الفَضْلِ.

يَا بُنَيَّ: إِيَّاكَ وَالبُخْلَ، وَإِيَّاكَ وَالشَّرَهَ، فَإِذَا جَلَسْتَ وَبِجَانِبِكَ إِنْسَانٌ -تَعْرِفُهُ أَوْ لَا تَعْرِفُهُ- فَادْعُهُ لِمُؤَاكَلَتِكَ؛ وَإِذَا بَقِيَتْ مِنْكَ بَقِيَّةٌ؛ فَتَصَدَّقْ بِهَا عَلَىٰ أَهْلِ الْحَاجَةِ، وَلَا تَسْتَصْغِرْ شَيْئًا تَتَصَدَّقُ بِهِ[(٢)]؛..............................

---

(١) علَّق عبد القادر الأرناؤوط، فقال: «المروءة: «تَعاطِي ما يُسْتَحْسَن، وتجَنُّبُ مَا يُسْتَرذَل»، والمروءة أيضًا: «استِعمَال كُل خلُقٍ حسَن، واجتِنَاب كُل خُلُقٍ قَبِيح».

قال الشَّاعر:

مَـرَرْتُ عَلَـىٰ الْمَـرُوءَةِ وَهْـيَ تَبْكِـي ... فَقُلْـتُ عَـلَامَ تَنْتَحِـبُ الْفَتَـاةُ

فَقَالَـتْ: كَيْـفَ لَا أَبْكِـي وَأَهْلِـي ... جَمِيعًـا دُونَ خَلْـقِ اللهِ مَـاتُوا».

اهـ. من حاشيته.

قلت: وقد نقلَ بعضَهُ مِن «تاج العروس» للزَّبيدي (١/ ٢٢٠)، ونقل البَيْـتَـيْنِ مِن قصيدةٍ للشَّاعر العراقي: عبد المهدي بن راضي، المُتَوفَّىٰ (١٣٥٨هـ)، وهو مِن شُعراء العصر الحديث، له أربع وسبعون قصيدة، وكان رَافضِيًّا.

وقيل لمعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَا الْمُرُوءَةُ؟ قَالَ: الْعَفَافُ فِي الدِّينِ، وَإِصْلَاحُ فِي الْمَعِيشَةِ»، أخرجه البيهقي في «السنن الكبرىٰ» (٢٠٦٠٣).

وإجمالًا، فالمروءة: إقامة الخِصَال المَحمُودَة، ونَبْذُ الخِلَال المَذمُومَة.

(٢) اللهُ -جلَّ جلاله- لَا يَنظُر فقط لمَن تصدَّق بالكثير أو الكبير، بل مِن رحمته أنه -سبحانه وبحمده- ينظر إلىٰ أقل الصَّدَقات؛ شَريطةَ أنْ تكون خالصةً له وَحْدَه، وَمِن كَسْبٍ طيِّب؛ فلا تحقرنَّ أنْ تـتَصَدَّق بجنيه واحد، أو بقميصٍ، أو بكسْرَة خُبز، أو بعُنقود عِنَب، أو بشِقِّ تَمْرة! فإنَّ مَا لَا يَسُد احتِياجَك؛ فبِالضَّرورةِ يَسُد احتِيَاج غَيْرِك! =

فَإِنَّ لِلقَلِيلِ[1] مِنَ الصَّدَقَةِ مَوْضِعًا لَا يَسْتَغْنِي عَنْهُ الفُقَرَاءُ.

وَإِذَا تَصَدَّقْتَ عَلَىٰ فَقِيرٍ فَلَا تَزْدَرِه[2]، وَلَا تُتْبِعْ صَدَقَتَكَ بِأَذَىٰ مَنْ تَصَدَّقْتَ عَلَيهِ، ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى﴾ [البقرة: ٢٦٣][3].

= وتأمَّل هذا الحَدِيث الحسَن الذي أخرجه أحمد في «المسند» (٦/ ٧٩) (٢٤٥٤٥)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لها: «**يَا عَائِشَةُ، اسْتَتِرِي مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ؛ فَإِنَّهَا تَسُدُّ مِنَ الْجَائِعِ مَسَدَّهَا مِنَ الشَّبْعَانِ**»، حسنه الألباني في «الصحيحة» (٨٩٧).

وتأمَّلْ أيضًا فِعل امرأةٍ علىٰ عَهْدِ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، نجَّاها اللهُ مِن النَّار، ودخَلَت الجَنَّة بتَمْرةٍ واحدة! كما تروي عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فتقول: «جَاءَتْنِي مِسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْنِ لَهَا، فَأَطْعَمْتُهَا ثَلَاثَ تَمَرَاتٍ، فَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً، وَرَفَعَتْ إِلَىٰ فِيهَا تَمْرَةً لِتَأْكُلَهَا، فَاسْتَطْعَمَتْهَا ابْنَتَاهَا [أَيْ طلَبَتَا مِنهَا التَّمرة]؛ فَشَقَّتِ التَّمْرَةَ، الَّتِي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا، بَيْنَهُمَا، فَأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا، فَذَكَرْتُ الَّذِي صَنَعَتْ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَوْجَبَ لَهَا بِهَا الْجَنَّةَ، أَوْ أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ**»، أخرجه مسلم (٢٦٣٠).

فعلينا أنْ نغيِّر نظرَتنا لقَلِيل الصَّدَّقات.. ولنَعْلَم يقينًا أنَّ الله يُربيهَا للعبد حتىٰ تكُون جبلًا عظيمًا من الصَّدقات، وكَما لَا عُذر لغَنِيٍّ أن يُكثِر مِن الصَّدَقات، كذلك لا عُذر لفقير أنْ يُخرِجَها؛ وذلك من رحمة الله وفضله علىٰ عباده.؛ لأنَّ المُستَفِيد الأكبَر هو المُتصَدِّق، لا المتصدَّق عليه؛ فلا تبخَل!

(١) في «ق»: [للتقليل]، وهو خطأ.

(٢) أيْ: لَا تحتقِرْهُ، أو تُنقِصْ مِن قَدْرِه.

(٣) «**الأذىٰ**»: «أنْ يُعيِّره، ويقول: «قد أعطيتُكَ فمَا شكَرْتَ»، أو يَذكُر في غَيْبَته إنفَاقَهُ عليه. قال عبد الرَّحمَن بن زيد بن أسْلَم رَحِمَهُمَا اللَّهُ: «كان أبي يقُول: إذَا أعطَيْتَ رَجُلًا شيئًا، =

وَاجْتَهِدْ أَنْ تُخْفِيَ صَدَقَتَكَ عَنِ النَّاسِ، فَإِنَّ صَدَقَةَ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ اللهِ تَعَالَىٰ(١).

يَا بُنَيَّ: اتَّقِ الأَكْلَ وَالشُّرْبَ فِي الأَوَانِي القَذِرَةِ؛ فَرُبَّمَا جَلَبْتَ لِنَفْسِكَ مِنَ الأَمْرَاضِ بِقَذَارَةِ(٢) الأَوَانِي مَا لَا يَنْفَعُكَ فِيهِ طِبُّ الطَّبِيبِ، وَلَا عِلَاجُ الحَكِيمِ(٣).

= ورَأَيْتَ أنَّ سلامك يثقل عليه؛ فَكُفَّ سلامَك عنه». فحظَر اللهُ علَىٰ عباده المَنَّ بالصَّنيعَة، واختَصَّ بهِ صِفَةً لنَفْسِه؛ لأنه مِن العِبَاد تَعْيِيرٌ وتَكْدِير، ومِنَ اللهِ إفضَالٌ وتَذْكِير»، انظر: «تفسير البغوي» (١/ ٣٢٦).

وقال الضَّحاك رَحِمَهُ اللَّهُ: «أنْ لَا يُنفِق الرَّجُلُ مَالَهُ، خَيرٌ مِن أنْ يُنفِقَهُ ثُم يتَّبعه مَنًّا وأذًىٰ»، أخرجه الطبري في «تفسيره» (٥/ ٥٢٧).

قلت: ولذلك، فإنَّ تكمِلَة الآية بَعْدُ: ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ۝﴾.

قال الطبريُّ: «﴿غَنِيٌّ﴾ عمَّا يَتصدَّقون به، ﴿حَلِيمٌ ۝﴾ حِينَ لَا يُعَجِّل بالعقوبة علَىٰ مَن يَمُنُّ بصدقته منكم، ويؤذي فيها مَن يَتصدَّق بها عليه». انظر: «تفسير الطبري» (٥/ ٥٢١).

وقال الشاعر:

وَمَنْعُكَ لِلنَّدَىٰ بِجَمِيلِ قَوْلٍ ... أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ بَذْلٍ وَمِنَّة.

أورده أبو حيان في «البحر المحيط» (٣/ ٩٥).

(١) قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «عن معاوية بن حيدة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ صَدَقَةَ السِّرِّ تُطْفِيءُ غَضَبَ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ»، رواه الطبراني فِي «المعجم الكبير».

قلت: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٦٦٨٨)، و«الأوسط» (٣٤٥٠)، وصححه الألباني بمجموع طرقه وشواهده، بل ألحقه بالمتواتر كما عند بعض المحدثين المتأخرين، انظر: «السلسلة الصحيحة» (٤/ ٤٠٧).

(٢) في «ق»: [بقَذَرة] وهو خطأ.

(٣) قديمًا كان الطَّبيب يُسمَّىٰ: «حَكِيمًا» أيضًا، وظلَّ هَذَا اللَّقَب إلىٰ زمن المؤلف وما =

= بَعْدَه بِسَنواتٍ مَعْدُودَات، حتىٰ انقرَضَت هَذِه التَّسمِيَة في أواخِر الخَمْسِينَات ومَطْلع السِّتينَات -كما يغلب علىٰ ظنِّي-.

وقِيلَتْ عن أصْل هَذَا اللَّقب، وأوَّل ظُهورِه، عِدَّةُ أقوال، منها:

القَوْل الأوَّل: أنَّ الطَّبيب يمتلك القدرة والحِكْمَة علىٰ اكتِشَاف العِلَّة وعِلَاجها بكل ما أُتِيحَت له مِنْ وسَائل، ويَعرف بحِكْمَته ما يصلح للمَرِيض مِن شَرابٍ ودواء؛ فسُمِّيَ حكيمًا.

القَول الثَّاني: أنَّ الطَّبيب شابَهَ العُلمَاء فِي معرفتهم الله عَزَّوَجَلَّ، ومعرفة قُدرَته علَىٰ خلق المَخلُوقات وأجسَادهَا...، كمَا شابَهَ العُلماء أيضًا في عِلَاج أسقَام النَّاس، والأخذ بأيديهم؛ فسُمِّيَ حكيمًا؛ لأنَّ الله تعالىٰ قال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

القَوْل الثَّالث: أنَّ ذلك يرجع إلىٰ «بيت الحكمة» التي أنشأهَا الخَلِيفة الصَّالح هَارُون الرَّشِيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، حيثُ كان لِتَعَلُّم الطِّب مكانةٌ كبيرةٌ، مقارنةً بالعُلوم الأخرَىٰ؛ فكانوا يُسَمُّون المُتخَرِّج منها حَكِيمًا؛ نسبةً إلىٰ «بيت الحِكمة».

القَول الرَّابع: أنَّ الفلَاسِفَة كانوا يُعَرِّفون الفَلْسَفة بـ«مَحبَّة الحِكْمَة»، والفَيلسُوف كان يُطلَق عليه: «حَكِيمًا»، وكانُوا يَبحَثُون مِن خِلَال تلك الفَلْسَفة عن ماهِيَّة الإنسَان، ويُكثِرُون مِن البَحْث والاكتِشَاف والتَّفكِير التي تهدف إلىٰ تفسير الأسرار الإنسانية، والكونية، والارتقاء بأخلاق الإنسان؛ فلذلك كانوا يشتغلون بالطِّب ضرورةً؛ لاكتشاف الأسرار الإنسانية، وعلَيْه: قرَّرُوا ألَّا يصح أنْ يُطلَق علَىٰ الفَيْلَسُوف فيْلَسوفًا وحَكِيمًا إلَّا إذا كان عالمًا بالطِّب؛ فـقعَّدوا قاعدةً هي: «كُل فيلَسُوفٍ حَكِيم، وكُلُّ حَكِيمٍ طَبِيب».

وعلَىٰ القول السَّابق، قال طبيب التَّشْرِيح الإغريقي جَالِينُوس (ت: ٢٠٠م): «ينبغي للأطباء أنْ يتفَلْسَفُوا في جميع الأوقات».

وكان الطَّبيب الإغْرِيقي اَسْكَلِيبْيُوس يُسمَّىٰ: «إمام الطِّب وأبو الفلاسفة»؛ جمْعًا بينهما.

ولا تزال الأقوال مختلفة، ولا يُعْلَم سببٌ محدَّد لأصْلِ هذَا اللَّقَب وسبَبِه، والعِلْم عند الله.
=

وَلَا تَشْرَبْ مِنَ الْمَاءِ إِلَّا مَا كَانَ نَقِيًّا مِنَ الأَدْرَانِ(١)، وَإِذَا شَرِبْتَ فَسَمِّ اللهَ قَبْلَ

= أمَّا عن حُكم التَّسَمِّي به -علَىٰ العُموم-، فقد أفاد الشيخ الدكتور/ مُحمَّد علِي فَرْكُوس -حفظه الله- حينما سئل؛ فقال: «الحَكِيم هو مَن كان قولُه وفعلُه مُوافِقًا للسُّنَّة [«التعريفات» للجرجاني (٩٢).]، فلا يُطلق علَىٰ العَالِم فقطْ، وإنَّما مع زيادة المُبالغَة فيه، أو علىٰ العَالِم العامِل [«الكلِّيات» لأبي البقاء (٣٨٢)]، بينما كلُّ حاذقٍ عند العرَبِ فهو طبيبٌ [المصدر السابق]، وقد استَعْمَل الشَّارع لفظَ «الطبيب» لَا «الحكيم» في نصوصٍ صحيحةٍ منها:

«أَرِنِي هَذَا الَّذِي بِظَهْرِكَ، فَإِنِّي رَجُلٌ طَبِيبٌ»، قَالَ: «اللهُ الطَّبِيبُ، بَلْ أَنْتَ رَجُلٌ رَفِيقٌ، طَبِيبُهَا الَّذِي خَلَقَهَا»، أخرجه أبو داود في «الترجُّل» باب فِي الخضابِ (٤٢٠٧)، من حديث أبي رِمْثَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤/ ٥١)، ومقبل الوادعي في «الصحيح المسند» (١٢٤٢).

ومنها قولُه صلَّىٰ الله عليه وآله وسلَّم: «مَنْ تَطَبَّبَ وَلَا يُعْلَمُ مِنْهُ طِبٌّ فَهُوَ ضَامِنٌ»، أخرجه أبو داود في «الديات» بَابٌ فِيمَنْ تَطَبَّبَ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَأَعْنَتَ (٤٥٨٦)، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وحسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢/ ٢٢٦).

والمراد بـ«مَنْ تطبَّب» أي: تعاطَىٰ عِلْمَ الطِّبِّ وعَالَجَ مريضًا.

وبِنَاءً عليه، فلا يَليق تسميته بالحكيم والعدولُ عن تسمية الشَّرع له بالطبيب، والعِلْم عند الله تعالىٰ». انتهىٰ من «الفتاوىٰ الطبية» (الفتوىٰ رقم: ٣٩٥) علىٰ موقعه بشبكة المَعلُومَات.

ومَن أراد مزيد بحثٍ فليرجع إلىٰ: «طبقات الأطباء» لابن أبي أُصَيبعة، و«تفسير كتاب الإيمان لأبُـقراط» لجَالِينُوس، و«ناموس الطب» لأبُـقراط، وبحثٍ بعنوان: «العلاقة بين الطبيب والمريض عابرة أم حميمة» للدكتورة/ ليلىٰ عبد الأمير.

(١) «الأَدْرَان»: جمع دَرَن، وهو الوَسَخ.

أَنْ تَشْرَبَ، وَلَا تَشْرَبِ المَاءَ عَبًّا[(١)] وَلَكِنِ اشْرَبْهُ مَصًّا[(٢)]، قَلِيلًا قَلِيلًا، وَاسْتَرِحْ فِي شُرْبِكَ، وَلْيَكُنْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، تَفْصِلُ[(٣)] بَيْنَ كُلِّ مَرَّةٍ وَأُخْرَىٰ بِذِكْرِ اسْمِ اللهِ تَعَالَىٰ[(٤)].

وَإِذَا فَرَغْتَ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، فَاحْمَدِ اللهَ الَّذِي أَطْعَمَكَ وَسَقَاكَ[(٥)].

---

(١) قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العَبُّ: شُرب الماء دفعَة واحِدَة مِن غير مَصٍّ ولا تَنفُّس».

(٢) يُشير رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ حديثٍ رُوِيَ فيه هَذَا الوَصْف حَال الشُّرب، ولفظه: «إِذَا شَرِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَمُصَّ مَصًّا، وَلَا يَعُبُّ عَبًّا فَإِنَّ الْكِبَادَ مِنَ الْعَبِّ»، وهو حديث ضعيفٌ جدًّا، أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (١٩٥٩٤)، والبيهقي في «السنن الكبرىٰ» (١٤٦٥٩)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ١١٦)، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٢٣٢٣).

(٣) في «ق»: [تفصيل]، وهو خطأ.

(٤) وهذا مِن السُّنة التي يُؤجَر عليها العَبدُ، وهي سُنة غائبة عن كثيرين اليوم! وَقد ثبتَتْ بفِعْلِه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أنَّه «كَانَ يَشْرَبُ فِي ثَلَاثَةِ أَنْفَاسٍ، إِذَا أَدْنَىٰ الْإِنَاءَ إِلَىٰ فِيهِ سَمَّىٰ اللهَ، فَإِذَا أَخَّرَهُ حَمِدَ اللهَ، يَفْعَلُ بِهِ ثَلَاث مَرَّاتٍ»، أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٤٠)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٧٧).

(٥) وكيفِيَّة الحَمْدِ: بَعْدَ الطَّعام والشَّرَاب أنْ يَقُول المُسْلِمُ: «الْحَمْدُ للهِ»، كما صحَّت الأحاديث بهذه الصيغة.

أمَّا قول البعض: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنَا وَسَقَانَا وَجَعَلَنَا مُسْلِمِينَ»، فضعيف لم يصح عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد أخرجه أبو داود (٣٨٥٠)، وابن ماجه (٣٢٨٣)، وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» (٨٢٩).

=

وَاشْكُرْهُ عَلَىٰ نِعَمِهِ الَّتِي لَا يُحْصِيهَا الْعَدُّ.

وَاللهُ يَتَوَلَّىٰ هِدَايَتَكَ وَإِرْشَادَكَ.

***

= ومِن السُّنن المهجورة: أن يقول المسلم بعد الفرَاغ مِن طعَامِه: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي وَلَا قُوَّةٍ»، فإذا قال هذا كان جزاؤه: «غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»، أخرجه الترمذي (٣٤٥٨)، وابن ماجه (٣٢٨٥)، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٦٥٦).



الدَّرْسُ الحَادِيَ عَشَرَ
فِي آدَابِ العِبَادَةِ وَآدَابِ المَسَاجِدِ

يَا بُنَيَّ: إِيَّاكَ وَالتَّفْرِيطَ فِي عِبَادَةِ رَبِّكَ، فَإِنَّهُ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨][(١)].

---

(١) قال إبرَاهِيمُ بن بشَّار: «ولَمْ يَقُلْ: ومَا خلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْمُروا الدُّنيا، وَيَجمَعُوا الأموَالَ، ويبنُوا الدُّورَ، وَيُشِيدُوا القصُورَ، ويتَلذَّذُون ويَتفكَّهُون»، أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٤٠).

وقال أبو القَاسم الجُنَيْد: «فَأَلْزَمهُم دوَام عِبَادَتِه؛ وَضَمِنَ لَهُم علَيهَا فِي الْعَاجِلِ الكِفَايَةَ، وَفِي الْأُخْرَىٰ جَزِيلَ الثَّوَابِ»، أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٧١).

وقَال البخاري، أي: «مَا خَلَقْتُ أَهْلَ السَّعَادَةِ مِنْ أَهْلِ الْفَرِيقَيْنِ إِلَّا لِيُوَحِّدُونِ». «الصحيح» (٦/ ١٣٩).

وذَكَر ابنُ بَطَّة هذه الآية، وقال: «فإنَّه جمَع في هَذِه الآية القَوْلَ، والعمَل، والإخْلَاص، والطَّاعةَ لعِبَادتِهِ وطاعَتِهِ، والإيمَانَ بِهِ وبكتُبِه ورُسُلِه، وما كانُوا عليه مِن عبادة الله وطاعَتِه، فهَلْ للعِبَادة الَّتِي خلَقَ الله العِبَادَ لهَا عمَلٌ غير عمَلٍ مِن الإيمان؟ فالعِبَادةُ مِن الإيمان هي أو مِن غير الإيمَان؟ فلو كانَتِ العِبَادَةُ الَّتِي خلقَهُم الله لهَا قولًا بغَيْرِ عمَلٍ؛ لَمَا أسْمَاها عبادة، ولسَمَّاها قولًا، ولقَال: (ومَا خلَقتُ الجن والإنس إلَّا ليَقولُون)، وليْسَ يَشُكُّ العُقلَاء أنَّ العِبَادة خِدْمَة، وأنَّ الخِدمَةَ عمَل، وأنَّ العَامِلَ مَع الله عَزَّوَجَلَّ إنَّما =

يَا بُنَيَّ: كُنْ حَرِيصًا عَلَىٰ أَدَاءِ الصَّلَاةِ المَفْرُوضَةِ فِي وَقْتِهَا مَعَ الجَمَاعَةِ.

فَإِذَا اقْتَرَبَ الوَقْتُ فَبَادِرْ إِلَىٰ الوُضُوءِ(١)، وَلَا تُزَاحِمْ أَحَدًا فِي طَرِيقِكَ، وَلَا تُسْرِفْ فِي اسْتِعْمَالِ المَاءِ(٢).

= عمَله أداءُ الفَرائضِ، واجتِنَابُ المَحارم، وطَاعةُ اللهِ فِيمَا أَمَر بِهِ مِن شَرائع الدِّين وأداء الفرائض». اهـ من «الإبانة الكبرىٰ» (٢/ ٧٩٢).

وقال الألبانِيُّ معلقًا علىٰ هَذِه الآية: «فإنَّ الله - تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ - قد أخبرَنا عن الحِكْمَة الَّتِي مِن أجْلِهَا خَلَق آدمَ وذُرِّيَّته...، فكُلُّ مَا خالَفَ هَذِه الحِكْمَة، أو زَادَ علَيْهَا؛ لَا يُقبَل إلَّا بنَصٍّ صَحِيحٍ عن المَعْصُومِ صلىٰ الله عليه وآله وسلم»، انظر: «التوسل» (ص١١٦).

(١) وذلك كَيْ تُبَكِّرَ إِلَىٰ الصَّلاة علىٰ وقتها في المَسْجد، وقد كانت للسَّلف أحوالٌ عجِيبَةٌ تَفضَح أحوَال النَّاس اليوم، بل تَفْضَح أحوالَ كثير مِمَّن تسمَّوا بطُلَّاب عِلْم! مِنْ أحْوَالِهم علَىٰ سَبيل المِثَال، لا الحَصْر:

قال سُفيانُ الثَّورِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَجِيئُكَ إِلَىٰ الصَّلاةِ قَبل الإقَامةِ؛ تَوْقِيرٌ لِلصَّلَاة»، «فتح الباري» لابن رجب (٣/ ٥٣٣).

وكَان وكِيعُ بْنُ الجرَّاح رَحِمَهُ ٱللَّهُ يَقُول: «مَن لَمْ يُدرِك التَّكبِيرَة الأُولَىٰ؛ فَلا تَرْجُ خَيْـرَه»، «شُعَب الإِيمَان» للبيهقي (٣/ ٧٤).

وقال سُفيَانُ بنُ عُيَيْنَة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَا تَكُن مِثْل عَبْدِ السُّوء؛ لَا يَأْتِي حَتَّىٰ يُدْعَىٰ»، «التبصرة» لابن الجَوْزي (١/ ١٠٧).

(٢) نهىٰ اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ورسولُه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن الإسراف، وكان النبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يُسرف في كلِّ أحوَاله، حتىٰ في وضوئه واغتساله، فقد كان يتوضَّأ بالمُدِّ [وهو مكيال قديم بمقدار نصف لِتْر اليوم تقريبًا]، ويَغْتَسِل بالصَّاع [ويساوي أربعة أمداد، أيْ لِتْرَيْن =



= تقريبًا]؛ وذلك حرصًا منه -عليه الصلاة والسلام- علَىٰ عَدَم الإسراف، وَحِفظًا لِنِعْمَةِ الله عَزَّوَجَلَّ «الماء»، هذه النِّعمة المُهدَرَة، التي صار لا يَعْرِف قدرها كثيرٌ مِن أهل زماننا، والله المستعان.

ولك أن تعلم -أرشدك الله للحق- أنَّ العالَم الَّذِي نَعِيشُ فيه مقبلٌ علَىٰ مَوْجَة فقرٍ مائيٍّ تُهدِّد مظاهر الحياة، وهذا ما أثبتَتْهُ عِدَّة دراسات عالمية حول العالَم، وأثبتوا أن بليونًا من سكان العالم لا يعرفون الماء النقي! ومليارًا في الدول النَّامية يعانون مِن نَقْصٍ في مياه الشُّرب، وأكَّدَتْ عِدَّة تقارير أنَّ (٨٠٪) مِن أمراض سكان العالم بسبب المياة المُلوَّثة.. وذلك عقاب الله لعدم المحافظة علَىٰ هذه النعمة، انظر: «البيئة، مشاكلها وقضاياها» لمحمد عبد القادر الفقي، ط. «الهيئة المصرية العامة للكتاب» - القاهرة.

وقد سبَقَ الإسلَامُ بتَوْجِيهَاته وأوَامِره، التي تَمثَّلت في قوله تعالىٰ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾، وتمَثَّلَتْ تَوْجِيهاتُ النبيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في حِرْصِهِ علَىٰ مُتابعَة أصحابه رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ، وتَوْجِيهِهِمْ لتَرْشِيد استهلاك هذه النِّعمَة.

فعَنْ عبدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «أنَّ النبيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مَرَّ بِسَعْدٍ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ، فَقَالَ: «**مَا هَذَا السَّرَفُ يَا سَعْدُ؟**»، قَالَ: أَفِي الْوُضُوءِ سَرَفٌ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَىٰ نَهْرٍ جَارٍ**»، أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٢٢١) (٧٠٦٥)، وابن ماجه (٤٢٥)، وهو حديث صححه العلَّامة أحمد شاكر في تعليقه علىٰ «المسند» (٦/ ٤٨١)، وحسَّنه الألبانيُّ بعد رجوعه عن تضعيفه، انظر تفصيل قوله في: «السلسلة الصحيحة» (١٣/ ٩٥).

فالمؤمن -علىٰ كل حال- مأمورٌ بالاقتِصَاد، ومنهيٌّ عن الإسراف في كل شيء؛ حتَّىٰ في عباداته.. ألَا فلنحمد الله عَزَّوَجَلَّ علىٰ ما نحن فيه، ولنحافظ علىٰ الخير الذي بأيدينَا، ونشكُر ولا نكفُر؛ فاللهُ تعالىٰ القائل: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾؛ فنسأله ألَّا يُعَذِّبنا بنقص الماء وتلوثه.

فَإِذَا دَخَلَ الوَقْتُ، وَأَذَّنَ المُؤَذِّنُ؛ فَاسْتَقْبِلِ القِبْلَةَ، وَصَلِّ السُّنَّةَ القَبْلِيَّةَ(١)، وَاجْلِسْ بِسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ حَتَّىٰ تُقَامَ الصَّلَاةُ(٢)؛ فَصَلِّ مَعَ الجَمَاعَةِ بِخُشُوعٍ وَخُضُوعٍ.

---

(١) سيأتي إن شاء الله.

(٢) ويُستحبُّ الدُّعَاء في هَذَا الوقتِ خُصُوصًا؛ فإنه -بحمد الله- مُجاب، كما أخرج الترمذي (٢١٢) عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الدُّعَاءُ لَا يُرَدُّ بَيْنَ الأَذَانِ وَالإِقَامَةِ**»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٤٠٨).

فائدة: وقت الإجابة هُنا لَيْسَ مُقَيَّدًا بالمسجد، أي غير قاصِر علَىٰ مَن فيه، بل يُستحَب لِلمَرأة أنْ تَدْعُوَ في هذا الوقت وإنْ كانَت في بيتها، ولِغَيرهَا أيضًا مِن الرِّجَال مِمَّن حبَسَهُم العُذْرُ عن دُخُولِ المَسْجد -فعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ فُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَاسْتُجِيبَ الدُّعَاءُ**»، أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٣٤٢) (١٤٧٣٠)، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٦٠)، و«**ثُوِّبَ**»، أي دُعِيَ.

قال سِيبَوَيه رَحِمَهُ اللَّهُ: «ثابَ النَّاسُ إِذَا اجتمَعُوا وجَاؤُوا»، «مختار الصحاح» للرازي (ص٩٠).

وقال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «والأصل في التَّثْويب: أن يجيء الرجُل مُسْتَصْرِخًا، فيُلَوِّح بثوبه لِيُرَىٰ ويشتهر؛ فسُمِّي الدعاء تَثْوِيبًا لذلك -وكلُّ داعٍ مُثَوِّبٌ. وقيل: إنَّما سُمِّي تَثْوِيبًا مِن: ثابَ يَثُوب إذا رجع؛ فهو رُجُوع إلىٰ الأمر بالمُبادرة إلىٰ الصَّلَاة، وأنَّ المُؤذِّن إذا قال: «حيَّ علىٰ الصَّلاة» فقد دعاهم إليها»، انظر: «النهاية» (١/ ٦٥٩).

وظاهر الحديث أنَّ هذَا وقتٌ مِن أوقات إجابة الدُّعاء؛ لأجل خصُوصِيَّة الوقت، لا للتَّواجُد في المسجد فحسب.

ولهَذَا قال الشَّوكانِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحَدِيثُ يَدُلُّ علَىٰ قَبُول مُطلَق الدُّعاءِ بَيْنَ الأَذَانِ وَالإِقَامة»، «نَيْل الأَوْطَار» (٢/ ٤٠).

=

وَاعْلَمْ أَنَّكَ فِي حَالِ الصَّلَاةِ تُنَاجِي رَبَّكَ وَأَنْتَ وَاقِفٌ بَيْنَ يَدَيْهِ(١)، فَإِيَّاكَ وَهَوَاجِسَ الشَّيْطَانِ(٢)، وَإِيَّاكَ وَالتَّضَاحُكَ فِي حَضْرَةِ مَوْلَاكَ، وَإِيَّاكَ وَاشْتِغَالَ القَلْبِ بِغَيْرِ مُنَاجَاةِ الرَّحْمَنِ.

يَا بُنَيَّ: إِذَا فَرَغْتَ مِنَ الصَّلَاةِ المَفْرُوضَةِ؛ فَصَلِّ السُّنَّةَ البَعْدِيَّةَ(٣)، وَادْعُ اللهَ

= وَقَال البُهوتِي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويَتحَرَّىٰ أَوْقَاتِ الإجابَة، وهي: الثُّلث الأَخِير مِن اللَّيل، وعِندَ الأَذَانِ والإقامَة»، انظر: «كشاف الإقناع في شرح متن الإقناع» (١/ ٣٦٨).

(١) قال الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ: «روىٰ الحاكم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «**إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ يُصَلِّي إِنَّمَا يُنَاجِي رَبَّهُ؛ فَلْيَنْظُرْ كَيْفَ يُنَاجِي**».

قلت: أخرجه الحاكم (٨٦١)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٥٣٨)، وفي رواية لأحمد في «المسند» (١/ ٢٩١) (١٤١٣١): «**فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ عَزَّوَجَلَّ؛ فَلَا يَتْفُلَنَّ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَا عَنْ يَمِينِهِ، وَلْيَتْفُلْ عَنْ يَسَارِهِ تَحْتَ قَدَمِهِ**»، وهي علىٰ شرط الشيخين.

(٢) لَاشَكَّ أنَّ كثيرًا مِنَّا تأتِي له تِلْك الهوَاجس، فيُوَسْوِسُ له الشَّيطان، ويُذكِّره بما كان ناسيًا، أو يُمَنِّيه في أحلَام يقظَة، أو يُلَبِّس عليه صلَاته ويُشكِّكه، وهَذَا لَيْسَ غريبًا، فقد أخرج مسلم في «صحيحه» (٢٢٠٣): «أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ أَبِي الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَتَىٰ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وَقِرَاءَتِي؛ يَلْبِسُهَا عَلَيَّ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خَنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِاللهِ مِنْهُ، وَاتْفِلْ عَلَىٰ يَسَارِكَ ثَلَاثًا**»، قَالَ: فَفَعَلْتُ ذَلِكَ؛ فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّي»؛ فاقتَدِ بالصَّحابِيِّ الكَرِيم عُثمَان وتيَقَّظ! وَخُذ بنصيحة النبيِّ –عليه الصلاة والسلام–؛ تَسْعَد بصَلَاتِك.

(٣) للصَّلوَات الخَمْس المَفْرُوضَات صلواتٌ أُخرىٰ نافِلَات، تَجْبُرهَا وتُكمِلهَا، وهي الرَّواتب المُستحبات، منها القَبْلِيَّة، والبَعدِيَّة، ومَعَ أَنَّها غير مَفروضَات، إلَّا أنها سببٌ =

بِمَا تَـيَسَّرَ مِنْ صَالِحِ الدَّعَوَاتِ[(١)]، وَاسْتَغْفِرْ رَبَّكَ كَثِيرًا، وَاسْأَلْهُ الفَتْحَ، فَإِنَّهُ هُوَ الفَتَّاحُ العَلِيمُ.

يَا بُنَيَّ: إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ لَا تَجْلِسَ فِي المَسْجِدِ إِلَّا وَأَنْتَ عَلَىٰ وُضُوءٍ فَافْعَلْ،

= رئيس في قُرب العبد مِن ربِّه، وحُب الله له، فَهُو القائل عَزَّوَجَلَّ في الحديث القدسي، الذي أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦٥٠٢): «**وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ**».

وكان النَّبيُّ الأكرم صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يُواظِب علَيْهنَّ، وهُنَّ ثِنتَي عشرة ركعة في اليوم والليلة، بل حَثَّ أُمَّته علَيْهِنَّ؛ لِمَا لهُنَّ مِن فضلٍ عظيم عند الله؛ فعَنْ أمِّ حَبِيبةَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، قَالَت: قال رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَنْ صَلَّىٰ فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً؛ بُنِيَ لَهُ بَيْتٌ فِي الجَنَّةِ: أَرْبَعًا قَبْلَ الظُّهْرِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَهَا، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ المَغْرِبِ، وَرَكْعَتَيْنِ بَعْدَ العِشَاءِ، وَرَكْعَتَيْنِ قَبْلَ صَلَاةِ الفَجْرِ**»، أخرجه الترمذي (٤١٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٣٤٧).

وبجانب أنها تجلب محبة الله سبحانه، وتُسكِن العبد الجنات، فهي أيضًا تُكمِل النقص الذي يحصل في المفروضات الخمس، كما أخرج الترمذي (٤١٣) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلُحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ، قَالَ الرَّبُّ عَزَّوَجَلَّ: انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَيُكَمَّلَ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَىٰ ذَلِكَ**»، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٤٠).

(١) علَىٰ ألَّا يَلْزَم الدُّعاء بَعْدَ النَّوافِل؛ لأنَّه لم يَرِد -فيما أعلم، والله أعلم- دليلًا علَىٰ هذَا التَّخصِيص.

فَإِنَّ الْمَسَاجِدَ بُيُوتُ اللهِ، وَلَيْسَ مِنَ الأَدَبِ أَنْ تَدْخُلَ بَيْتَ رَبِّكَ وَأَنْتَ عَلَىٰ غَيْرِ اسْتِعْدَادٍ لِعِبَادَتِهِ(١).

---

(١) من العبادات التي كادت أنْ تُنسَىٰ، «المكث في المساجد» لغَير الصَّلاة، فإما أن يكون مُبتلًىٰ بمسجد لا يفتح إلَّا للصَّلوات، وإمَّا أن يكون هو نفسه لا يذهب، ويَقْضِي فراغه أمام تِلْفاز، أو مَقْهىٰ، أو مع أصحاب، أو غير ذلك مِن الشَّواغل غير المُهِمَّة، ويظل غافلًا عمُره عن هذه العبادة الكريمة، التي لها فضائل عظيمة، فجدير بكل مسلم السَّعي لاقتِنَاصِهَا.

ومِن فَوائد المُكث في المَسَاجد:

- أنَّه مِن علَامات الإيمان بالله، وخَشْيَته، وأنه يُحقِّق هداية الله للعبد، فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ١٨﴾.

- أنه نجاة للعبد من أهوال القيامة؛ وَإظلَالٌ له في ظلِّ عرش الرَّحمن -جل جلاله-، يوم لا ظل إلَّا ظله، فقد أخرج البخاري (٦٦٠) عن أبِي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عَنِ النَّبيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ**»، وذَكَر منهم: «**وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ**»، مَا أنْ يَخرُج إلَّا وَأرَادَ أنْ يَعُود، فجسَدُه خارجٌ وقَلْبه بالدَّاخِل، ويتَمنَّىٰ أنْ ينتهي مِن كل أعماله خارِجَةً ليأوي إليه، كما تأوي السمكة إلىٰ مائها!

- أنه مُجاوِرٌ لِرَبِّ العَالَمِين يوم القيامة، كما أخرج الحارث في «مسنده» (١/ ٢٥١)، بسنِدٍ جيِّد كما قال الألباني في «الصحيحة» (٢٧٢٨)، عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ لَيُنَادِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ: «أَيْنَ جِيرَانِي، أَيْنَ جِيرَانِي؟»، قَالَ: فَتَقُولُ المَلَائِكَةُ: رَبَّنَا! وَمَنْ يَنْبَغِي أَنْ يُجَاوِرَكَ؟ فَيَقُولُ: أَيْنَ عُمَّارُ الْمَسَاجِدِ؟**».

- أنه في أَحَبِّ الأماكن إلىٰ الله، كما عند مسلم (٦٧١)، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنَّ =

يَا بُنَيَّ: إِنَّ عَامَّةَ الْمُسْلِمِينَ يَنْظُرُونَ إِلَىٰ طَلَبَةِ العِلْمِ الشَّرِيفِ نَظَرَ الاحْتِرَامِ، وَيَسْتَعْظِمُونَ كُلَّ صَغِيرَةٍ تَقَعُ مِنْهُم؛ فَإِيَّاكَ -يَا بُنَيَّ- أَنْ تُسَلِّطَ أَلْسِنَةَ العَامَّةِ عَلَىٰ نَفْسِكَ:

= رسول اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَىٰ اللهِ مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَىٰ اللهِ أَسْوَاقُهَا».

- أنَّ الملائكة تدعو له مادام في المسجد، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَال: «المَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَىٰ أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ الَّذِي صَلَّىٰ فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ»، أخرجه البخاري (٤٤٥)، وهذا يؤكد نصيحة الشيخ رَحِمَهُ اللهُ بملازمة الوضوء داخل المسجد من باب التأدب مع الله تعالىٰ، وأضيف أنه سببٌ لِنَيْلِ استِغفَار المَلائكَةِ ودَعَائِهِم.

- أنَّه نَوْعٌ مِن الجِهَاد [جهاد النَّفس]، والمُرابطة في سبيل الله؛ لتربيتها علىٰ الطاعة، وجهادها في انتظار الصَّلوات، والبُعد عن ملاذِّ الدُّنيا وزَخارِفهَا، فإنَّ مَن لم يستطع جهاد نفسه؛ كيف يجاهد عَدُوَّه؟! ومَن لم يصبر علىٰ المُرابطة في المَسْجِد ذي المِروحات والمِكْيِـفَات؛ فأنَّىٰ له المُرابطَة علَىٰ الثُّغور، تحت الشمس المحرقة، وفي الليل البَهيم؟!

عن أَبِي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟»، قَالُوا: بَلَىٰ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَىٰ الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَىٰ الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ»، أخرجه مسلم (٢٥١).

وبعدُ، فكيف لعاقل أنْ يَتْرك كُلَّ هَذِه الفضائل العَظِيمة لشهوةٍ، أو أكلةٍ، أو صاحبٍ، أو مُتعةٍ، أو أيِّ شاغلٍ؟! فَاغتَنِمْ!

لَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ فِي المَسْجِدِ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ العَامِيِّ قَبِيحٌ، وَهُوَ مِنْ طَلَبَةِ العِلْمِ الشَّرِيفِ أَقْبَحُ وَأَشَدُّ نُكْرًا.

وَلَا تُخَاصِمْ أَحَدًا مِنْ إِخْوَانِكَ، وَلَا تُنَازِعْهُ.

وَلَا تُضَيِّقْ عَلَىٰ مُسْلِمٍ يُرِيدُ أَنْ يَتَعَبَّدَ فِي بَيْتِ مَوْلَاهُ.

يَا بُنَيَّ: إِنَّ العَامِيَّ إِذَا دَخَلَ المَسْجِدَ، فَالأَجْدَرُ بِكَ وَبِهِ أَنْ يَتَعَلَّمَ مِنْكَ الأَدَبَ وَالخُشُوعَ، لَا أَنْ تُسِيءَ الأَدَبَ؛ فَيَتَوَلَّىٰ نُصْحَكَ وَإِرْشَادَكَ.

فَيَا بُنَيَّ: لَا تُضَيِّعْ شَرَفَ العِلْمِ بِإِسَاءَةِ الأَدَبِ فِي بُيُوتِ اللهِ، وَلَا تُسَلِّطْ أَلْسِنَةَ العَامَّةِ عَلَىٰ إِخْوَانِكَ.

وَإِذَا رَأَيْتَ مِنْ أَحَدِ المُصَلِّينَ شَيْئًا تَكْرَهُهُ؛ فَعَامِلْهُ بِالإِحْسَانِ وَاللُّطْفِ، وَإِذَا شِئْتَ أَنْ تُرْشِدَهُ إِلَىٰ حُكْمٍ شَرْعِيٍّ؛ فَلَا تُغْلِظْ عَلَيْهِ القَوْلَ، وَلَا تُنَفِّرْهُ مِنَ التَّفَقُّهِ فِي الدِّينِ(١)، وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

---

(١) وَلكَ فِي رسُولِ الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُسوةٌ حسَنة، فَفِي نظَري، ونظَرِكَ، ونظَرِ سائر النَّاس: لَا نَرَىٰ أَشْنعَ مِن أَنْ يَبُولَ رَجلٌ في بَيْتِ اللهِ الطَّاهِر! ومَاذَا يُمكِن أَنْ نَفعل إزاء هذَا؟ إلَّا أنَّ رَسُول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان له موقف لم يتوقعه أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ!
فعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ أَعْرَابِيًّا بَالَ فِي المَسْجِدِ، فَثَارَ إِلَيْهِ النَّاسُ [أي: هاجُوا عليه] لِيَقَعُوا بِهِ [أي: يضربوه]، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَعُوهُ، وَأَهْرِيقُوا عَلَىٰ بَوْلِهِ ذَنُوبًا مِنْ مَاءٍ، أَوْ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ، فَإِنَّمَا بُعِثْتُمْ مُيَسِّرِينَ، وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**»، فما بالك بمَن يَفْعَل أدْنَىٰ مِن هَذَا وأيْسَر؛ أفنغلظ عليه؟!

الدَّرْسُ الثَّانِي عَشَرَ
فِي فَضِيلَةِ الصِّدْقِ

يَا بُنَيَّ: احْرِصْ عَلَىٰ أَنْ تَكُونَ صَادِقًا فِي كُلِّ مَا تُحَدِّثُ بِهِ غَيْرَكَ حِرْصَكَ عَلَىٰ نَفْسِكَ وَمَالِكَ؛ فَإِنَّ الكَذِبَ شَرُّ النَّقَائِصِ وَالمَعَايِبِ(١).

وَاحْذَرْ -يا بُنَيَّ- أَنْ تَشْتَهِرَ بَيْنَ إِخْوَانِكَ وَأَسَاتِذَتِكَ بِالكَذِبِ، فَلَا يُصَدِّقُكَ أَحَدٌ فِيمَا تَقُولُ وَإِنْ كَانَ حَقًّا.

يَا بُنَيَّ: إِذَا فَعَلْتَ أَمْرًا تَسْتَحِقُّ عَلَيهِ عُقُوبَةً مِنْ أُسْتَاذِكَ؛ فَلَا تَكْذِبْ عَلَيهِ إِذَا سَأَلَكَ، وَلَا تُحَاوِلْ إِلْصَاقَ الذَّنْبِ بِأَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِكَ، فَرُبَّمَا قَامَ البُرْهَانُ عَلَىٰ كَذِبِكَ؛ فَتَسْتَحِقَّ(٢) العُقُوبَةَ مُضَاعَفَةً:

عُقُوبَةَ الذَّنْبِ - وَعُقُوبَةَ الكَذِبِ.

---

(١) بل هو مِن الكبَائر، وصِفةُ إبْلِيسَ الطَّرِيدِ البَائِر، وسائرِ الشَّياطين وكُلِّ منافقٍ خاسِر، وقائدٌ صاحِبَهُ إلىٰ النَّار، وهو مذمومٌ علَىٰ كلِّ حال، جدًّا وهزلًا، وضَحِكًا ومَزْحًا؛ أعاذنا الله وإياك.

(٢) في «ق»: [فتستحقُّ] بالضم، والوجهان جائزان إذَا اسْتأنفَ بها من قوله: «فَرُبَّمَا».

وَهَيْهَاتَ[(١)] أَنْ تُنْجِيَكَ هَذِهِ العُقُوبَةُ مِنْ[(٢)] عُقُوبَةِ رَبِّكَ الَّذِي يَعْلَمُ مَا تُكِنُّهُ فِي صَدْرِكَ.

يَا بُنَيَّ: إِنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- قَدْ لَعَنَ الكَاذِبِينَ فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ[(٣)]، فَهَلْ تَرْضَىٰ أَنْ تَكُونَ مَلْعُونًا عِنْدَ اللهِ وَأَنْتَ مِنْ طَلَبَةِ العُلُومِ الدِّينِيَّةِ؟

يَا بُنَيَّ: إِذَا كَذَبْتَ مَرَّةً وَنَجَوْتَ حَيْثُ لَا يُوجَدُ شَاهِدٌ عَلَيْكَ؛ فَقَلَّمَا تَنْجُو فِي غَيْرِهَا إِذَا ظَهَرَ كَذِبُكَ بِشَهَادَةِ مَنْ رَآكَ.

يَا بُنَيَّ: إِذَا لَمْ تَخَفْ مِنَ النَّاسِ إِذَا كَذَبْتَ عَلَيْهِمْ، أَفلَا[(٤)] تَخَافُ مِنْ مَوْلَاكَ الَّذِي يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ؟

يَا بُنَيَّ: إِذَا كَذَبَ المَرْءُ مَرَّةً؛ تَعَوَّدَ لِسَانُهُ الكَذِبَ، فَلَا يَكَادُ يَصْدُقُ فِي

---

(١) «هَيْهَاتَ»: كلمةٌ عربيَّةٌ فصيحةٌ علَىٰ معنىٰ: بَعُدَ، وفيها لغاتٌ عند العَرَب تزيد علَىٰ الأربعين، منها: «هيهات – أيهاتَ – هيهانَ – أيهانَ – هيهاه – أيْهَاه – هيهه»، وأشهرها: «هيهاتَ» المتواترة في القرآن الكريم، عند قوله تعالىٰ: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦﴾.

(٢) في «ق»: [عن]، وهو خطأ.

(٣) قال الله تعالىٰ: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٦١﴾، وقال: ﴿وَٱلْخَـٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٧﴾.

(٤) في «ع»: [ألَا].

حَدِيثٍ، وَلَا فِي مَقَالٍ؛ فَاحْرِصْ كُلَّ الحِرْصِ عَلَىٰ تَحَرِّي الصِّدْقِ[١] فِيمَا يَجْرِي عَلَىٰ لِسَانِكَ.

وَإِيَّاكَ أَنْ تَقَعَ فِي أُكْذُوبَةٍ وَلَوْ كَانَ فِيهَا ذَهَابُ نَفْسِكَ.

يَا بُنَيَّ: هَذِهِ[٢] وَصِيَّتِي لَكَ.

فَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الصِّدْقِ كَمَا هُوَ شَأْنُ طَلَبَةِ العِلْمِ الشَّرِيفِ؛ فَعَاهِدْنِي عَلَىٰ أَلَّا تَكْذِبَ فِي حَدِيثٍ قَطُّ.

وَقُلْ: «عَلَيَّ عَهْدُ اللهِ وَمِيثَاقُهُ أَلَّا أَكْذِبَ عَلَىٰ أَحَدٍ مَا عِشْتُ»[٣].

---

(١) في «ق»: [الصدقِ] بالكسر، وهو خطأ.

(٢) في «ق»: [هَذِهِ هِيَ].

(٣) واحْذَرْ -رعاك الله- أشدَّ الحَذَر أنْ تُخْلِفَ عهدك مع الله، فمَا دُمتَ عاهدتَ الله تعالىٰ؛ فوَجَب عليك التِزَام هذَا العهد؛ لأنه أشبه بالنَّذْر، وقِيل هو يَمِين؛ علىٰ خلافٍ عند أهل العِلْم في صيغة: «أعاهد الله، أو عليَّ عهد الله...».

فذهب الأحناف إلىٰ أنها مِن الأيْمَان كما في «الاختيار لتعليل المختار»، (كتاب الأيمان)؛ لأنَّ اليمينَ عهدٌ بفِعْل أو عدَم فِعْل، وهو قولٌ للمالكية كما في «مختصر خليل».

أمَّا الحنَابلة فقولهم في «المُغْنِي»، وكذا الشَّافعية في «تحفة المحتاج» أنَّها يمينٌ بالنِّية.

وذهب الجصَّاص في «أحكام القرآن» إلىٰ أنَّها تَدْخُل في النَّذْر.

وذهب شيخ الإسلام إلىٰ أنها تارة تكون يمينًا، وتارةً تكون نذرًا ويمينًا، فقال: «والعقود مُتقَاربة المعنىٰ أو مُتَّفِقَة، فإذا قال: «أعاهد الله أنِّي أَحُجُّ العام»؛ فهو نَذْرٌ وعَهدٌ ويَمِينٌ،

وَسَتُظْهِرُ لَنَا الأَيَّامُ مِقْدَارَ احْتِفَاظِكَ بِهَذَا العَهْدِ الَّذِي عَاهَدْتَ اللهَ عَلَيهِ بَيْنَ يَدَيْ أُسْتَاذِكَ، وَأَمَامَ إِخْوَانِكَ.

يَا بُنَيَّ: إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ مِمَّنْ لَا خَلَاقَ لَهُمْ(١) يَتَّخِذُونَ الكَذِبَ مُزَاحًا، فَاحْذَرْ أَنْ تَكْذِبَ عَلَىٰ النَّاسِ، حَتَّىٰ إِذَا سُئِلْتَ قُلْتَ:

إِنَّمَا كُنْتُ مَازِحًا!

فَلَا تَكْذِبْ فِي جِدٍّ وَلَا فِي هَزْلٍ، وَلَا تُعَوِّدْ لِسَانَكَ عَلَىٰ غَيْرِ الحَقِّ وَالصِّدْقِ(٢).

= وإنْ قال: «لا أكلم زيدًا»؛ فيَمِينٌ وعهدٌ لا نَذْر؛ فالأيمان تضَمَّنَتْ معنَىٰ النذر، وهو: **أن يلتزم للهِ قُربةً لَزِمَهُ الوفاء، وهي عقدٌ وعَهدٌ ومُعاهدةٌ لله؛ لأنه الْتَزَمَ لله ما يطلبه الله منه**»، انظر: «الفتاوىٰ الكبرىٰ» (٥/ ٥٥٢).

(١) «**لا خَلَاقَ لَهُم**»، أي: لَا نَصِيبَ لَهُم في الخير والصِّفات الحَمِيدَة.

(٢) فالكَذبُ مُحرَّم حتَّىٰ في المزَاح كما تقدَّم؛ وذلك لِمَا أخرجه أبو داود (٤٩٩٠)، والترمذي (٢٣١٥)، عن بَهْز بن حكيم، قال: حدَّثني أَبِي، عن أبيه، قال: سمِعتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ؛ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ، وَيْلٌ لَهُ، وَيْلٌ لَهُ**»، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٩٤٤).

ويَدخُل في هذَا الوَعِيد الشَّديد:

١- المزَاح بما يُسميه النَّاس «النُّكَت».

٢- تمثيل الأفلام، والمسرحيات، والمسلسلات وغيرها.

حيث إنها حكايات غير حَقِيقيَّة، أو مَخلُوطة بين الخيالِ والوَاقعِيَّة؛ بغرَض إدْخَال الضَّحِك علَىٰ السَّامع، وقد يُبـرِّرُ أصحابُ هذه الطُّرَف أفعالَهم بأنَّهم يُريدون الخير بإسعاد النَّاس، وإدخال السُّرور عليهم؛ ولكن هذا فهمٌ مغلوط؛ لأنهم غاب عنهم أمرَان مُهِمَّان: =

وَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي يُعْرَفُ بِالصِّدْقِ بَيْنَ قَوْمِهِ وَعَشِيرَتِهِ وَإِخْوَانِهِ؛ يُؤْخَذُ قَوْلُهُ حُجَّةً بِلَا بُرْهَانٍ، وَيَكُونُ مَوْضِعَ عَدَالَةٍ عِنْدَ العَامَّةِ وَالخَاصَّةِ.

فَإِنْ كُنْتَ تُحِبُّ أَنْ تَكُونَ[(١)] مَوْثُوقًا بِكَ، فَاحْرِصْ عَلَىٰ أَنْ تَكُونَ صَادِقًا فِي كُلِّ مَا تُحَدِّثُ[(٢)]، وَاللهُ يَتَوَلَّىٰ هِدَايَتَكَ وَإِرْشَادَكَ إِلَىٰ الصَّوَابِ[(٣)].

= **الأوَّل**: أنَّ هذا نصٌّ صريحٌ يجب العمل به، ولا يُمكن تأويله في هذه الحال.

الثَّاني: نَسوا أنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يَمْزح ولا يقول إلَّا حقًّا.

فعن أَبِي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّكَ تُدَاعِبُنَا. قَالَ: «**إِنِّي لا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا**»، أخرجه الترمذي (١٩٩٠).

وفي رواية: «**إِنِّي وَإِنْ دَاعَبْتُكُمْ؛ فَلَا أَقُولُ إِلَّا حَقًّا**»، صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٥٠٩).

فإنْ فعَلْتَ هذا؛ فأبشر ببيت عظيم مِن بيوت الجنَّة، في وسطها! كمَا جاء عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي رَبَضِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْمِرَاءَ وَإِنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبَيْتٍ فِي وَسَطِ الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ وَإِنْ كَانَ مَازِحًا، وَبِبَيْتٍ فِي أَعْلَىٰ الْجَنَّةِ لِمَنْ حَسَّنَ خُلُقَهُ**»، أخرجه أبو داود (٤٨٠٠)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٢٧٣). فأَضْحِكْ مَن شئتَ ومَازِحْهُ؛ ولَا تَكْذِبْ!

(١) في «ق»: [فَإِنْ كُنْتَ أَنْ تَكُونَ]، وهو خطأ.

(٢) في «ق»: [يُحَدِّثُ] بالياء، وهو خطأ.

(٣) أثبت الشيخ عبد القادر في نسخته «ع» حاشيةً للمُصنِّف رَحِمَهُ اللهُ، سقطَت مِن النُّسخة القديمة «ق»، ثم علق عليها، والحاشية هي:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَىٰ الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَىٰ الْجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ، وَيَتَحَرَّىٰ الصِّدْقَ؛ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالكَذِبَ، فَإِنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إِلَىٰ الْفُجُورِ،** =

الدَّرْسُ الثَّالِثُ عَشَرَ
فِي فَضِيلَةِ الأَمَانَةِ

يَا بُنَيَّ: الأَمَانَةُ: مِنْ أَجْمَلِ مَا يَتَحَلَّىٰ بِهِ الإِنْسَانُ مِنَ الفَضَائِلِ[١].

وَضِدُّهَا الخِيَانَةُ[٢]، وَهِيَ: مِنْ أَقْبَحِ الرَّذَائِلِ الَّتِي تَشِينُ[٣] الإِنْسَانَ، وَتَحُطُّ مِنْ قَدْرِهِ.

= وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَىٰ النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّىٰ الكَذِبَ؛ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّابًا»، رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي.

قلت: أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).

(١) عرَّف أهل العِلْم الأمَانةَ بعِدَّة تعريفاتٍ ومَعَانٍ، منها:

قَوْل ابْنِ مَسْعُود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الأمانة: الصَّلَاة، والزَّكاة، والغُسل مِن الجنابة، والكيل في الميزان، والحديث، وأعْظَم مِن ذلك: الودائع»، أخرجه الخرائطي في «مكارم الأخلاق» (١٥٩).

وقال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ في «فيض القدير» (١/ ٢٨٨): «هي كلُّ حقٍّ لَزِمَكَ أداؤه وحِفْظُه».

وقال أبو البقاء الكفوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كُلُّ مَا يُؤتمَن عليه، كأموال، وحرم، وأسرار؛ فهو أمانة...، وكل ما افتُرِضَ علَىٰ العباد؛ فهو أمانة: كصَلَاةٍ، وزكَاة، وصِيَام، وأداء دَيْن، وأوْكدها: الودائع، وأوْكَد الودائع: كتم الأسْرَار»، انظر: «الكليات» (ص١٧٦، و١٨٧).

(٢) قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أكْذَب الكَذِب: الخِيَانة» أخرج نحوه البيهقي في «السنن الكبرىٰ» (١٣٠٠٩).

وقال المَاوردي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الدَّاعي إلىٰ الخيانة شيئان: المَهانة، وقِلَّة الأمانة، فإذا حسَمَهُما عن نفسه بما وصَفْتُ؛ ظهرت مُروءَتُه»، انظر: «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص٣٣٣).

(٣) أي: تَعِيبُه وتُقَبِّحُه.

الأَمَانَةُ -يَا بُنَيَّ-: حِلْيَةُ أَهْلِ الفَضْلِ، وَزِينَةُ أَهْلِ العِلْمِ، وَهِيَ مَعَ الصِّدْقِ مِنْ صِفَاتِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ[(١)].

فَيَا بُنَيَّ: كُنْ أَمِينًا، وَلَا تَخُنْ أَحَدًا فِي عِرْضٍ، وَلَا فِي مَالٍ، وَلَا فِي غَيْرِهِمَا، إِذَا ائْتَمَنَكَ أَحَدُ إِخْوَانِكَ عَلَىٰ مَالِهِ، فَلَا تَخُنْهُ، وَرُدَّهُ إِلَيْهِ بِمُجَرَّدِ طَلَبِهِ، وَإِذَا ائْتَمَنَكَ عَلَىٰ سِرِّهِ فَلَا تَخُنْهُ، وَلَا تُفْشِهِ إِلَىٰ أَصْدَقِ صَدِيقٍ لَكَ، وَأَعَزِّ عَزِيزٍ عِنْدَكَ.

يَا بُنَيَّ: إِنَّ لَكَ إِخْوَانًا يُشَارِكُونَكَ[(٢)] فِي المَسْكَنِ، وَلَهُمْ أَمْتِعَةٌ تَرَكُوهَا فِي مَسْكَنِهِمْ اتِّكَالًا عَلَىٰ أَمَانَتِكَ؛ فَلَا تَمْدُدْ يَدَكَ إِلَىٰ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ فِي غَيْبَتِهِمْ، وَلَا تُمَكِّنْ أَحَدًا مِنْ قُرْبَانِهَا إِذَا كُنْتَ حَاضِرًا وَهُمْ غَائِبُونَ.

---

(١) الأمانة صِفَة الرُّسل الكِرَام -عليهم الصَّلاة والسلام-؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ جعلَهُم أُمناءه في أرْضِه، حاملِينَ لشَرْعِه، مؤتَمَنين علَيْه، مُحافِظينَ عليه، مُبَلِّغين إياه كمَا تلقَّوه، وخُذْ أمثلةً:

قال الله عَزَّوَجَلَّ علَىٰ لِسَان نبيه هُود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾.

وقالَتْ الصَّالحة لأبيها الصَّالِح عن نبيِّ اللهِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾.

ولقَّبَت قريشٌ محمدًا رسُولَ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل البَعثة بالأمِين، والحق ما شهِدَتْ به الأعداءُ!

كذلك، الأمانة صفة الملَائكة المُكرَمِين، فقد وصف الله عَزَّوَجَلَّ جبريل بالأمِين في قوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾، وفي قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾﴾.

(٢) في «ق»: [يُشَارِكُونَ].

يَا بُنَيَّ: احْذَرْ أَنْ تَكُونَ مُتَّهَمًا بَيْنَ إِخْوَانِكَ بِالخِيَانَةِ، فَكُلَّمَا ضَاعَ مِنْهُمْ شَيءٌ اتَّهَمُوكَ بِهِ، وَنَسَبُوا إِلَيْكَ سَرِقَتَهُ وَإِنْ كُنْتَ بَرِيئًا.

يَا بُنَيَّ: كُنْ أَمِينًا فِي كُلِّ شَيءٍ، وَفِي كُلِّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِالخِيَانَةِ فِي عَظِيمٍ أَوْ حَقِيرٍ:

فَلَا تَفْتَحْ مَحْفَظَةَ أَخِيكَ، وَلَا صُنْدُوقَ أَمْتِعَتِهِ فِي غَيْبَتِهِ لِمُجَرَّدِ الاطِّلَاعِ عَلَىٰ مَا فِيهِمَا؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الخِيَانَةِ.

وَلَا تَتَجَسَّسْ عَلَىٰ إِخْوَانِكَ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الخِيَانَةِ.

وَلَا تُصْغِ بِأُذُنِكَ إِلَىٰ اثْنَيْنِ يَتَسَارَّانِ(١)؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الخِيَانَةِ.

وَلَا تَطَّلِعْ عَلَىٰ خِطَابٍ بِاسْمِ غَيْرِكَ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الخِيَانَةِ.

يَا بُنَيَّ: إِيَّاكَ وَالمُزَاحَ بِالخِيَانَةِ، فَلَا تَخْتَلِسْ مِنْ أَحَدِ إِخْوَانِكَ شَيئًا عَلَىٰ سَبِيلِ المُزَاحِ لِتَرُدَّهُ إِلَيهِ إِذَا تَفَقَّدَهُ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو إِلَىٰ سُوءِ الظَّنِّ بِكَ، وَاتِّهَامِكَ بِمَا أَنْتَ مِنْهُ بَرِيءٌ، وَرُبَّمَا رَسَخَ فِي ذِهْنِ البَعْضِ أَنَّكَ مِنْ أَهْلِ الرِّيبَةِ، وَهَيْهَاتَ أَنْ تَنْزِعَ هَذَا الظَّنَّ(٢) مِنْ قُلُوبِهِمْ.

يَا بُنَيَّ: لَا تَخُنْ نَفْسَكَ، وَلَا تَخُنْ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ.

---

(١) أي: يخبر أحَدُهمَا الآخر سِرًّا، أو يتناجيان.

(٢) في «ق» [الظَّنِّ] بالكسر، وهو خطأ.

إِنَّ مِنْ خِيَانَتِكَ لِنَفْسِكَ: أَنْ يَسْأَلَكَ الأُسْتَاذُ لِيَمْتَحِنَكَ؛ فَتَنْظُرَ فِي الكِتَابِ اخْتِلَاسًا ثُمَّ تُجِيبُهُ كَأَنَّكَ عَالِمٌ بِمَا سُئِلْتَ عَنْهُ.

وَمِنْ خِيَانَتِكَ لِنَفْسِكَ: أَنْ تَجْلِسَ مَجْلِسَ الامْتِحَانِ، فَإِذَا عَجَزْتَ عَنِ الجَوَابِ؛ اخْتَلَسْتَ مُسَوَّدَةَ أَخِيكَ لِتَكْتُبَ مِنْهَا، أَوْ سَأَلْتَهُ هَمْسًا لِيُجِيبَكَ.

هَذِهِ -يَا بُنَيَّ- خِيَانَةٌ وَجَهَالَةٌ مَعًا، وَغِشٌّ أَيْضًا.

فَلَيْتَكَ إِذْ[١] كُنْتَ جَاهِلًا، لَمْ تَكُنْ خَائِنًا وَلَا غَشَّاشًا[٢].

فَاتَّقِ -يَا بُنَيَّ- الوُقُوعَ فِي مِثْلِ هَذَا.

وَاجْتَهِدْ فِي دَرْسِكَ؛ تَتَعَلَّمِ العِلْمَ، وَتَسْلَمْ مِنَ الخِيَانَةِ وَالغِشِّ.

وَاللهُ يَتَوَلَّىٰ هِدَايَتَكَ وَإِرْشَادَكَ.

---

(١) في «ق»: [إِذَا].

(٢) كذا في النسختين، والصواب علىٰ ما جاء في المعاجم القديمة: «غَاشًّا»، وقد أجاز «مجمع اللغة العربية - بالقاهرة» «غشَّاش».

الدَّرْسُ الرَّابِعَ عَشَرَ
فِي فَضِيلَةِ العِفَّةِ

العِفَّةُ[١] -يَا بُنَيَّ- مِنْ أَخْلَاقِ الأَخْيَارِ، وِمِنْ صِفَاتِ الأَبْرَارِ، فَاحْمِلْ نَفْسَكَ عَلَىٰ التَّخَلُّقِ بِهَا، حَتَّىٰ تَصِيرَ مَلَكَةً رَاسِخَةً فِيْكَ.

مِنَ العِفَّةِ: أَنْ تَكُونَ قَنُوعًا، لَا تَضِنُّ[٢] بِطَعَامِكَ وَشَرَابِكَ عَلَىٰ ذَوِي الحَاجَاتِ، وَلَا عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِكَ.

وَمِنَ العِفَّةِ: أَلَّا تَطَّلِعَ[٣] إِلَىٰ مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ؛ فَلَا تَطْمَحْ نَفْسُكَ إِلَىٰ التَّوَسُّعِ فِي المَآكِلِ وَالمَشَارِبِ، وَاللَّذَائِذِ الفَانِيَةِ.

---

(١) عرَّفها ابن منظور رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «العِفَّة: الكَفُّ عَمَّا لَا يَحِلُّ ويَجْمُل؛ عَفَّ عَنِ المَحارِم، والأَطْماع الدَّنِية...، الاسْتِعْفاف: طَلَبُ العَفَافِ، وَهُوَ الكَفُّ عَنِ الْحَرَامِ، وَالسُّؤَالِ مِنَ النَّاسِ، أَي: مَنْ طَلَبَ العِفَّة وتكلَّفها؛ أعطاه اللهُ إِيَّاهَا، وَقِيلَ: الاسْتِعْفَاف: الصبْر والنَّزاهة عَنِ الشَّيْءِ»، انظر: «لسان العرب» (٩/ ٢٥٣).

وقال أبو البقاء الكفوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العِفَّة: الكَفُّ عمَّا لَا يَحِلُّ»، «الكليات» (ص٦٥٦).

وفي مَدْح العَفَاف قال ابن مُفلح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان يُقال: الشُّكْرُ زِينَةُ الْغِنَىٰ، وَالْعَفَافُ زِينَةُ الْفَقْرِ»، «الآداب الشرعية» (٣/ ٤٧٥).

(٢) أيْ: لا تبخَل.

(٣) في «ق»: [تتطَلَّع].

يَا بُنَيَّ: مِنَ العِفَّةِ: أَنْ تُقَاوِمَ نَفْسَكَ وَهَوَاكَ؛ فَلَا تَنْقَدْ[(١)] لَهُمَا إِذَا حَمَلَاكَ عَلَىٰ

---

(١) في النسختين «ق»، و«ع»: [تَنْقَاد]، وهو خطأ، والصواب: «تَنْقَدْ»؛ لأنَّ الفعل «تنقاد» الماضي منه أجوف مُعْتَلٌّ عِند الصَّرفِيِّين، والألف فيه مُنقَلِبَة عن يَاء، أصله: «انقَـيَدَ»، تحركت الياء وانفتح ما قبْلهَا، فقُلِبَتْ ألفًا؛ فصَار «انْقَادَ»، فلمَّا أتَيْنا بالمُضَارِع مِنْهُ؛ صار «تَنْقَادُ»، وأدخلنا عليه حرف الجزم «لا» فصَار مجزومًا بالسُّكون الظاهر علَىٰ الدال «لا تنقادْ»؛ فالْتقَىٰ سَاكِنَان (الألف والدال)؛ فحذَفْنا الألِفَ للتخَلُّص مِنِ الْتقَاء السَّاكِنَيْن - فحَذْفُ الألفِ فعْلَةٌ تَصْرِيفِيَّة.

ولِهَذا قال ابنُ مَنظُور: «ونَبا فُلَانٌ عَنْ فُلَانٍ: لَمْ يَنْقَدْ لَهُ. وَفِي حَدِيثِ طَلْحَةَ: قَالَ لِعُمَرَ: «أنتَ وَلِيٌّ مَا وَلِيتَ، لَا نَـنْبُو فِي يَدَيْكَ»، أَي: نَنْقادُ لَكَ»، «لسان العرب» (١٥/ ٣٠٢)؛ ففرَّق ابنُ منظور بين الرَّسْمَين؛ بحسب ما اقتضاه السِّياق.

وبهذه المناسبة أُبيِّن أقسام النَّهيِ؛ لِيَسْتفِيدَ طالِبُ العِلْم بمَقْصُود الشَّيخ مِن عدَم الانقِيَاد لِلهوَىٰ:

١- النَّهْي يفيد الأمر -وُجُوبًا أو استِحْبَابًا- إذا كان مِن الأعلَىٰ للأدنَىٰ، وهو حال المُؤلِّف - الأعْلَىٰ سِنًّا وقَدْرًا وعِلْمًا وخِبرةً- مع مَنصُوحِه، حيث يأمُره بعَدَم الانقِيَاد للنَّفس والهَوَىٰ، وكحال نوح -عليه الصلاة والسلام- مع ابنه، ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٤٢﴾، وحُذفَ حرف العِلَّة مِن الفِعل «تكُون» لِلتَّخَلُّص مِن الْتِقَاء السَّاكِنَيْن؛ فصارت: ﴿تَكُن﴾.

٢- والنَّهيُ يُفِيد الْالْتِمَاس، إذا كان مِن المُسَاوِي؛ كقَرِينَـيْنِ يتَناصحَان مثلًا.

٣- ويُفِيد الطَّلَب والدُّعاء إذا كان مِن الأدنَىٰ للأعْلَىٰ، مثل: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾، فالأدنَىٰ «العبد»، يَطْلُب ويَدْعُو الربَّ الأعلَىٰ جلَّ جلالُه، -وأصلها «تزِيغ»؛ حُذف حَرْف العِلَّة لدخول «لا الناهية»؛ فصارت ﴿تُزِغْ﴾، وهناك أقسام أخرىٰ، ولَا حاجة للتوسُّع، والله أعلم.

=

طَلَبِ شَيءٍ مِنَ اللَّذَّاتِ القَبِيحَةِ الَّتِي يَتَسَارَعُ إِلَيْهَا أَهْلُ الفَسَادِ، وَيَنْهَمِكُ فِي طَلَبِهَا الأَشْرَارُ وَالفُجَّارِ.

يَا بُنَيَّ: إِنَّ الَّذِي يَمْلَأُ بَطْنَهُ مِنَ الخُبزِ وَحْدَهُ، كَالَّذِي يَمْلَؤُهَا مِنَ اللُّحُومِ، وَالفَوَاكِهِ، وَالحَلْوَىٰ؛ كِلَاهُمَا لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُدْخِلَ فِي مَعِدَتِهِ شَيْئًا إِذَا شَبِعَ.

وَمَصِيرُ مَا يَأْكُلُهُ الأَغْنِيَاءُ وَالفُقَرَاءُ وَاحِدٌ: وَهُوَ تِلْكَ القَاذُورَاتُ[١].

فَيَا بُنَيَّ: كُنْ شَرِيفَ النَّفْسِ بِعِفَّتِكَ، وَلَا تُدَنِّسْ شَرَفَ نَفْسِكَ بِأَكْلَةٍ تَذْهَبُ

= فانتبه لمثل هذَا؛ فإنه يُسَاعِدُك علَىٰ التدبُّر.

وعلَىٰ كل حال، فهَذَا التَّقسِيم ضَعيفٌ، علَىٰ حُسنِه وَشُهرته، وقد ذكَرْتُه استئناسًا وتَقْريبًا للفَهْم، لأنَّ التَّقسِيم لَيْسَ علَىٰ إطلاقه، فقد أتَىٰ الأمر مِن الأدنَىٰ للأعْلَىٰ رتبةً لَا علىٰ سبيل الطَّلَب والدُّعاء، كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾، فإبليس يأمُر بنِي آدم وهو أدْنَىٰ...، والكلَام فيه تفاصِيل لا يتَّسع المقام لها، انظرها في: «قطف الثمرات في شرح نظم الورقات» للأخ الحبيب الفاضل، الشَّيخ مُحمَّد بن سَعِيد البُحَيْري -حفظه الله- فقَدْ اختَلفْنَا في هَذَا، وتعرَّض للمَسْألَة بتوسُّع في كِتَابه المُشار إليه آنفًا؛ جزَاه الله خيرًا ونفَعَ به.

(١) فلو نظَر الإنسَانُ بعقْلِه، لا بمَعِدَتِه وشهْوَته؛ لمَا اهتمَّ.. أكَلَ خُبزًا أو أكلَ لَحْمًا؛ لأنه أخيرًا: إمَّا أنْ يتجَشَّأَ مِن أعْلَاه هَواءً لَا يَسْتطِيع استِنشَاقه! وإمَّا أنْ يُخرِج أصواتًا مِن أسفَلِه لا يحب سَمَاعهَا، ولا يستطيع استنشاقها، بل لا يُحِبُّها مِنهُ أحبُّ الناس إليه! فتَنَزَّه واسْتَعفِفْ خيرٌ لك!

لَذَّتُها بِمُجَرَّدِ الفَرَاغِ مِنْهَا، وَيَلْحَقُكَ عَارُهَا أَيْنَمَا حَلَلْتَ، وَحَيْثُمَا تَوَجَّهْتَ(١).

يَا بُنَيَّ: العِفَّةُ تَاجُ مَنْ لَا تَاجَ لَهُ؛ فَاحْتَفِظْ بِتَاجِ العِفَّةِ الَّذِي يُكْسِبُكَ(٢) الوَقَارَ وَالاحْتِرَامَ عِنْدَ الخَاصَّةِ وَالعَامَّةِ.

اتَّقِ المَحَارِمَ كُلَّهَا، وَإِذَا مَشَيْتَ فِي الطَّرِيقِ، فَلَا تَمْلَأْ عَيْنَيْكَ(٣) مِنَ النِّسَاءِ، وَلَا تُكَلِّمِ امْرَأَةً لَيْسَتْ ذَاتَ رَحِمٍ مَحْرَمٍ مِنْكَ.

وَإِيَّاكَ أَنْ تَخْلُوَ بِامْرَأَةٍ لَا يَحِلُّ لَكَ المُقَامُ مَعَهَا، وَائْتَمِرْ بِأَمْرِ اللهِ فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ، حَيْثُ يَقُولُ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: ٣٠].

يَا بُنَيَّ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ»(٤).

وَالنِّسَاءُ(٥) حَبَائِلُ الشَّيْطَانِ وَشَرَكُهُ(٦) الَّذِي يَصْطَادُ بِهِ ضِعَافَ القُلُوبِ.

---

(١) وهو عار تلك الأصوات والرَّوائح، التي تُنفِّرُ منك مُحِبِّيك!

(٢) في «ق»: [يَكسِبُكَ] بفتح الياء، وهو خطأ.

(٣) في «ع»: [عينك] بالإفراد، والأَبْلَغُ التَّثنِيَة.

(٤) قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رواه الإمام أحمد، والبخاري، ومسلم، وأبو داود عن أنس بن مالك، ورواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، وابن ماجه عن صفية».

قلت: أخرجه البخاري (٢٠٣٨)، ومسلم (٢١٧٥) عن صفية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وأخرجه مسلم أيضًا عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ (٢١٧٤)، ولم يخرجه البخاري عن أنس.

(٥) سقطت الواو من «ق».

(٦) في «ق»: [وشرْكه] بسكون الراء، وهي صحيحة إذا قُصِد بها أنها شريكة للشَّيطان في

فَإِيَّاكَ -يَا بُنَيَّ- أَنْ يَسْتَهْوِيَكَ الشَّيْطَانُ بِمَكْرِهِ؛ فَتَقَعَ[1] فِي أَكْبَرِ الخَطَايَا وَأَنْكَرِ المُنْكَرَاتِ.

يَا بُنَيَّ: تَذَكَّرْ قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ [الإسراء: ٣٢].

يَا بُنَيَّ: وَصِيَّتِي لَكَ أَنْ تَحْتَرِسَ مِنْ غِوَايَةِ[2] الشَّيْطَانِ، وَمِنَ الشَّهَوَاتِ الخَبِيثَةِ؛ فَإِنَّ اللهَ مُطَّلِعٌ عَلَيْكَ فِي خَلْوَتِكَ، وَمُحَاسِبُكَ عَلَىٰ عَمَلِكَ.

يَا بُنَيَّ: اقْبَلْ نَصِيحَتِي هَذِهِ، وَاذْكُرْهَا كُلَّمَا عَرَضَ لَكَ خَاطِرُ[3] سُوءٍ مِنَ الخَطَرَاتِ الشَّهْوَانِيَّةِ، وَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

وَتَوَجَّهْ إِلَىٰ اللهِ بِعَزِيمَةٍ صَادِقَةٍ، وَاسْأَلْهُ النَّجَاةَ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ وَغُرُورِهِ.

وَاللهُ يَتَوَلَّاكَ -يَا بُنَيَّ- بِحِفْظِهِ وَرِعَايَتِهِ.

= استعماله لها لإغواء مرضىٰ القلوب، و[شَرَكه] بالفتح، أي: حَبَائله ومَصَايده التي يَصِيد بها مَن يغويه؛ فالغاية واحدة وإنْ اختلَفَ المَعْنَىٰ.

(١) في «ق»: [فتقعَ] بالفتح وهو خطأ.

(٢) في «ق»: [غَواية] بفتح الغين، وهو صحيح أيضًا.

(٣) في «ق»: [حاطر] بالحاء، وهو خطأ.

الدَّرْسُ الخَامِسُ عَشَرَ
فِي المُروءَةِ وَالشَّهَامَةِ وَعِزَّةِ النَّفْسِ

يَا بُنَيَّ: لَا خَيْرَ فِي المَرْءِ إِذَا كَانَ قَلِيلَ المُرُوءَةِ، دَنِيءَ الهِمَّةِ، وَضِيعَ النَّفْسِ، مُبْتَذَلًا بَيْنَ قَومِهِ وَعَشِيرَتِهِ، إِذَا أُهِينَ؛ تَصَاغَرَ وَتَذَلَّلَ، وَإِذَا احْتُقِرَ؛ كَانَ جَبَانًا فِي مَوْضُوعِ[١] الدِّفَاعِ عَنْ كَرَامَةِ نَفْسِهِ[٢].

أَمْثَالُ هَؤُلَاءِ -يَا بُنَيَّ- لَيْسُوْا أَهْلًا لِأَنْ يَتَشَرَّفُوا بِالانْتِسَابِ إِلَىٰ طَلَبَةِ العُلُومِ الدِّينِيَّةِ، وَلَا أَنْ يَكُونُوا مِنْ حَمَلَةِ الشَّرِيعَةِ الإِسْلَامِيَّةِ.

فَيَا بُنَيَّ: احْتَفِظْ بِمُرُوءَتِكَ، وَلَا تَضَعْ نَفْسَكَ فِي غَيرِ مَوْضِعِهَا.

وَاحْتَرِسْ[٣] مِنْ مُخَالَطَةِ السَّفَلَةِ، وَمِنْ مُعَاشَرَةِ اللِّئَامِ[٤]، وَتَرَفَّعْ عَنِ الدَّنَايَا،

---

(١) كذا في النُّسختين، وأظنها: «مَوْضِع»؛ فهي للصواب أقرب، وللسِّياق أنسب، والله أعلم.

(٢) وقد رَأينا مِمَّن يُنْسَبُون للعِلْم وليْسُوا بذَاك، ولَهُم نَصِيب مِن الشُّهرة والذيوع مَن يتذلَّلون لبَعْض أصحَاب الأمْوَال، ويَسْمَعُون إهاناتِهم في صورة «مزاح»؛ بُغْيَة حَفَنَاتٍ مِن بقَايا المال، أو مساعدات أُخرَىٰ يحصُلون عليها؛ وهُمْ بِهَذا أَهَانُوا أنفسهم قبل إهانتهم لِمَا يَدَّعُون، وذَلَّت أنفسُهم بعد عِزِّهَا -إنْ كانَتْ علَىٰ العِزَّىٰ مجُبولةً!-؛ نسأل الله السلامة والعافية.

(٣) سقطت الواو من «ع».

(٤) «اللِّئَام»: جَمْع لئيم، وهو خِلَاف الكَرِيم، واللَّئِيم: هو الدَّنِيء الخَسِيس، خبيث النَّفس.

وَلَا تَكُنْ عَبْدًا لِبَطْنِكَ، وَلَا عَبْدًا لِشَهَوَاتِكَ[(١)].

يَا بُنَيَّ: الفَقْرُ مِنَ المَالِ لَا يُعَدُّ فِي عُيُوبِ الرِّجَالِ.

يُعَابُ المَرْءُ بِقِلَّةِ مُرُوءَتِهِ، لَا بِقِلَّةِ ثَرْوَتِهِ، وَيُحْمَدُ عَلَىٰ جَمِيلِ فِعَالِهِ، لَا[(٢)] عَلَىٰ كَثْرَةِ مَالِهِ.

مِنَ المُرُوءَةِ: أَنْ تَصُونَ مَاءَ وَجْهِكَ عَنْ ذُلِّ السُّؤَالِ[(٣)]، رَاضِيًا بِعَيْشٍ

= مَن صفاته التي عدَّها الجَاحِظ: «يَظْلِم الضَّعِيف، ويَظْلِم نفسَه لِلقَوِيِّ، ويَقتُل الصَّريع، وَيجْهَز علَىٰ الجَرِيح، ويطلبُ الهَارب، ويَهْربُ مِن الطَّالِب، ومَنْ أَرَادَ أَنْ يَسْمعَ قَوْلَه؛ سَاء خلُقُه، إذْ كانَ لَا يَحْفل بِبُغض النَّاس له، ووَحْشَة قُلوبهم مِنْه، واحْتِيَالهُم فِي مُباعدَتِه، وقِلَّة مُلَابسَتِه»، انظر: «الرسائل الأدبية» (ص٢٧٢).

(١) جاء في حديث خير البرية، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ...»، أخرجه البخاري في «صحيحه» (٢٨٨٦) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهَذِه لَيْسَت العبُودِيَّة التي يُذهَب إليها مِن دون الله، وإنَّما مجازًا عن الحِرْص، وتعلُّق القَلْب، وتحَمُّل الذِّلة، فمَنْ بالَغَ في طلَب شيءٍ ورضِيَ الذِّلَّة لأجله؛ كان كالعبد الرَّقِيق لِذَلِك الشَّيء، فهُوَ وإنْ لم يَكُن عابدًا سَاجدًا علىٰ الحَقِيقَة، لكِنَّه مُسْتَرَقٌّ مُستَعبَد.

(٢) سقطت من «ق».

(٣) «لأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُمْ حُزْمَةً عَلَىٰ ظَهْرِهِ، خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدًا، فَيُعْطِيَهُ أَوْ يَمْنَعَهُ»، أخرجه البخاري (٢٠٧٤) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ كذا رغَّب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في العمَل الَّذِي يُغنِي عن سؤال النَّاس، والتَّذلُّلِ لهم. =

الكَفَافِ[(١)]، وَبِحَسْبِكَ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَكَ[(٢)]؛ فَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ عَلَيْكَ مِنَّةً فِي

= بل إنَّه توعَّد وعيدًا شديدًا مَن لازَم سؤال النَّاس واتَّكل عليه، بقوله: «**مَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَسْأَلُ النَّاسَ؛ حَتَّىٰ يَأْتِيَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَيْسَ فِي وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ**»، أخرجه البخاري (١٤٧٤)، ومسلم (١٠٤٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(١) مَن ذَا الَّذِي لا يَرضىٰ بعَيش الكَفاف إذا علم أنَّ الله اختَارَهُ ليَكُون مِن الفَالحِين؟! فقد قال سيد المرسلين: «**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسْلَمَ، وَرُزِقَ كَفَافًا، وَقَنَّعَهُ اللهُ بِمَا آتَاهُ**»، أخرجه مسلم (١٠٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وفي رواية عند ابن حبان في «صحيحه» (٦٧٠): «**وَكَانَ رِزْقُهُ كَفَافًا؛ فَصَبَرَ عَلَيْهِ**».

ومَن ذَا الَّذِي لا يَرضىٰ بعَيْش الكَفاف إذا عَلِم أنَّ رَسُول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعَا به لأهلِه! فقال: «**اللهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوتًا**»، أي: كَفافًا، أخرجه مسلم (١٠٥٥) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهل تُحِبُّ أنْ تكون مِن الفالحين المُفلحِين، وتدخل في دعاء خير النبيِّين، حيث لم يَكُن معَك فضلَة مالٍ تُحاسَب عليها؟ أم تُحِب أنْ يَطُول حسابُك؛ لتُسأل مِن أين اكتَسَبْتَه وفيم أنفقته؟!

فَكُن راضيًا عمَّا قضَاه الله علَيْك؛ فَهُو الخير الَّذِي لَا تَعْلَم مَا ورَاءه.

(٢) **قال الشيخ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «في الحديث الشريف عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَال: «**مَا مَلأَ ابْنُ آدَمَ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنِهِ، بِحَسْبِ ابْنِ آدَمَ أُكَلاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَه، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ، فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ، وَثُلُثٌ لشَرابِه، وثُلُثٌ لِنفَسِه**»، رواه الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم من حديث مقداد بن معد يكرب».

قلت: تقدم تخريجه، والكلام حوله.

الحُصُولِ عَلَىٰ شَيءٍ مِنْ لَذَّتِكَ الفَانِيَةِ[١].

وَمِنَ المُرُوءَةِ: أَنْ تَنْظُرَ إِلَىٰ ذَوِي الحَاجَاتِ مِنْ إِخْوَانِكَ نَظْرَةَ الاحْتِرَامِ، وَنَظْرَةَ الإِشْفَاقِ.

وَمِنَ المُرُوءَةِ: إِذَا سَاعَدْتَ أَحَدَ إِخْوَانِكَ بِشَيءٍ مِنْ مَالِكَ أَلَّا تَجْعَلَ ذَلِكَ وَسِيلَةً إِلَىٰ إِذْلَالِهِ وَاحْتِقَارِهِ.

يَا بُنَيَّ: مِنَ الشَّهَامَةِ[٢]: أَنْ تَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَىٰ الانْتِقَامِ مِنْهُ،

---

(١) وقد رأيتُ أناسًا يدَّعون العِلْم، ويُنسَبُون لأهله، ولهم في الدَّعوَةِ إلىٰ الله ما لَهُم مِن خير، وَهُم -يآسَفَىٰ- تخصَّصُوا في التسَوُّل، وجَمْع الأموال، وترَكُوا التَّكسُّب والاحتِرَاف، أو التِّجارَة، أو لم يَقْـنَـعُوا بمَا في أيديهم، بل تطلَّعوا إلىٰ مَا في أيدي غيرهم؛ بحُجَّة التَّـفـرُّغ للدَّعوة، أو شِرَاء الكتُب، أو استِخْرَاجها...
وإذا كان ما سبق حال بعض مَن نُسِبوا إلىٰ العِلْم، فالأسوأ منهم مَن يَلْبَسُون ثِيَاب زُورٍ، ويتشبَّعون بما لم يُعطُوا، ويَدَّعون ما ليس لهم، وهُم لَيْسُوا مِن أهل الشَّأن؛ ليحصلوا علَىٰ فُتاتٍ زائل...، أفٍّ لمَن هذا حالهم، وأنصَحُهم بشِدَّة -نصيحة مُشفِق- أن يُهَرْوِلُوا مسرعين إلىٰ كتابٍ بعنوان: «ذم المسألة» للشَّيخ الإمام مقبل بن هادي الوادعي رَحِمَهُ اللَّهُ؛ وليَتْركُوا التَّآكُل بالدَّعوة والعِلْم؛ لأنهم يأكلون سُحْتًا، ولن يُبارك اللهُ فِيمَا يُنتِجُون مِن كُتب ودعوة.. وليأخذوا العِبْرة من حال الأئمة قديمًا وحديثًا؛ وهذا الإمام صاحب الكتاب المُومَىٰ إليه عاش وماتَ فقيرًا، ولم يكن عنده مِن وسائل العيش إلَّا ما عِند أفْقَر طُلَّابه؛ ومع ذلك.. فقد بارك الله في دعوته، وفي أهله، وفي كثير مِن طُلَّابه؛ رَحِمَهُ اللَّهُ رحمةً واسعة، وجزاه عن الدَّعوة خيرًا.

(٢) «الشَّهَامَة»: مصدر (شَهَمَ)، وهي التَّحامُل علَىٰ النَّفس لنَفْع الغَيْر، وقيل: الشَّهم: الذَّكِيُّ

وَتُحْسِنَ إِلَىٰ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ وَأَنْتَ أَقْوَىٰ مِنْهُ عَلَىٰ الإِسَاءَةِ.

وَمِنَ الشَّهَامَةِ: أَنْ تَقُولَ كَلِمَةَ الحَقِّ وَلَوْ عَلَىٰ نَفْسِكَ(١).

وَمِنَ الشَّهَامَةِ: أَنْ تُحَافِظَ عَلَىٰ كَرَامَتِكَ وَإِنْ كُنْتَ فَقِيرًا مُعْدِمًا(٢).

يَا بُنَيَّ: مَنْ لَمْ يَكُنْ عَزِيزًا فِي نَفْسِهِ؛ لَا يَسْتَفِيدُ بِالمَالِ وَلَا بِغَيْرِهِ عِزًّا -عِزُّ النَّفْسِ أَفْضَلُ وَأَشْرَفُ مِنَ العِزِّ بِالمَالِ(٣).

= الفُؤاد، المُتَوقِّد، الجَلد، وقيل: الشَّهم في كلَام العرَب الحَمُول، الجَيِّد القِيَام بمَا يَحْمِل، طَـيِّب النَّـفْسِ بمَا يَحْمِل...، انظر: «العين» للخليل (٣/ ٤٠٥)، و«الزاهر في معاني كلمات الناس» لأبي بكر الأنباري (١/ ١١٤)، و«المحكم» لابن سيده (٤/ ١٩٦)، و«مقاييس اللغة» لابن فارس (٣/ ٢٢٣).

(١) إنَّ قولَ الحقِّ وصيَّةُ رَسُولِ الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لصَاحِبِهِ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقَد ضمَّنها لَهُ فِي عِدَّة وصَايَا؛ مِن المُسْتَحْسَن وَالمُناسِب ذِكرهنَّ جميعًا، حيث قال أبو ذر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أَوْصَانِي خَلِيلِي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بِخِصَالٍ مِنَ الْخَيْرِ، أَوْصَانِي: «بِأَنْ لَا أَنْظُرَ إِلَىٰ مَنْ هُوَ فَوْقِي، وَأَنْ أَنْظُرَ إِلَىٰ مَنْ هُوَ دُونِي، وَأَوْصَانِي بِحُبِّ الْمَسَاكِينِ وَالدُّنُوِّ مِنْهُمْ، وَأَوْصَانِي أَنْ أَصِلَ رَحِمِي وَإِنْ أَدْبَرَتْ، وَأَوْصَانِي أَنْ لَا أَخَافَ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ، وَأَوْصَانِي أَنْ أَقُولَ الْحَقَّ وَإِنْ كَانَ مُرًّا، وَأَوْصَانِي أَنْ أُكْثِرَ مِنْ قَوْلِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ، فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ»، أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٤٤٩)، وصححه الألباني في «التعليقات الحسان» (٤٥٠).

(٢) في «ع»: [مُعْدَمًا] بفتح الدال.

(٣) هذه أيضًا وصيةٌ نبويَّـةٌ شَرِيفَة، حيث قال: «لَيْسَ الغِنَىٰ عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ [أي: مَتاعِ

فَمِنْ عِزَّةِ النَّفْسِ: أَنْ تَتَجَمَّلَ بَيْنَ النَّاسِ وَإِنْ كُنْتَ فَقِيرًا.

وَمِنْ عِزَّةِ النَّفْسِ: أَنْ لَا تَبُوحَ بِاحْتِيَاجِكَ لِأَحَدٍ مَهْمَا كَانَتْ مَنْزِلَتُهُ عِنْدَكَ(١).

وَمِنْ عِزَّةِ النَّفْسِ: أَنْ تَصْبِرَ عَلَىٰ مَضَضِ(٢) العَيْشِ صَبْرَ الكِرَامِ، وَأَنْ لَا تَرْفَعَ حَاجَتَكَ إِلَىٰ غَيْرِ مَوْلَاكَ.

يَا بُنَيَّ: مِنْ عِزَّةِ النَّفْسِ، وَمِنَ المُرُوءَةِ، وَالشَّهَامَةِ:

أَنْ لَا تَحْمِلَ(٣) الضَّيْمَ(٤) وَالإِذْلَالَ لِنَفْسِكَ.

= الدُّنيا مِن مَالٍ وحُطام، ونحو ذلك]، وَلَكِنَّ الغِنَىٰ غِنَىٰ النَّفْسِ»، أخرجه البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(١) كذا أخلَاق الأعِزَّة الشُّرفاء، الأتقِيَاء الكُرَماء، وهي مِن صِفَات المُهاجرين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، حيث قال الله عَزَّ وَجَلَّ في وصفهم: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾.

قال أبو حيان في «البحر المحيط» (٣/ ٨٩) عن هذه الآية، إنها: «كِنايةٌ عن عدَمِ إظهَار آثار الفَقْر، والمعنىٰ: أنَّهم لَا يَضُمُّون إلىٰ السُّكوتِ مِن رثَاثةِ الحَالِ وَالإنكِسَار». اهـ.

فما يمنعك إن كُنت فقيرًا؛ أن تكون عزيزًا عفيفًا؟! فتَشبَّه بهم؛ إنَّ التشبه بالكرام فلاحُ!

(٢) «المَضَض»: التألُّم، ومضَضُ العَيْشِ: أَلَمُه وقَسَاوَتُه.

(٣) في «ق»: [تَحْتَمِل]، وهو خطأ؛ لأنَّ «احتمَل» فيها عِدَّة معانٍ، منها: صَبَر وتجَلَّد، وهو ما لا يستقيم في هذا السياق.

(٤) «الضَّيْم»: الظُّلم، والإذْلَال.

وَلَا لِأَحَدٍ مِنْ إِخْوَانِكَ.

وَلَا لِأَحَدٍ مِنْ أَبْنَاءِ مِلَّتِكَ.

وَلَا لِوَطَنِكَ، الَّذِي مِنْ طِينَتِهِ خُلِقْتَ، وَتَحْتَ سَمَائِهِ تَرَبَّيْتَ[١].

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**المُؤْمِنُ لِلمُؤْمِنِ كَالبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**»[٢].

---

(١) **ومِن الظُّلم لأبناء المِلَّة وَالوَطَن**: مَا يفعلُه الخَوارج مِن تَقْتِيل، وتَفْجِير لِلمُواطِنين -المَدنِيِّين وجُنود الشُّرطة والجَيْش علَىٰ حدٍّ سَواء-، وكذلك مَا يَفْعَلُه المُسِيؤُونَ لوَطنِهم ذمًّا وانتِقَادًا وانتِقَاصًا، ولَا يرَون فيه إلَّا المسَاوئ، وعليه دائمًا ناقِمُون، ولِمَا فيه مُنتَقِدُون، وله سابُّون، ولحسَناتِه كَاتِمُون، وبسَلْبِيَّاته طائرون مُذيعُون؛ ألَا يعرفون أنهم بهذا إيَّاه ظالمون، وفيه يُدمِّرون، ولصُورته يُشَوِّهون، ولهيبته يُضيعون، ولِمَعنويَّاته مُضعِفون؛ لَاسِيَّما وهم يُشِيدون بالغَرْب علَىٰ صعيدٍ مقابل...؛ فماذا إذًا تريدون؟! فاتقوا الفُرقة؛ فإنها شتَات.. واتَّقوا الظُّلم؛ فإنَّه يوم القِيامَةِ ظُلماتٌ وحسَرات.

(٢) **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: «رواه البخاري، ومسلم عن أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

قلت: سبق تخريجه.

الدَّرْسُ السَّادِسُ عَشَرَ
فِي الغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ، وَالحِقْدِ وَالحَسَدِ، وَالكِبْرِ وَالغُرُورِ

يَا بُنَيَّ: مِنَ الأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ[١]: أَنْ تَذْكُرَ أَخَاكَ فِي غَيْبَتِهِ بِمَا يَكْرَهُ أَنْ يَسْمَعَهُ بِأُذُنِهِ[٢].

يَا بُنَيَّ: لِكُلِّ إِنْسَانٍ عَيْبٌ، فَكَمَا لَا تُحِبُّ ذِكْرَ عُيُوبِكَ فِي غَيْبَتِكَ، يَجِبُ أَنْ تَصُونَ لِسَانَكَ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ فِي غَيْبَتِهِمْ.

فَاجْتَنِبِ الغِيبَةَ يَا بُنَيَّ، وَاجْتَنِبْ نَظِيرَتَهَا فِي الخُبْثِ، وَهِيَ: النَّمِيمَةُ؛ فَلَا تَسْعَ بِالفَسَادِ بَيْنَ النَّاسِ.

لَا تَقُلْ لِأَحَدِ إِخْوَانِكَ: «إِنَّ فُلَانًا قَالَ فِيكَ كَذَا وَكَذَا، وَفُلَانًا رَمَاكَ بِكَذَا».

يَا بُنَيَّ: الغِيبَةُ وَالنَّمِيمَةُ مِنْ أَخْلَاقِ الأَدْنِيَاءِ، وَأَخْلَاقِ اللِّئَامِ، لَا مِنْ أَخْلَاقِ طُلَّابِ العُلُومِ الدِّينِيَّةِ؛ فَلَا تُدَنِّسْ نَفْسَكَ بِهَذِهِ الأَخْلَاقِ الذَّمِيمَةِ.

---

(١) بل من كبائر الذنوب، أعاذنا الله وإياك.

(٢) ومِن سَفاهَةِ بعضهم، قولهم: «نحن لَا نقول إلَّا ما فيه حقٌّ، فلَا نفتَرِي عليه».

ولِمَن هذا قوله؛ أقول: أيَّ حقٍّ تقول، أيُّها المغتاب الجهول؟! ألم تعلم قول الرسول: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ، فَقَدِ اغْتَبْتَهُ»، أخرجه مسلم (٢٥٨٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾ [الحُجُرات: ١٢](1).

---

(١) قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا﴾ تمثيلٌ وتَصْوِيرٌ لِمَا يَناله المُغتَاب مِن عِرْضِ إنسانٍ جعَلهُ أخاه! **وغَرَض التَّمثِيل**: استِفْظَاع المُمَثَّل وتَشْوِيهُه؛ لِبَيان الغِلْظَة علَىٰ المُغتابين؛ إذْ الغِيبَة لا تزال مُتفَشِّيةً في النَّاس منذ الجاهلية الأولىٰ حتَّىٰ أيامِنَا هذه -فالمغتاب لا تزال فيه جاهلية.

وقوله: ﴿أَيُحِبُّ...﴾ استِفْهَامٌ تَقْرِيرِيٌّ؛ لتحَقُّق أنَّ كُلَّ أَحَدٍ يُقِرُّ بأنه لا يُحِب ذلك -ولذلك، أُجِيبَ الاستفهام بقوله: ﴿فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾.

وقد ذكَر البَلَاغِيُّون أنَّ مِن فوائد الاستِفْهَام التَّقرِيري: أنه لا يأتِي في اللُّغة إلَّا علَىٰ أمرٍ مُسَلَّم به عِند المُخاطَب؛ فيقتضِي الإقرار -كما تقدَّم- وعدم الإنكار.

والتَّقدير: هل تُحِب أنْ تأكُل لَحْم أخيك بعد موته؟! **والجواب**: قطعًا الكل يَكره هذا! فكما كَرِهْتَ أكل لَحمِه في غيبته حيًّا لأنه لا يَسْمَعُك؛ فالأوْلَىٰ تَرْك لَحمِهِ غائبًا ميتًا لأنه لا يحِسُّك.

ولا تُسمَّىٰ غيبةً ما دعَتْ إليه الضَّرورة، مِن تجريح الشُّهود، وجَرْح الرُّواة، ونَقْد العُلمَاءِ والكُتَّابِ والدُّعَاة، والمُستَنصِح لخِطبَةٍ، وغير ذلك مِن أمور ذكرها أهلُ العِلْم منثورةً ومنظومةً، ومِمَّن ذكروها: العلَّامة النوويُّ رَحِمَهُٱللَّهُ في «رياض الصالحين»، (باب: ما يُباح مِن الغِيبَة) حيث قال:

«اعلم أنَّ الغِيبَة تُباح لغَرَضٍ صَحِيحٍ شَرْعِيٍّ، لا يمكن الوصول إليه إلَّا بها، وهو ستة أسباب:

الأوَّل: التَّظلُّم.

=

=الثَّاني: الاستعانة علىٰ تغيير المنكر.

الثَّالث: الاستفتاء.

الرَّابع: تحذير المسلمين مِن الشَّر ونصِيحتُهم، وذلك جائز بإجماع المسلمين، بل واجب للحاجة، مثل: إذا رأىٰ مُتَفَقِّهًا يتَردَّد إلىٰ مبتدع، أو فاسقٍ يَأْخُذ عنه العِلْم، وخافَ أنْ يتَضَرَّر المُتفقِّهُ بذلك؛ فعليه نصيحته بِبيَان حاله، بشرط أن يقصد النصيحة.

الخامس: أن يكون مُجاهِرًا بِفِسْقِه أو بِدْعَتِه.

السَّادِس: التَّعرِيف، فإذَا كان الإنسَانُ معروفًا بلقَبٍ، كالأعمش، والأعرَج، والأصم، والأعمَىٰ، والأحْوَل، وغيرهم -جَازَ تعريفهم بذلك، ويَحْرُم إطلَاقه علىٰ جهة التَّنقِيص، ولو أمكن تعريفه بغير ذلك كان أَوْلَىٰ»، اهـ بتصرف؛ فليَرْجِع مَن أراد تفصيلًا.

ومع ذلك، فيبقَىٰ نظَرٌ فِي تسميتها «غيبة»، ولكِن: «تظلُّم، أو نصيحة... إلخ».

واستُعمِل أكلُ اللَّحْم في التَّشبيه لأمرين:

الأوَّل: أنَّ عادة العرَب بذلك كانت جارية.

قال المقَنَّع الكِنْدِيُّ:

فَإِنْ أَكَلُوا لَحْمِي وَفَّرْتُ لُحُومَهُمْ وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُم مَجْدَا

وهو في «ديوان الحماسة» (٢/ ٣٨)، ونقله الماوردي في «النكت والعيون» (٥/ ٣٣٥) عن قتادة.

الثَّاني: إشارة إلىٰ أنَّ عِرْض الإنسَان كدَمِهِ ولَحْمِه، وهذا من باب القياس الظاهر؛ لأن عرض المرء أشرف مِن لحمه.

فيَامَن أصابتك غيبةُ مغتاب، لا تُلقِ عليه العِتاب؛ فإنِّي مُذَكِّرُك بقول القائل:

يُشَارِكُكَ المُغْتَابُ فِي حَسَنَاتِه وَيُعطِيكَ أَجْرَيْ صَوْمِهِ وَصَلَاتِه

وَيَحْمِلُ وِزْرًا عَنكَ ضَنَّ بِحَمْلِه عَنِ النُّجْبِ مِنْ أَبْنَائِهِ وَبَنَاتِه =

يَا بُنَيَّ: لَا تَحْسُدْ أَخَاكَ عَلَىٰ نِعْمَةٍ أَنْعَمَ اللهُ بِهَا عَلَيهِ دُونَكَ، فَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَعْطَاكَ كَمَا أَعْطَاهُ.

يَا بُنَيَّ: لَا يَسْتَفِيدُ الحَسُودُ مِنْ حَسَدِهِ إِلَّا العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ؛ إِنَّكَ إِذَا حَسَدْتَ أَخَاكَ أَبْغَضَكَ وَعَادَاكَ[١]، وَأَبْغَضَكَ لِهَذَا الخُلُقِ الذَّمِيمِ كُلُّ مَنْ عَرَفَكَ.

فَدَعِ الحَسَدَ -يَا بُنَيَّ-، وَدَعِ الحِقْدَ عَلَىٰ إِخْوَانِكَ وَعَلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً؛ لَا تُضْمِرْ لِأَحَدٍ سُوءًا.

وَإِذَا أَسَاءَ[٢] إِلَيْكَ إِنْسَانٌ ثُمَّ اعْتَذَرَ؛ فَقَابِلْ مَعْذِرَتَهُ بِالقَبُولِ، وَامْحُ مِنْ قَلْبِكَ حُبَّ الانْتِقَامِ مِنْهُ.

يَا بُنَيَّ: كُنْ سَلِيمَ الصَّدْرِ مِنْ حُبِّ الأَذَىٰ؛ يَتَوَدَّدْ إِلَيْكَ النَّاسُ، وَيُحِبُّوكَ.

يَا بُنَيَّ: الحِقْدُ وَالحَسَدُ خُلُقَانِ خَبِيثَانِ لَا يَضُرَّانِ إِلَّا صَاحِبَهُمَا؛ فَلَا الحَسَدُ يَنْقُلُ إِلَيْكَ نِعْمَةَ مَنْ حَسَدْتَهُ؛ وَلَا الحِقْدُ بِضَارٍّ مَنْ أَضْمَرْتَ لَهُ السُّوءَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ.

= فَيَا أَيُّهَا المُغْتَابُ زِدْنِي فَإِنْ بَقِي ... ثَوَابُ صَلَاةٍ أَوْ زَكَاةٍ فَهَاتِهِ

(١) في «ق»: [وأعَادَاك]، وهو خطأ.

(٢) في «ق»: [أَسَاكَ]، وهو خطأ.

وَلَكِنَّكَ إِذَا كُنْتَ حَسُودًا حَقُودًا: يَكَادُ يَلْتَهِبُ قَلْبُكَ مِنَ الغَيظِ لَيْلَكَ وَنَهَارَكَ[(١)].

---

(١) «الحَسَد»، كما عرَّفه أهل العلم: «تمنِّي زوال نعمة المحسود»، فهو مرضٌ قلبيٌّ مُحرِقٌ لصاحبه.

قالَ ابنُ الأعرابِيِّ: «الحسَد يَقْشِرُ القَلْب كما يَقْشر القُراد [أي: القُمَّل ونحوه] الجِلْد؛ فيَمْتَص دمَه»، انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (٢/ ٢٥).

وكانت العرب تُشبِّه حسَد الحاسِد بالنَّار، فقال ابن المعتز في «ديوانه» (٣/ ١٧٨) من بحر (مجزوء الكامل):

اصْبِرْ عَلَىٰ حَسَدِ الحَسُودِ ... فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهْ

فَالنَّارُ تَأْكُلُ بَعْضَهَا ... إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهْ

والحاسد يضر نفسه ثلاث مضرات:

أحدها: اكتساب الذنوب؛ لأن الحسد حرام.

الثَّانية: سوء الأدب مع الله -تعالىٰ-؛ فإنَّ حقِيقةَ الحسَد: كراهية إنعام الله علَىٰ عَبْدِه، واعتِرَاض علَىٰ الله في فِعْلِه بل قدَره!.

الثَّالثة: تألُّم قلبه مِن كثرة همِّهِ وغَمِّه. انظر: «التسهيل لعلوم التنزيل» لابن جزي (٢/ ٦٩٥).

والحسَد أوَّلُ ذنب عُصِيَ الله به في السَّماء بفِعل إبليس اللَّعِين، وأوَّل ذنب عُصِيَ الله به في الأرض بفِعل ولَدِ آدم، فالأوَّل طُرِدَ مِن رحمة الله وخُلِّد في النَّار، والثَّاني قتَل أخاه، وظلَّ نادمًا علَىٰ ذلك متأسِّيًا.. وكما أنَّ الحسَد أول الشرور؛ فهو آخرها.

قال ابنُ السَّمَّاك: «إنَّ اللهَ تعالىٰ أنزل سورةً جعلها عوذة لخلقه مِن صنوف الشر، فلمَّا انتهَىٰ إلىٰ الإعاذة من الحسد؛ جعلها خاتمًا لم يكن بعده في الشَّر نهاية»، انظر: «محاضرات الأدباء» للأصفهاني (١/ ١١٦).

=

يَا بُنَيَّ: إِذَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْكَ بِنِعْمَةٍ؛ فَاشْكُرْهُ، وَلَا تَتَكَبَّرْ عَلَىٰ خَلْقِهِ؛ فَإِنَّ الَّذِي وَهَبَكَ هَذِهِ النِّعْمَةَ قَادِرٌ عَلَىٰ سَلْبِهَا مِنْكَ، وَإِنَّ الَّذِي حَرَمَ غَيْرَكَ قَادِرٌ عَلَىٰ إِعْطَائِهِ ضِعْفَ مَا أَعْطَاكَ.

فَلَا تَتَعَرَّضْ لِغَضَبِ اللهِ تَعَالَىٰ بِالتَّكَبُّرِ عَلَىٰ خَلْقِهِ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ(١).

يَا بُنَيَّ: لَا يَحْمِلَنَّكَ الْغُرُورُ بِمَا أَعْطَاكَ اللهُ عَلَىٰ نِسْيَانِ عُبُودِيَّتِكَ لِمَوْلَاكَ، وَأَنَّكَ وَاحِدٌ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ؛ لَا فَضْلَ لَكَ عَلَىٰ أَحَدٍ مِنْهُمْ عِنْدَ اللهِ إِلَّا بِالتَّقْوَىٰ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ١٣﴾ [الحُجُرات: ١٣].

❀❀

= والحامِل علىٰ الحسد أصلان:

الأوَّل: ازدراء المحسود.

الثَّاني: إعجاب الحاسد بنفسه.

ثم ينشأ عنه الكِبر، ثم الغَيرة، ثُم الغيظ، ثُم الغضب؛ فيُفْضِي إلىٰ أذىٰ المحسود.

فكُن قنوعًا بما آتاك الله، ولا تمُدَّنَّ عيـنَـيْك إلىٰ مَن فضَّلهم الله، وارْضَ بما قسَمَ الله لك.

هِـيَ القَنَاعَـةُ كَنْـزٌ لا نَفَـادَ لَـهُ ... فَكُـنْ قَنُوعًـا وَثِـقْ بِـاللهِ وَاحْتَسِـبِ

وَتُـبْ إِلَـىٰ اللهِ مِـنْ ضِـغْنٍ وَمِـنْ حَسَـدٍ ... وَاقْرَأْ عَنِ الْحَسَدِ الْمَذْمُومِ فِي الْكُتُبِ.

(١) ولنَا في حال الملعون إبليس، وحِقده وتكبُّره علىٰ آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ عبرة إلىٰ يوم القيامة!.

الدَّرْسُ السَّابِعُ عَشَرَ
فِي التَّوْبَةِ، وَالخَوْفِ وَالرَّجَاءِ، وَالصَّبْرِ مَعَ الشُّكْرِ

يَا بُنَيَّ: العِصْمَةُ مِنَ الذُّنُوبِ وَالخَطَايَا لَيْسَتْ إِلَّا لِلأَنْبِيَاءِ -عَلَيهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، فَإِذَا قُدِّرَ عَلَيْكَ[1] الوقُوعُ فِي خَطِيئَةٍ مِنَ الخَطَايَا؛ فَبَادِرْ بِالتَّوْبَةِ إِلَىٰ

(١) بعض النَّاس تَختَلِط عليهم هَذِه المسألة، ويَظنُّون أنَّهم جُبِرُوا علَىٰ المعَاصِي؛ لأنَّها قُدِّرَت عليهم، ولذلك.. لا يعملون الصَّالحات، وقد يتوَقَّفون عن التوبة، أو لَا يَرضَخُون للعِقَاب علَىٰ جرائمهم وسيِّئاتهم؛ فصَارُوا يحتجُّون بالقدَر علَىٰ أفعالهم، ولو تأمَّل هذَا الظانُّ قليلًا لوَجَد أنه فَعَلَ الذنب باختياره دون إجبَار، بل رُبمَا تردَّد بين الفِعل والتَّرك.

وحقيقة الأمر: أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ سبَقَ عِلمُه، وكتَبَ عنده في اللَّوح قبل أنْ يَخلق أحدًا، بل قبل خَلْق السماوات والأرض بأنَّ فلانًا سوف يُولَد يوم كذَا، ويتزوَّج يوم كذا، ويُطِيع أو يعصي... إلخ، ثم جاء الإنسان ففعَلَ ما عَلِمَهُ الله قبل خلق الإنسان.. وهذا لا يلزم منه إجباره علَىٰ الفِعل، بل أجبَره سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ علىٰ ما لم يتركه لاختياره، كمَوْتِه مثلًا، وترَكَ له اختيار أعمال نفسه، مِن حركات، وسَكَنات، وطَاعَات، وسيِّئات... إلخ.

ومَن كان مُحتجًّا بالقدَر علَىٰ فشَلِه ومَعَاصيه، فلمَاذا لا يحتج به علَىٰ نجاحَاته؟!

فحينما يُنجز أمرًا يقول: أنجزتُ، ونجَحتُ! فهل أُجبِر علَىٰ الفشَل فقَطْ، ولم يُجبَر علَىٰ النَّجاح؟!

وتأمل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ =

اللهِ تَعَالَىٰ، وَاسْتَغْفِرْ رَبَّكَ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا.

يَا بُنَيَّ: التَّوْبَةُ مِنَ الذَّنْبِ لَيْسَتْ مُجَرَّدَ كَلِمَةٍ تَقُولُهَا بِلِسَانِكَ!

وَلَكِنَّ التَّوْبَةَ عَلَىٰ الحَقِيقَةِ: اعْتِرَافُكَ بَيْنَ يَدَي مَوْلَاكَ بِالخَطِيئَةِ الَّتِي وَقَعَتْ مِنْكَ، وَاعْتِرَافُكَ بِأَنَّكَ مُذْنِبٌ مُسْتَحِقٌّ لِلعُقُوبَةِ الَّتِي قَدَّرَهَا اللهُ لِهَذَا الذَّنْبِ.

وَأَنْ تَشْعُرَ بِالحُزْنِ وَالنَّدَمِ عَلَىٰ مَا فَرَطَ مِنْكَ.

وَأَنْ تُعَاهِدَ اللهَ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعُودَ لِمِثْلِهِ أَبَدًا.

ثُمَّ ابْتَهِلْ إِلَىٰ اللهِ أَنْ يَصْفَحَ عَنْكَ فِيمَا سَلَفَ[1]؛ فَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْكَ، وَإِنْ شَاءَ

= ﴿مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾، أي: طريقَي الحق والباطل، وقال تعالىٰ: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾، وبهذا تتبيَّن المسألة، والله أعلم.

(١) ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ شروط التوبة النصوح، علىٰ ما دَرَج عليه أهل العِلْم؛ استنباطًا مِن أدِلَّة الكِتَاب والسُّنة، وهي:

١- الإخلاص، بأنْ تكُون التَّوبة خالصةً لله، لا يَأْسًا مِن المعصية، ولا خوفًا مِن بَطْش مُعاقِب، ونحو ذلك.

٢- النَّدَم، فعَلَىٰ التَّائب أنْ يندم علَىٰ فِعله، ويتمنَّىٰ أنْ لم يَكن فَعَلَه، وفي ذلك قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ»، أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٦١٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٤٧)، ومعنىٰ الحديث: أن النَّدم أهَمُّ أركان التَّوبة، كحديث: «الحَجُّ عَرَفَة».

=

عَاقَبَكَ[١].

= ويكون النَّدَم بهذه الأهمِّيَة لأمور، منها:

- أنَّ النَّدَم مُتعلِّق بالقلب، فإذا صَلح القلب ونَدِم؛ صَلح الجسَد، وتوقَّفَتْ الجوارح تبعًا.
- أنَّ الندم سبب للشعور بحلَاوة التوبة، ومِن ثَمَّ الثَّبات بعدها.

ولك أن تتأمَّل الحديث الذي أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) من حديث أنسٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنَّ النبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ...**»، ثم ذكر منها: «**وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»، فلمَّا أراد أنْ يَشْعُر بحلَاوة الإيمَان، طُلِبَ منه كراهِيَة العَوْدَة إلىٰ الكفر، وعليه: فمَن أراد أنْ يَشْعُر بحلَاوة التَّوبة؛ فعليه كراهية العَوْدَة إلىٰ المَعصِيَة.

٣- المُعاهَدة والعَزم علَىٰ عدَم العودة إلىٰ المعصية، مع التَّخلُّص والإقلَاع.

٤- أنْ يُؤدِّيَ الحق إلىٰ أصحابه، وهذا شرط مهم -لم يذكره الشيخ رَحِمَهُٱللَّهُ-، يتعلَّق بِمَنْ وقَع في معصيةٍ بَيْنَهُ وبين إنسَان، كسَرِقَةِ مال، أو غِيبَة، أو المَظَالم علَىٰ العموم؛ وذلك لِمَا أخرجه البخاري (٢٤٤٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٣٦١) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «**مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَمَالِهِ، فَلْيَسْتَحِلَّهُ الْيَوْمَ قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَهُ بِهِ حِينَ لَا دِينَارَ وَلَا دِرْهَمَ، فَإِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ؛ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَجُعِلَتْ عَلَيْهِ**».

(١) يتبادَرُ إلىٰ أذهَان البَعْضِ أنَّ المشيئة تكون مع فَاعِلِي الكبائر دون الصَّغائر، إلَّا أنَّ الصَّغائِر أيضًا تَحتَ المَشِيئة؛ وذلك لأمور، منها:

- عموم قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، فقوله: ﴿مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾، يشمل كُلَّ ما هو دون الشِّرك من كبائر وصغَائر.
- أنَّ الأصل وقوع العِقَاب علَىٰ مَن عَصَىٰ.

=

هَذِهِ -يَا بُنَيَّ- حَقِيقَةُ التَّوْبَةِ وَالاسْتِغْفَارِ، لَا أَنْ تَقُولَ بِلِسَانِكَ: «تُبْتُ إِلَىٰ اللهِ»، وَأَنْتَ مُصِرٌّ عَلَىٰ مُخَالَفَةِ مَوْلَاكَ.

إِنَّ التَّوْبَةَ بِاللِّسَانِ بِدُونِ نَدَمٍ، وَلَا إِقْلَاعٍ عَنِ الذَّنْبِ خَطِيئَةٌ أُخْرَىٰ تَسْتَحِقُّ عَلَيهَا العُقُوبَةَ.

يَا بُنَيَّ: انْظُرْ إِلَىٰ نَفْسِكَ مَعَ أَبِيكَ أَوْ أُسْتَاذِكَ إِذَا أَمَرَكَ بِالمُوَاظَبَةِ عَلَىٰ الدَّرْسِ؛ فَأَهْمَلْتَ، وَأَرَادَ عُقُوبَتَكَ، فَقُلْتَ: «إِنِّي تَائِبٌ».

هَلْ تَصِحُّ تَوْبَتُكَ وَأَنْتَ لَاهٍ عَنْ دُرُوسِكَ؟

أَلَيْسَتْ هَذِهِ التَّوْبَةُ مِنَ الأَكَاذِيبِ الَّتِي تَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا عُقُوبَةً أُخْرَىٰ؟

يَا بُنَيَّ: الخَوْفُ مِنَ اللهِ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَذَنْبِهِ، فَمَنِ اشْتَدَّ خَوْفُهُ مِنْ رَبِّهِ؛ فَقَلَّمَا يَقْتَرِفُ[1] خَطِيئَةً مِنَ الخَطَايَا.

فَخَفِ اللهَ -يا بُنَيَّ- خَوْفًا يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ مُخَالَفَةِ أَمْرِهِ، وَلَا تَيْأَسْ مِنْ

= - أنَّ الإنسان لا يعلم أيَغفِر اللهُ عَزَّوَجَلَّ له، ولا يَعْلَم قَبُول تَوْبَتِه أصلًا!

فلهذا، يجب ألَّا يَتهَاوَن أحدٌ بكبيرٍ أو صغِير -معتمدًا علَىٰ المشيئة؛ لأنه قد لا يدخل أصلًا تحت المشيئة -فيُعَذَّب قَبْل مَصِيره إلىٰ الجنَّةَ إنْ كانَ مُوحِّدًا-؛ شملَنا اللهُ بِعَفْوِهِ ورَحْمَتِه، آمين.

(١) في «ق»: [تقترِف]، وهو خطأ.

رَوْحِ اللهِ إِذَا فَرَطَتْ مِنْكَ خَطِيئَةٌ، وَابْتَهِلْ إِلَىٰ اللهِ فِي سِرِّكَ[1] وَجَهْرِكَ، وَاسْأَلْهُ العَفْوَ وَالمَغْفِرَةَ؛ إِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ.

يَا بُنَيَّ: إِذَا أَصَابَتْكَ مُصِيبَةٌ فِي نَفْسِكَ أَوْ مَالِكَ، أَوْ فِي عَزِيزٍ عِنْدَكَ:

فَاصْبِرْ وَاحْتَسِبْ أَجْرَكَ عِنْدَ اللهِ.

وَقَابِلْ قَضَاءَ اللهِ وَقَدَرِهِ بِالرِّضَا وَالقَبُولِ.

وَاشْكُرْ مَوْلَاكَ عَلَىٰ لُطْفِهِ بِكَ، وَإِحْسَانِهِ إِلَيْكَ، إِذْ[2] لَمْ يُضَاعِفِ المُصِيبَةَ عَلَيْكَ.

وَاسْأَلْهُ اللُّطْفَ فِي القَضَاءِ وَالقَدَرِ، وَقُلْ: «اللَّهُمَّ إِنِّي لَا أَسْأَلُكَ رَدَّ القَضَاءِ، وَلَكِنْ أَسْأَلُكَ اللُّطْفَ فِيهِ»[3].

---

(١) في «ع» [سرَّك] بنصب الراء، وهو خطأ.

(٢) في «ق»: [إِذَا]، وهو خطأ.

(٣) وَهَذَا سبقُ قلَمٍ مِن الشَّيخ -غفرَ اللهُ لنَا وَلَه-؛ لأنَّ هَذَا اعتِدَاءٌ في الدُّعاء، بَل الدُّعاء بهذه الصِّياغة مخالفٌ لغيره مِمَّا ثبَتَ عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد قال في دعاء الوِتر، فيما صح عن أبي داود (١٤٢٥)، والترمذي (٤٦٤)، وصححه الألباني في «صفة الصلاة» (ص٩٥): «**وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ**»، وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعوَّذ بالله مِن «**سُوءِ القَضَاءِ**»، وذلك عند البخاري (٦٣٤٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وأخرج الترمذي (٢١٣٩) بسندٍ حسَّنه، وأيضًا حسنه الألباني في «الصحيحة» (١٥٤)، عن سَلْمان الفارسي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا يَرُدُّ القَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءُ**».

=

يَا بُنَيَّ: لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَىٰ الغَيْبِ؛ لَاخْتَرْتَ صُنْعَ اللهِ بِكَ.. فَمَا مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا وَعِنْدَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْهَا؛ فَلَا تُنَازِعِ الأَقْدَارَ، وَلَا تَعْتَرِضْ عَلَىٰ مَوْلَاكَ.

فَإِنَّهُ الفَعَّالُ لِمَا يُرِيدُ، وَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الحَكِيمُ الخَبِيرُ.

= **فالصحيح إذَنْ**: أنْ يَسألَ اللهَ العبدُ العافية؛ لأنه بهذا الدعاء الباطل كالذي يقول: «اللهم لا تمنع المصيبة، ولكن خففها»، أو كمريضٍ يقول: «اللهم لا تشفني، ولكن خفف عني».

وفي شرح حديث «لَا يَرُدُّ القَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءُ»، قال المناوي في «فيض القدير» (٦/ ٤٤٩): «أرادَ بالقضَاء هنا الأمر المُقَدَّر لوْلَا دعاؤه، أو أراد برَدِّه وتسهيله فيه حتىٰ يصير كأنه رُدَّ، وقال بعضهم: شرَعَ اللهُ الدُّعاء لعباده لِيَنالُوا الحُظوظَ التي جُعِلَت لهم في الغَيْب، حتَّىٰ إذا وصلت إليهم فظهرت عليهم؛ توَهَّم الخَلْق أنهم نالُوها بالدُّعاء -فصَار للدُّعاء مِن السُّلطان ما يَرُد القضَاء».

وقال المباركفوري في «تحفة الأحوذي» (٥/ ٥٧٥): «القضاء هو الأمر المُقَدَّر، وتأويل الحديث: أنه إنْ أراد بالقضَاء ما يخافه العَبْدُ مِن نُزول المَكرُوهِ به ويَتوَقَّاه، فإذَا وُفِّقَ للدُّعاء؛ دفعَهُ اللهُ عنه -فتَسْمِيَته قضاءً مَجازٌ علَىٰ حسب ما يعتقده المُتوَقَّىٰ عنه».

وسُئِلت «اللجنة الدائمة للإفتاء» (٢٤/ ٢٩١) برئاسة العلَّامة ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذا الدعاء، فجاء في الجواب: «هذا الدُّعاء لا نعلم أنه وارِدٌ عن النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فترْكُه أحسَن، وهناك أدعية تغني عنه، مثل ما ذكره أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَعَوَّذُ مِنْ جَهْدِ البَلَاءِ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ، وَسُوءِ القَضَاءِ، وَشَمَاتَةِ الأَعْدَاءِ**»، انتهىٰ بتصرف.

إذَنْ، الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يَردُّ ويَدْفَع -لَا يُخَفِّف ويلْطُف فحَسْب- بالدُّعاء ما قد قضَاه علَىٰ العَبْد، وأنَّ دُعاء الله تعالىٰ يَرُدُّ ما يَكرَهُه المرء مِن سوء القضَاء لَا أنَّه يُلَطِّـفُه فقَط.

الدَّرْسُ الثَّامِنُ عَشَرَ
فِي فَضِيلَةِ العَمَلِ وَالكَسْبِ مَعَ التَّوَكُّلِ وَالزُّهْدِ

يَا بُنَيَّ: تَعَلَّمِ العِلْمَ لِتَعْمَلَ بِهِ فِي نَفْسِكَ، وَلِتُعَلِّمَهُ لِلنَّاسِ وَتَحْمِلَهُمْ عَلَىٰ العَمَلِ بِهِ.

وَتَعَلَّمِ العِلْمَ لِتُحْسِنَ بِعِلْمِكَ تَدْبِيرَ حَيَاتِكَ، وَطَرِيقَ مَعَاشِكَ وَمَعَادِكَ.

فَمَا تَعَلَّمْتَ لِيَكُونَ العِلْمُ غُلًّا فِي عُنُقِكَ[1]، وَلَا قَيْدًا فِي رِجْلِكَ يَمْنَعُكَ مِنَ السَّعْيِ، وَيَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَسْبَابِ مَعَاشِكَ.

يَا بُنَيَّ: العَالِمُ أَوْلَىٰ أَنْ يَكُونَ قُدْوَةً لِلنَّاسِ فِي اكْتِسَابِ المَالِ مِنْ وُجُوهِ الحِلِّ؛ لِإِنْفَاقِهِ فِي وُجُوهِ البِرِّ -هَذَا هُوَ العَالِمُ الَّذِي يُشْرِقُ نُورُ عِلْمِهِ عَلَىٰ العَامَّةِ؛ فَيَهْتَدُونَ بِهَدْيِهِ إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَىٰ، وَإِذَا اسْتَدَانَ، وَإِذَا زَرَعَ، وَإِذَا اتَّجَرَ، وَإِذَا أَنْفَقَ.

يَا بُنَيَّ: لَا عَيْبَ عَلَىٰ طَالِبِ العِلْمِ إِذَا عَمِلَ فِي مَزْرَعَتِهِ[2]، أَوْ مَزْرَعَةِ أَبِيهِ بِنَفْسِهِ، إِنَّمَا العَيْبُ كُلَّ العَيْبِ أَنْ يَكُونَ كَلًّا[3] عَلَىٰ النَّاسِ، يَتَرَقَّبُ الصَّدَقَاتِ،

---

(١) «الغُلُّ»: الطَّوق حَوْلَ العُنُق، والجَمْع: أغلَال.

(٢) في «ق»: [زَرعَتِه]، وهو خطأ.

(٣) في «ق»: [كُلًّا]، وهو خطأ، و«الكَلُّ»: هو مَن يعتمِدُ علَىٰ غيره، ويكُون عِبئًا، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ﴾.

وَيَنْتَظِرُ فَضْلَةَ أَصْحَابِ الْمُرُوءَاتِ[(١)(٢)].

يَا بُنَيَّ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْعَىٰ الغَنَمَ قَبْلَ البَعْثَةِ، ثُمَّ كَانَ يَتَّجِرُ حَتَّىٰ بُعِثَ، وَمَا زَالَ كَذَلِكَ حَتَّىٰ كَانَ رِزْقُهُ تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِهِ[(٣)].

---

(١) في «ق»: [المُروءَة] بالإفراد، والأَبْلَغ الجَمْع.

(٢) واليَوْمَ نرَىٰ بَعْضَ مَن انتسَبُوا إلىٰ العِلم يَعِيشُونَ علَىٰ جَمْع التَّبَـرُّعَات، ومنها يملؤون أرْصِدَة هواتفهم، فضلًا عن أرصدة خزائنهم! ويَشتَـرُون منها كتُـبَهم، والأفحَش والأبْجَحُ مَن يَبْنِي ويَعْمُر...، وما ذلك إلَّا بحُجَّة التَّفرغ للعِلْم وإفادة النَّاس! فلماذا لم يفعل هذا ساداتُ العُلمَاء وأعلَام الأتقياء؟! بل علَىٰ الفقر المُدقِع صبَـرُوا، والجُوع تَحمَّلوا، وعاشُوا ومَاتُوا مَحْرُومِي ملَاذِّ الدُّنيا وزَهْوَتها، ولم يمُدُّوا أيدِيَهُم؛ فَخرَجَتْ أرْوَاحُهم، ومَاتَتْ أجسَادُهُم، وبقِيَ عِلْمُهم!.

(٣) **قال المؤلف** رَحِمَهُ اللَّهُ: «روىٰ الإمام أحمد، والبخاري وغيرهما، عن أبي هريرة، عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**مَا بَعَثَ اللهُ نَبِيًّا إِلَّا رَعَىٰ الغَنَمَ. فَقَالَ أَصْحَابُهُ: وَأَنْتَ؟ قَالَ: نَعَمْ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلَىٰ قَرَارِيطَ لأَهْلِ مَكَّةَ**».

وأمَّا التِّجَارة: فقَدْ ثبتَ في السيرة والأحاديث الصحيحة أنه -عليه الصَّلاة والسَّلَام- كان يتَّجِر لخديجة في مالها قبل البَعْثَة.

وروَىٰ الإمام أحمد عن ابن عمر، عن النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**بُعِثْتُ بالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ، حَتَّىٰ يُعْبَدَ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي**»، انتهىٰ.

قلت: الحديث الأول، أخرجه البخاري (٢٢٦٢) بهذا اللفظ من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأما رواية أحمد فليست مِن حديث أبي هريرة، وإنَّما أخرجها أحمد في =

= «المسند» (٣/ ٣٢٦) (١٤٥٣٧) من حديث جابر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: «**قُلْنَا: وَكُنْتَ تَرْعَى الْغَنَمَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَهَلْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا قَدْ رَعَاهَا**».

وأما الحديث الثَّاني، فقد أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٥٠) (٥١١٤) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وحسنه الألباني في «الإرواء» (٥/ ١٠٩).

وإذا أردنا الكلَام عن قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**بُعِثْتُ بالسَّيْفِ...**»، فالكلام يَطُول، ومَهْمَا طال وطالت معه الحُجَّة، وبُيِّــنَت المَحجَّة؛ فلن يَقْنعَ أهل التَّعَسُّف، مِمَّن تَسَرْبَلُوا سَرَابِيل الغَرْب، والمَدَنِيَّة الزَّائفة، إذْ الهدف عندهم هو ليُّ أعناق النُّصوص وإنكارها، لا تقريبها لفَهْمِهَا.

وحَسْبِي أنْ أقُول: الإسلام دين الرَّحمة، والسَّيف علَىٰ مَن طغَىٰ، وخَالَفَ وعانَد؛ فهُمَا مُتلَازِمَان، ولكلٍّ مَوْضِعه، بل إنَّ السَّيف كان سببًا عظيمًا لرَحْمَةِ النَّاس كافة -ظَالِمهم ومُسْتَرحِمهم-؛ حيثُ أزال كثيرًا مِن العقَبات، ومهَّد الطَّريق لنشر الخير والطَّاعات، في وقتٍ كادَ أنْ يَنقطِع طريق الهُدىٰ عن كثير مِن المُسْتَضعَفِين، الَّذِين عذَّبَهُم المُفسِدُون المعاندون، فأزال الإسلَام بالسَّيف مظاهر الظُّلم وأسبابه، وأقامَ به مَعالِم العَدْلِ وأرْكَانه، وحقَّق الرَّحمَة لهُم بمَنْعِهم مِن ظُلمِهم، ثُم تحَقَّقَت الرَّحمَةُ لطالبيها مِن المُستضعَفِين، وكلُّ هَذَا في جُمْلتِه رحمة ظاهرة لِكِلَا الطَرفَيْن.

وقد قال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩٣﴾ [البقرة: ١٩٣]، فالقتال كان ضد المشركين، فإنِ انتهَوا فبِهَا ونِعْمَت، وإنِ اعْتَدَوا فالعُدوان والسَّيف علَىٰ الظَّالمين، وليس عامًّا، وإلَّا فالنَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ توعَّد مَن يقتُل مُسْتَمأمَنًا، أو معاهدًا، أو ذِمِّيًّا، وعاش هو وأصحابه بينهم دون فتنةٍ أو أدنَىٰ مشكلة.

إذَنْ، السيف لم يَكُن غايةً لنَشْر الإسلَام، بل كان وسيلةً لحِمَاية مَن يَدخُلون فيه، وتمهيدًا ضد مُنابذِيه، وليس مِن شَرْط حصُول الرَّحمة أنْ تأتِيَ بنَفْعٍ مَحْض لجميعٍ

وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ(١) تَاجِرًا حَتَّىٰ اسْتُخْلِفَ.

وَكَذَلِكَ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ(٢).

= النَّاس دفعةً واحِدَة، بل يكفي أن تكون سببًا لإزالة الضَّرر والفسَاد.. وما مِن دولةٍ أو نِظَام يَزْعُم الرَّحمة المُطْلَقَة إلَّا وعِندَهُ قوانين وأحكام رادعة للمخالف المُعانِد... فما لكم كيف تحكمون؟!

ويَخرُج عن هذا الفَهم العَمِيق أهلُ التَّكفِير، وزَاعِمُو الجهاد، مِمَّن يُفَجِّرُون أنفُسَهُم، ويَقتُلون المُسلِمِينَ قبل المُستأمَنِين مِن غير المُسلمين؛ فهُم أوَّل مَن لوَّوْا أعنَاق النُّصوص، وطغَوْا في سُوء الفَهم؛ حتىٰ قَتلُوا كُلَّ مَن يُخالِفُهم -باسم هذا الحَدِيث الذي جَهِلُوا فَهْمَه؛ طهَّر الله الأرض منهم، آمين.

(١) في «ق»: [الصديقِ] بجر الآخِر، وهو خطأ.

(٢) ضَرَبَ السلفُ مِن الصَّحابة وتابعيهم بإحسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أروع الأمثلة في كل أمورهم، حتىٰ في الجَمْع بين الدِّين والدُّنيا، فكان منهم التجار، والزُّراع، وأصحاب الحِرَف، ولم يَكُونوا عالةً علىٰ غيرهم، ولم يكن بعضهم عالة علىٰ بعض.

فهذا أبو بكر الصدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي ظل يُتاجِر حتىٰ تولَّىٰ الخِلَافة الرَّاشدة، بل استمَرَّ زمنًا مِن خِلَافته يتاجر؛ فلمَّا وجَدُوا صعوبةً في الجَمْع بين تِجَارته وأمور الخِلَافة؛ فرَضُوا له عطاءً مِن مداخيل التجارة.

وكان عُمَر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يتاجر لبيت المال، حتىٰ إنه تَدايَن لبيت المال، وأوْصَىٰ عند وفاته ابنَه عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسداد دَيْنِه لبيت المال.

وأمَّا عُثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فحدِّث ولا حرَج؛ فهُوَ مِن كِبَار التجار، وهذا معلوم، وكذلك =

= سعد بن أبي وقَّاص، وأبو موسىٰ الأشعري، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو الدرداء، وطلحة بن عبيد الله، وأبو سفيان وابنه معاوية، وغيرهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وكان سَلْمَانُ الفارِسِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **يقول**: «إنِّي لَأُحِبُّ أنْ آكُلَ مِن كَدِّ يَدِي»، «حلية الأولياء» (١/ ٢٠٠).

وكان الأئمَّةُ مِن التَّابِعِينَ وتَابِعِيهم مِن أهْلِ العِلْم كذَلِك:

فعَن مُجاهِد رَحِمَهُ اللَّهُ **في قوله تعالىٰ**: ﴿وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ **[الجمعة: ١٠]، قال**: «اطلبوا التجارة في البحر».

وعنه في قوله تعالىٰ: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ **[البقرة: ٢٦٧]، قال**: «من التجارة»، انظر: «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٣/ ٢٩٩).

وعن سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ **في قوله**: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ **[النور: ٣٧]، قال**: «كانُوا [أيْ أصحاب رسول الله] يَشْتَرُونَ ويَبِيعُون، ولَا يَدَعُون الصَّلَوات المَكْتُوبات في الجمَاعة»، «حلية الأولياء» (٧/ ١٥).

وكان رَحِمَهُ اللَّهُ **يقول**: «عَلَيْكَ بعَملِ الأبْطَال: الكَسْب مِن الحَلَال، والإنفَاق علَىٰ العِيَال»، «حلية الأولياء» (٦/ ٣٨١).

وعن سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللَّهُ **قال**: «لَا خَيْرَ فِيمَن لا يريد جَمْعَ المَال مِن حِلِّه: يُعطِي منه حَقَّه، ويَكُف به وَجْهَهُ عن النَّاس»، «حلية الأولياء» (٢/ ١٧٣).

وعن مُحمَّد بن وَاسِع رَحِمَهُ اللَّهُ **قال**: «طلَبُ المَكَاسِب زَكاةُ الا بدان؛ فرَحِمَ اللهُ مَنْ أكَلَ طَـيِّبًا، وأطْعَمَ طيِّبًا»، «حلية الأولياء» (٢/ ٣٥٠).

وعنه قال: «لَا يَطِيبُ هذَا المَال، إلَّا مِن أرْبَع خِلَال: تجارةٍ مِن حَلَال، أو مِيرَاثٍ بكتَاب، أو عَطَاءٍ مِن أخٍ مُسْلمٍ عن ظَهْر يَدٍ، أو سَهْمٍ مع المُسْلِمِينَ مع إمامٍ عَادِل»، «حلية الأولياء» (٢/ ٣٥٣).

=

فَمَا مَنَعَهُمُ العِلْمُ عَنْ مُزَاحَمَةِ النَّاسِ فِي كَسْبِ الحَلَالِ، بَلْ كَانُوا قُدْوَةً حَسَنَةً فِي وُجُوهِ الكَسْبِ.

يَا بُنَيَّ: إِنَّكَ سَتَطَّلِعُ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنَ الأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ، فِي البَيْعِ، وَالرَّهْنِ، وَالإِجَارَةِ، وَالمُضَارَبَةِ، وَالمُزَارَعَةِ، وَنَحْوِهَا؛ فَاعْمَلْ بِمَا تَعْلَمْ، وَعَلِّمِ النَّاسَ؛ يُضَاعِفِ اللهُ لَكَ الأَجْرَ عَلَىٰ عِلْمِكَ وَعَمَلِكَ.

إِيَّاكَ -يَا بُنَيَّ- أَنْ تَظُنَّ كَمَا يَظُنُّ بَعْضُ الأَغْبِيَاءِ[1] أَنَّ التَّوَكُّلَ عَلَىٰ اللهِ هُوَ

= وكان مالك بن دينار رَحِمَهُ ٱللَّهُ ناسخًا، حتىٰ قال: «دخَلَ عليَّ جابر بن يزيد وأنا أكتُب، فقال: يا مالِكُ، ما لَكَ عملٌ إلَّا هذا؟! تَنْقُلُ كِتَابَ اللهِ مِن ورَقةٍ إلَىٰ ورقَة؟ فقلت: هذا واللهِ الكَسْبُ الحلال»، «حلية الأولياء» (٢/ ٣٦٧).

وكان ضَمرة بن حبيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ، إذَا قامَ إلىٰ الصَّلاة، قِيل: «هذا أزْهَدُ النَّاس في الدُّنيا»، فإذَا عمِلَ للدُّنيا، قيل: «هَذَا أرْغَبُ النَّاس فِي الدُّنيا»، «حلية الأولياء» (٦/ ١٠٣).

وعن حمَّاد بن زَيْدٍ قال: قال لي أيُّوب: «الْزَمْ سُوقَكَ، فإنَّكَ لَا تَزَالُ كَرِيمًا علَىٰ إخْوَانِكَ، مَا لَمْ تَحْتَجْ إليهم»، «حلية الأولياء» (٣/ ١١).

وكان أبو حنيفة تاجرًا، وأحمد بن حنبل خبَّازًا، بل مِن عُلمَاء عَصْرنا العلَّامة الألباني كان يحترف مهنة تصليح الساعات، وكان العلَّامة مقبل الوادعي بوَّابًا، ثم مُزارعًا، والأمثلة كثيرة جدًّا لَا يُمكِن حصرها.. ومع كل هذا -يا طالب العلم- لم يَطْغَ شيءٌ عِندَهُم علَىٰ شَيء، بل وفَّقُوا بين هذا كله، ولم يمدُّوا أيديهم لغيرهم؛ فأعلَىٰ اللهُ ذِكْرَهُم، وبارَكَ في عُلومِهم.. فالْزَمْ طرِيقَ أسْلَافِك.

(١) في «ق»: [الأغنياء]، وهو خطأ.

تَرْكُ العَمَلِ، وَالاسْتِسْلَامُ لِلأَقْدَارِ!

إِنَّ الزَّارِعَ الَّذِي يَحْرُثُ أَرْضَهُ، وَيَعْمَلُ فِيهَا بِنَفْسِهِ لَيْلًا وَنَهَارًا مِنْ أَفْضَلِ المُتَوَكِّلِينَ عَلَىٰ اللهِ إِذَا حَسُنَتْ نِيَّتُهُ -فَإِنَّهُ وَضَعَ الحَبَّةَ فِي بَطْنِ الأَرْضِ، وَأَحْسَنَ عَمَلَهُ، وَفَوَّضَ الأَمْرَ إِلَىٰ رَبِّهِ؛ فَإِنْ شَاءَ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ، فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ، وَإِنْ شَاءَ أَمَاتَهَا؛ فَلَمْ تُنْبِتْ شَيْئًا.

يَا بُنَيَّ: لَيْسَ الزُّهْدُ تَرْكَ العَمَلِ، وَلَكِنَّ الزُّهْدَ[1] أَنْ يَخْرُجَ حُبُّ الدُّنْيَا مِنْ قَلْبِكَ[2].

وَإِذَا[3] **اكْتَسَبْتَ أَكْثَرَ مِنْ حَاجَتِكَ**: وَاسَيْتَ الضُّعَفَاءَ، وَتَصَدَّقْتَ عَلَىٰ الفُقَرَاءِ.

وَلَمْ[4] يَدْفَعْكَ الحِرْصُ وَحُبُّ الاسْتِكْثَارِ إِلَىٰ طَلَبِ الدُّنْيَا مِنْ غَيرِ الوجُوهِ

---

(١) في «ق»: [الزهدُ] بالرفع، وهو خطأ.

(٢) كَانُوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ مِن أزهَد النَّاس، ومع ذلك لم يتكلوا، ولم يَتركُوا الأعمَال التي تُصلح مَعايِشَهُم؛ لأَنَّهُم عرَفُوا **حقيقة الزُّهد**، وهو: تَرْك ما لَا ينفع في الآخِرَة، والنَّظر إلىٰ الدُّنيا بعَيْنِ الزَّوال، وعدَم الفَرح بإقبالها، والحزنِ علَىٰ إدْبَارِهَا، بل سَفَر القلب مِن مُغرياتها - إلَىٰ الآخرة ونعيمها.

وأفْضَلُ الزُّهد: إخفاؤه، **وأصْعبُه**: زُهْد ما للنفس مِن حُظُوظ.

وأخيرًا -في هذه المسألة أقول: لَيْسَ الزُّهد بتَرْك الحلَال، وإضَاعةِ المَال، ومُجانبَة الأعمال، ولكن بقِصَر الآمَال، والنَّظَر إلىٰ المآل، والعمَل لِوَجْهِ ذِي الجَلَال.

(٣) في «ق»: [فَإِذَا].

(٤) كذا في النسختين: «ق»، و«ع»، ولعل الصواب: «وَلَا»، والله أعلم.

الَّتِي أَحَلَّهَا اللهُ لِعِبَادِهِ.

فَيَا بُنَيَّ[١]: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص: ٧٧].



(١) في «ق»: [يَا بُنَيَّ].

الدَّرْسُ التَّاسِعُ عَشَرَ
فِي إِخْلَاصِ النِّيَّةِ للهِ -تَعَالَى- فِي جَمِيعِ الأَعْمَالِ

يَا بُنَيَّ: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِيءٍ مَا نَوَىٰ»(١).

إِنَّ الَّذِي يَتْرُكُ الأَكْلَ وَالشُّرْبَ مِنْ(٢) طُلُوعِ الفَجْرِ إِلَىٰ غُرُوبِ الشَّمْسِ بِنِيَّةِ الصَّوْمِ، كَالَّذِي يَتْرُكُهُمَا لِأَنَّهُ لَمْ يَجِدْهُمَا! لَكِن:

الأَوَّلَ: لَهُ أَجْرُ الصَّائِمِ.

وَالثَّانِي: لَيْسَ لَهُ ذَلِكَ الأَجْرُ(٣).

---

(١) قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن عمر بن الخطاب، عن النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ».

قلت: أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧)، وهو مِن أعظم الأحاديث التي صحَّت عن رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذْ هو «أصْل الإسْلَام، وخُمُس العِلم»، كذا ذكر الحافظ العراقي في «طرح التثريب» (٦/١)، وغيرُه في مواضع أخرىٰ.

(٢) في «ق»: [في] وهو خطأ.

(٣) أي: إنَّهما سواء في ظاهِر العمَل، هَذَا أجاع نفسه والآخَر كذَلِك، ولكن الثَّاني ليْسَ له أجر الصَّائم بمجرد جوعه، ولَا مَن أجاع نفسه بقَصْد إنقاص وزنه له أجر صائم، وعلَىٰ هذا تَدُور سائر العبادات، فمَن تعلَّم ليحصل علىٰ شهادةٍ فلَهُ نِيَّته، ومَن أنْفَقَ ليُذكَر أو يُشكَر؛ فلَهُ نِيَّته، ومَن ظلَّ يَخرُج علَىٰ القَنوات، ويَكتُب المقالَات ليَكُون متفاعلًا =

فَأَخْلِصِ النِّيَّةَ لِمَوْلَاكَ -يَا بُنَيَّ- فِي جَمِيعِ أَعْمَالِكَ.

تَفَقَّهْ فِي الدِّينِ، بِنِيَّةِ: الوُقُوفِ عِنْدَ حُدُودِ اللهِ فِيمَا أَحَلَّ وَحَرَّمَ.

فَمَا كَانَ حَرَامًا اجْتَنَبْتَهُ[1]؛ لِأَنَّ اللهَ نَهَاكَ عَنْهُ، وَمَا كَانَ وَاجِبًا فَعَلْتَهُ؛ لِأَنَّ اللهَ أَمَرَكَ بِهِ.

وَتَعَلَّمْ عُلُومَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ[2]؛ لِتَقْوَىٰ عَلَىٰ إِدْرَاكِ الحِكَمِ وَالمَوَاعِظِ الَّتِي

= ظاهِرًا؛ فلَهُ ما نوَىٰ، ومَن عزَّىٰ مُسلمًا مجاملةً ألَّا يُقال إنَّه لم يُعَزِّه؛ فله نيَّته.. فكُلُّ إنسانٍ نوَىٰ نيةً؛ فله ما نوَىٰ.

(١) في «ش»: [اجْتَنِبْهُ] وهو خطأ.

(٢) يَنصرفُ ذِهْنُ كَثِيرينَ إلىٰ أنَّ عُلُوم اللُّغة: «عِلْم النَّحو»، وهذا خطأ، وقد ظُنَّ هذَا لِغَلَبةِ هَذَا العِلْم وشُهرته، حتىٰ ظَنَّ بَعْضُ النَّاس أنهم مَا إنْ عَرَفُوا النَّحْوَ إلَّا وصَاروا لُغَويِّين!
لكن المَقصُود بعلوم اللُّغَة علَىٰ الحَقِيقَة: مَجمُوعةُ عُلومٍ يُتَّقَىٰ بها الخَلل في كلَام العرَب وأسَالِيبِهِمْ، لفظًا وخطًّا، ويُتوصَّل بها إلىٰ الأغْرَاض القُرآنِيَّة وَالنَّبوِيَّة وأسَالِيبِهَا.
قال ابن خلدون رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عُلوم اللِّسَانِ العَرَبيِّ أرْكَانُه أربعَة، وهي: اللُّغَة، والنَّحو، والبيَان، وَالأدَب، ومَعْرفَتُها ضَرُورِيَّةٌ علَىٰ أهل الشَّريعة، إذْ مَأْخذ الأحْكَام الشَّرعِيَّة كُلها مِنَ الكِتَابِ والسُّنة، وهِيَ بِلُغَةِ العرَب، ونقَلَتُها مِن الصَّحابةِ والتَّابعِينَ عرَب، وشَرْح مُشْكلَاتها مِن لُغَاتِهم؛ فلَا بُدَّ مِن معرفة العُلوم المُتعلِّقة بهذَا اللِّسَانِ لِمَنْ أرادَ عِلْمَ الشَّريعة»، «المقدمة» (٣/ ٢٣٦).
ومِن العُلمَاء مَن زادَ علَىٰ ذلِكَ -أصولًا وفروعًا- حتَّىٰ بَلغَتْ اثني عَشر عِلْمًا:

١- عِلْم اللُّغة. ٢- عِلْم التَّصرِيف. ٣- عِلْم النَّحو. =

اسْتَوْدَعَهَا اللهُ تَعَالَىٰ فِي كِتَابِهِ الكَرِيمِ، وَأَجْرَاهَا عَلَىٰ لِسَانِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

= ٤- عِلْم المَعَانِي. ٥- عِلْم البيَان. ٦- عِلْم البَدِيع.
٧- عِلْم العَرُوض. ٨- عِلْم القَوافِي. ٩- عِلْم قوَانِين الكِتَابَة.
١٠- عِلْم قوَانِين القِرَاءة. ١١- عِلْم إنشَاء الرَّسائل والخُطَب.
١٢- عِلْم المُحاضَرات، ومِنْهُ التَّوارِيخ. ١٣- عِلْم الاشتِقَاق.
وأمَّا «عِلْم البَدِيع» فيعدُّه بعض العُلمَاء مِن «عِلم البيَان»، أو تَتْمِيمًا لعِلمَي «المَعَانِي»، و«البيَان»، ومنهم مَن عَدَّها سِتَّة عَشر عِلْمًا علىٰ وجه التَّحقِيق.
ونظَمَ بعضهم، قائلًا:

صَرْفٌ بَيَانٌ مَعَانِي النَّحْو قَافِيَةٌ ... شِعْرٌ عَرُوضٌ اشْتِقَاقُ الخَط إِنْشَاءُ
مُحَاضَرَاتٌ وَثَانِي عَشْرِهَا لُغَةٌ ... تِلْكَ العُلُومُ لَهَا الآدَابُ أَسْمَاءُ

ومِن هذه العلوم ما يُعدُّ أُصولًا، ومنها ما يُعدُّ فُروعًا كما قلتُ سَابقًا.
فالأصول مثل: «علم اللغة» ويختصُّ بالبحث عن كَوْن المفردات ومَظانِّها، و«التَّصريف» ويختصُّ بصُوَر المفردات وهيئاتها، و«الاشتِقَاق» ويختصُّ بانتساب الكلمات لبعضها البعض، و«القافية» ويختصُّ بأواخِر الأبيات، و«النَّحو» ويختص بأواخر الكلمات؛ لِرَدِّ المعاني لأصولها، وهكذا.
أما الفروع، مثل: «الخَط، أو قوانين الكتابة» ويَخْتَص بنقوش الكتابة، وهو قسمان:
- قِسْمٌ لُغَوِيٌّ: ويشمل الإملَاء، وعلَامات التَّرقِيم.
- قِسْمٌ جَمَالِيٌّ: ويشمل الخطوط العربية الأساسِيَّة السِّتة، وهي: «الرُّقعة، والنَّسْخ، والفارسِي، والثُّلُث، والدِّيوَانِي، والكُوفِي» ثُم مَا تفرَّعَ عنها.
و«إنشاء الرسائل والخُطَب» ويختصُّ بالنَّثر، وهكذا.. وعليه: فكُلُّ لُغَوِيٍّ نَحْوِيّ، وليس كلُّ نَحْوِيٍّ لُغويًّا.

فِيمَا صَحَّتْ رِوَايَتُهُ عَنْهُ(١).

---

(١) إذَنْ، الغاية مِن تَعَلُّم «علوم اللغة»: مَا ذَكَر الشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومَا بيَّنتُه في التَّعريف آنفًا: «يُتوصَّل بها إلىٰ الأغْرَاض والأساليب القرآنية والنَّبويَّة»، وإلَّا فمَن لم يُدرك هَذِه العُلوم، ويَفْهَم أساليب العرَب الَّذِين نزَّلَ فِيهِمْ القرآن، وسَمِعوا السُّنة مِن صاحبها صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؛ أنَّىٰ له التَّـدبُّر؟!

وبالمثال يتَّضِح المقال، فأقول: لو تأمَّلنا النَّص الَّذِي سيأتي معَنا، وهو في مُنتهَىٰ تَذَوُّق الجَمَال البلاَغِي القرآني، حيث قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢﴾ [فصلت: ١٢]، لوجدنا الآتي:

١- أسْلُوب الالْتِفَات، فضَمِير الغَائب -الَّذِي تقديره: «هو» في قَوْلَيْه: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾، و﴿أَوۡحَىٰ﴾ أي: هُوَ تعالَىٰ قضَىٰ وأوْحَىٰ- انتقل إلىٰ ضمير المُتكلِّم ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ﴾؛ وذلك لجَذْب الاهتِمَام بالإخبَار عن نَفْسِه سبحانه بخَلق الكواكب والنُّجوم خصوصًا؛ لأنَّ هناك طائفة اعتقدَتْ في النجوم أنَّها ليْسَت في سَماء الدُّنيا، وليْسَتْ حِفظًا، ولَا رُجومًا؛ فلذلك عَدَل إلىٰ ضَمِير المُتكلِّم -للإخبار عن نفسه بخَلقها بطريقٍ مُباشِرَة.

وكأنه سبحانه أراد أن يقول لهم: إن كنتم تؤمنون بخَلْق السَّماوات؛ فإنَّا قد خَلَقْنَا هَذِه النُّجوم علَىٰ النحو المَوْصُوف زِينةً وحِفظًا؛ لِكَون الإيمان بِهَذا مِن أصول الاعتِقاد، ولتَكْذِيب تلك الفِرْقَة المُكذِّبة؛ فهو أسلوب: الْتِفَات، الغَرَض منه: الاهتِمَام.

٢- الاستِعَارة، حيث استَعارَ كلمة (مصابيح) للنجوم.

٣- الجَمْع، حيث جمَعَ بين «الزِّينَة» التي هي في المَصابِيح، و«الحِفْظ» الَّذِي هو لِرَجْم الشَّياطين؛ مَنْعًا لاستِرَاق السَّمع.

٤- إبْرَاز أهمِّية الفَواصل القرآنية، ففي قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢﴾ =

وَتَعَلَّمِ العُلُومَ العَقْلِيَّةَ؛ لِتَقْوَىٰ بِهَا حُجَّتُكَ[(١)]، وَتَسْتَضِيءَ بَصِيرَتُكَ فِي نُصْرَةِ دِينِ اللهِ، وَإِرْشَادِ الخَلْقِ إِلَىٰ سَبِيلِ الهُدَىٰ[(٢)].

= تَمْكِينٌ لِلمَعْنَىٰ، فالعِزَّة والقُوة: للبناء والتَّزيين، والعِلْم: بحال عدَدِها، ومُدَّة خَلْقِهَا.

والله تعالىٰ أعلم، وهذا غيضٌ مِن فَيض يدلُّ علَىٰ أهمية علوم اللغة لفهم كلَام الله عَزَّوَجَلَّ، وإنْ رُمْتُ ضَرْبَ أمثلةٍ علَىٰ الاشتِقَاقات، والمُفرَدات، والرَّسم، والنَّحو وما في اللُّغة مِن جَمالٍ وعُلوم وُجِدت في القرآن والسُّنة؛ لاحتجتُ لكِتَابٍ آخَر، بل لكتُبٍ وأسْفَار؛ فعَجَائبها لَا تَنْـقَضِي، وإنَّما كانت إشارة وتَشْويقًا لإبراز أهمِّية هذه العلوم الشَّريفة لطالب العِلم.

(١) في «ق»: [حُجَّتَك] بفتح التاء، وهو خطأ.

(٢) سبق الكلَام عن العلوم العقلية، ويَحسُن هنا التنبيه علَىٰ أهمِّـيَّتِهَا إذا كانت مقصودةً لتَقْوِيَة الحُجَّة، ونَفْع الإسلَام، والذَّب عنه، ورَدِّ شبهات أهل البَاطِل مِن الملَاحدة وغيرهم.

وقد أوْرَدَ بكر أبو زيد -عفا الله عنه- في الكِتَاب الَّذِي قدَّم له «الجامع لسيرة شيخ الإسلام» عن الصفدي -تلميذ شيخ الإسلام ابن تيمية- أنَّ ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ كانَ مُلِمًّا بالحِسَاب، والهندَسة، ثُمَّ ذكر قصَّةً عجيبةً في هَذَا.

فجَمَع اللهُ لابن تيمِيَّة بين العُلوم العَقْلِيَّة والنَّقلية، وهَذَا سِرُّ نبُوغِه، وقُوَّةِ حُجَّته؛ فمَا مِن طائفةٍ وُجِدَتْ في عهده إلَّا وَهَّمَ مَبانِيهَا، ودَحَض باطِلهَا؛ فبدأ بالجهمية المُعَطِّلة، ومَرَّ بالرَّافضة والصُّوفية، حتىٰ انتهَىٰ بالنَّصَارَىٰ والدَّهرية.

ولكن قبل هذا كله -يا طالب العِلم- عليك بالتَّضَلُّع بفَهْم القُرآن والسُّنة، والعقيدة الصَّحِيحَة، والمنهج الصَّافي الَّذِي انتهجَه الأسْلَاف الصَّالحون، وأوَّل هَذَا وآخره: دوَام سؤال ربِّك الثَّباتَ والإخلَاص.

يَا بُنَيّ: اجْعَلْ أَعْمَالَكَ كُلَّهَا لِخِدْمَةِ مَوْلَاكَ الَّذِي خَلَقَكَ وَسَوَّاكَ، لَا تَطْلُبْ بِهَا غَيْرَ وَجْهِ رَبِّكَ.

اتْرُكِ الشَّرَّ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَمَرَكَ بِتَرْكِهِ، وَافْعَلِ الخَيْرَ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَمَرَكَ بِفِعْلِهِ(١).

الْزَمِ الأَدَبَ مَعَ إِخْوَانِكَ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَمَرَكَ بِهِ(٢)، لَا لِأَنَّ مَخْلُوقًا مِثْلَكَ

---

(١) ويَحسُن ذِكر الآية الجَامِعَة، في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝﴾ [النحل: ٩٠]، فهي أجمَعُ آيةٍ في القرآن للخير، والنَّهي عن الشَّر، كما ذُكِر عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقال قتادة رَحِمَهُٱللَّهُ نحو ذلك.

ثم قال الطبريُّ رَحِمَهُٱللَّهُ: «وإنَّما نَهىٰ عن سفَاسِف الأَخلَاق ومَذامِّها»، انظر: «تفسير الطبري» (١٧/ ٢٨٠).

(٢) مِن صُوَر الأوامر الأدَبيَّة، والمَحاسن الأخلَاقية التي أمر الله بها في كتابه: الآيةُ الجَامِعَة السَّابقة، حيث أَمَر فيها: بالعَدْل الَّذِي يَقْتَضِي تَحاشِي الظُّلم، والإحسَان إلىٰ الخَلْق بالتأدُّب معهم، ولِين الجَانب لَهُم، وعدم سبِّهم بفُحش الأقوال، وغير ذلك مِن مَعاني الإحسَان الواسعة، كما أمرَ سبحانه: بإيتَاء ذَوِي القُربَىٰ الَّذِي يقتضي الصِّلَة، وتأليف القلوب، وعدَم المُقاطعة والبَغْي.

ومِن الآداب التي أمَر بها أيضًا: أداء الأمَانة الذي يقتضِي النَّهْيَ عن الخِيانة، والوفاء بالعهد، والصِّدق، والصَّبر، وحِفظ النفس، وحِفظ اللسان، وحِفظ الفَرْج...إلخ.

ونَهىٰ سبحانه عن: الكِبْر، والإسْرَاف والتَّبذِير، والبُخل، والكَذِب، وعدم التكلُّم بغير عِلم...إلخ.

يُعَاقِبُكَ عَلَىٰ تَرْكِهِ.

لَا تَتَعَدَّ عَلَىٰ حُقُوقِ العِبَادِ[١]؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ نَهَاكَ عَنِ العُدْوَانِ، لَا لِأَنَّكَ إِذَا تَعَدَّيْتَ عَلَىٰ الحُقُوقِ تُحاكَمُ، وَيُقْضَىٰ عَلَيْكَ بِرَدِّهَا لِأَهْلِهَا.

لَا تَخُنْ أَحَدًا مِنْ خَلْقِ اللهِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ نَهَاكَ عَنِ الخِيَانَةِ، لَا خَوْفًا مِنْ عُقُوبَةِ مَخْلُوقٍ مِثْلِكَ.

أَطِعْ أَبَاكَ وَأُمَّكَ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَمَرَكَ بِطَاعَتِهِمَا، لَا خَشْيَةَ أَنْ تَنْقَطِعَ النَّفَقَةُ عَنْكَ إِذَا عَصَيْتَهُمَا.

أَطِعِ الحُكَّامَ وَأَوْلِيَاءَ الأُمُورِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَمَرَكَ بِطَاعَتِهِمْ[٢]، لَا طَمَعًا فِي

---

(١) كان يَحْسُن للشَّيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنْ يَقُولَ: لَا (تَعْتَدِ) علَىٰ حقوق العباد؛ لأن الفعل «تَعَدَّىٰ» غالبًا ما يأتي متعديًا بنفسه؛ كما قال -تعالىٰ-: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٢٩﴾، أمَّا الفعل «يَعْتَدِي» فيَتَعَدَّىٰ بـ «علَىٰ»؛ كما قال -تعالىٰ-: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾، والله أعلم.

(٢) وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾.

وقوله أيضًا: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٣﴾.

وفي قول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ عَنْ السُّلْطَانِ شِبْرًا فَمَاتَ؛ فَمِيتَةٌ جَاهِلِيَّةٌ»، أخرجه البخاري (٦٦٤٥)، و(٦٦٤٦)، و(٦٧٢٤)، =

عُلُوَّ المَنْزِلَةِ عِنْدَهُمْ، وَلَا خَوْفًا مِنْ سَطْوَتِهِمْ وَبَطْشِهِمْ[(١)].

أَشْفِقْ عَلَىٰ الضُّعَفَاءِ، وَالمَرْضَىٰ، وَاليَتَامَىٰ، وَالمَسَاكِينِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَمَرَكَ بِالإِشْفَاقِ عَلَيهِمْ؛ لَا لِيَقُولَ النَّاسُ عَنْكَ إِنَّكَ مِنَ المُحْسِنِينَ.

احْذَرْ أَعْدَاءَكَ وَأَعْدَاءَ قَوْمِكَ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَىٰ أَمَرَكَ بِالحَذَرِ مِنْهُمْ، لَا حُبًّا فِي الانْتِقَامِ مِمَّنْ يُعَادِيكَ.

= ومسلم (١٨٤٩) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال ابن الأثير: «**فميتةٌ جاهليَّةٌ**: أيْ علَىٰ مَا مَاتَ عليه أهلُ الجاهِليَّة قبل مَبْعَث النبيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِن الجَهالَةِ والضَّلَالة»، «جامع الأصول» (٤/ ٧٠).

وعن أبي هُنَيْدَة وائل ابن حُجْر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سأَلَ سلَمَةُ ابنُ يَزِيد الجُعْفِي رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يَا نَبِيَّ اللهِ، أرأيتَ إنْ قامَتْ علَيْنا أُمَراءُ يَسْأَلُونَا حَقَّهُم، ويَمْنَعُونا حقَّنا، فمَا تأمُرُنَا؟ فأعْرَض عنه. ثُمَّ سَأَلَهُ؛ فقالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، فَإِنَّمَا عَلَيْهِمْ مَا حُمِّلُوا، وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُم**»، أخرجه مسلم (١٨٤٦).

والأحاديث النَّبوية في هَذِه المسألة المُهِمَّة كثيرة، لا يَتَّسِع لهَا هَذَا المَقَام المُختصَر، وإنَّما أوْرَدتُ أصْرَحهَا وأوْضحَها، وهذا يكفِي لطالب الحق، أما طالب الجدَل، وصاحب الهَوىٰ فلن يَكْفِيَه مِلْيء الأرض قرآنًا وسُنَّة؛ والله نسألُ الثَّبات علَىٰ الأمر.

(١) كلامه هنا رَحِمَهُ اللَّهُ يُعَدُّ إشارةً بليغةً إلىٰ الردِّ علَىٰ مَن يتَّهِمون أهل السُّنة بالعَمَالة، أو التَّمَلُّق، أو التَّـزَلُّف، أو الخَوْف والجُبن، أو الانتِكاس، بَلْ شطَحَ بعضهم وقال: «عُبودية الحُكَّام»! وما نقمُوا مِن أهل السُّنة إلَّا أنَّهم للحُكَّام طَائِعُون؛ بنصِّ الآيات والأحاديث مُسْتَمْسِكون.

اجْتَهِدْ أَنْ تَكُونَ أَعْمَالُكَ كُلُّهَا فِي خِدْمَةِ مِلَّتِكَ، وَأَبْنَاءِ وَطَنِكَ؛ طَمَعًا فِي رِضْوَانِ اللهِ، وَطَلَبًا لِلأَجْرِ عِنْدَ رَبِّكَ، لَا رَغْبَةً فِي الشُّهْرَةِ وَجَمْعِ الدُّنْيَا[1].

وَفَّقَكَ اللهُ وَأَرْشَدَكَ إِلَىٰ مَا فِيهِ صَلَاحُ دُنْيَاكَ وَآخِرَتِكَ.

---

(١) وهَذِه صارَتْ ظاهرة أهل زماننا -إلَّا مَن رحم الله- ففي بعض المَكاتب والمَصَالح لا يفيد المُوَظَّفون المُواطِنين إلَّا إذا تحصَّلوا علَىٰ رشوة، وخارج هَذِه المَصَالح كثير وكثير -حتَّىٰ فشَا الأمر علَىٰ وسائل الإعلَام، فيخرج فُلانٌ المذيع ليُبدِيَ حالات تستحق المساعدة، ثُم يقول: فعَلْنا وفعلْـنا، وسنَفْعَل...!

ومَا ضَرَّه لو دعَا النَّاس إلىٰ المساعدة فحسب وكان وسيط خير؟!

وكذلك فشَا الأمر عند كثير مِن المترشِّحين إلىٰ الانتخابات! حيث لا تظهر المساعدات إلَّا قُبَيْـل جَمْع الأصوَات! والنَّاس معهم.. بكَذِبهم يُصَدِّقون، وبخِدَاعِهم يُؤمِنُون، فإذا عاقبهم الله بذنوبهم؛ اشتكَوْا رَبَّهُم، وقنَطُوا مِن حَياتهم، وسَبُّوا وُلَاة أَمْرِهِم، وكأنَّهم الطَّائعون المَظلُومون؛ فإنَّا لله وإنَّا إليه رَاجِعُون.

الدَّرْسُ العِشْرُونَ
فِي خَاتِمَةِ الوَصَايَا

يَا بُنَيَّ: أَكْثِرْ مِنْ مُدَارَسَةِ القُرْآنِ، وَاحْفَظْ آيَاتِهِ الشَّرِيفَةَ(١) عَنْ ظَهْرِ قَلْبِكَ.

وَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ؛ فَلَا تَقْرَأْهُ وَأَنْتَ غَافِلٌ عَنْ مَعْنَاهُ.

وَإِذَا أَشْكَلَ عَلَيْكَ فَهْمُ آيَةٍ؛ فَارْجِعْ إِلَىٰ كُتُبِ التَّفْسِيرِ، أَوْ إِلَىٰ أَحَدِ العُلَمَاءِ تَتَعَلَّمْ مَعْنَاهَا.

يَا بُنَيَّ: شَتَّانَ بَيْنَ مَنْ يَقْرَأُ وَلَا يَفْهَمُ مَعْنَىٰ مَا يَقْرَؤُهُ، وَبَيْنَ مَنْ يَقْرَأُ وَمَعَانِي القُرْآنِ الكَرِيمِ حَاضِرَةٌ لَدَيْهِ:

الأَوَّلُ: كَالأَعْمَىٰ، يَمْشِي فِي الطَّرِيقِ لَا يُبْصِرُ مِنْهَا شَيْئًا.

وَالثَّانِي: كَصَاحِبِ البَصَرِ، يَتَّقِي بِبَصَرِهِ مَوَاقِعَ الزَّلَلِ.

يَا بُنَيَّ: رُبَّ قَارِئٍ لِلقُرْآنِ وَالقُرْآنُ يَلْعَنُهُ(٢)؛ فَمَا أَنْزَلَ اللهُ الكِتَابَ

---

(١) في «ق»: [الشَّرِيفَةِ] بالجر، وهو خطأ.

(٢) هُنا تنبيهٌ وتَوْجِيه:

فالتنبيه: أنَّ هذا قولٌ يظنُّه البعض حديثًا عن رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس بذاك، بل هو قولٌ منسوب لأنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد أورده عنه الغزاليُّ في «إحياء علوم

العَزِيزَ[(١)] لِمُجَرَّدِ التِّلَاوَةِ بِلَا فَهْمٍ، وَلَا لِتِلَاوَتِهِ مَعَ فَهْمِ مَعْنَاهُ فَقَطْ!

وَلَكِنْ أَنْزَلَهُ:

- لِامْتِثَالِ مَا أَمَرَ بِهِ.

= الدين» (١/ ٢٧٤)، والآلوسي في تفسيره «روح المعاني» (٢٢/ ١٩٢) كلاهما بغير سند.

والتوجيه: أنَّ مَعْنَاه صَحِيح.

قال العَلَّامة ابنُ باديس رَحِمَهُ اللَّهُ: «وإنَّما معناه: أنَّهُ رُبما تكون له مُخالَفة لبعض أوَامِرِ القرآن أو نواهيه، مِن كَذِبٍ أو ظُلْمٍ مثلًا؛ فيَكُون داخلًا في عُمومِ لَعْنِهِ للظَّالِمِينَ وَالكاذِبين -فخَرَجَ هذا الكلَامُ مَخرجَ التَّقبِيح لمُخالفة القرآن مع تلَاوته؛ بَعْثًا للتَّالي [أي: القاريء] علَىٰ سُرعَة الاتِّعَاظ بآيات القُرآن، وتَعْجِيل المتاب»، «تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير» (ص٣٨).

وسُئِلَ عن معناه العلَّامة ابن باز رَحِمَهُ اللَّهُ، **فقال:** «إنَّ فِي القُرآن ما يَقْتَضِي ذَمَّه ولَعْنه؛ لكونه يقرأ القُرآن وهو يُخالِف أوامره، أو يَرْتكب نوَاهِيَه، يَقْرأ كِتَابَ اللهِ وفي كتاب الله مَا يَقْتَضِي سَبُّه وسب أمثاله؛ لأنهم خالَفُوا الأوامِرَ وارْتكَبُوا النَّواهِي»، «مجموع فتاوىٰ ابن باز» (٢٦/ ٦١).

إذَنْ، فقد يَقرأ قول الله تعالىٰ: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود: ١٨] وهو ظالم، ويقرأ آيات الربا وهو يأكله؛ نسأل الله العافية.

وليس هذا مَدْعَاة لترك تلاوة القرآن لِمَن هذه أحوالهم، ولكن المقصود التَّحذِير مِن الاستِمْرَار علَىٰ المُخالفَة، والمُسارَعة بالتَّوبة؛ لِيَنال قاريء القرآن أجْرَ تِلَاوته بكَمال حَالتِه.

(١) في «ق»: [العَزِيزِ] بالجر، وهو خطأ.

- وَاجْتِنَابِ مَا نَهَىٰ عَنْهُ.

- وَلِلتَّخَلُّقِ بِمَا تَضَمَّنَتْهُ آيَاتُهُ الشَّرِيفَةُ مِنَ الأَخْلَاقِ الكَرِيمَةِ.

فَاقْرَأْ القُرْآنَ بِقَصْدِ امْتِثَالِ أَمْرِهِ، وَاجْتِنَابِ نَهْيِهِ، وَالتَّخَلُّقِ بِأَخْلَاقِهِ.

يَا بُنَيَّ: حَاسِبْ نَفْسَكَ عَلَىٰ مَا فَعَلْتَ قَبْلَ أَنْ يُحَاسِبَكَ مَوْلَاكَ[1].

---

(١) هَلُمَّ إلىٰ مُحاسَبة النَّـفْس، هَذِه العِبَادة التي كادت أنْ تَمُوت إنْ لم تَكُن! وقد دَأَبَ السَّلفُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عليها، ومَا أدراك ما السَّلَف؟! ثُمَّ مَا أدراك ما السَّلف؟! أولئك قَومٌ تعَلَّقت قلوبهم بالله؛ فكانوا أجسَادًا في الأرض، وقلوبًا في السَّماء، ومَا إنْ يَحْصُل مِن أحَدِهِم تقصِيرٌ إلَّا ويُسَارع بمعَالجة.. أو لنفسه مُعاقبة؛ حتَّىٰ كبَحُوا جِمَاح أنفسهم؛ فلَا تكاد تأمُرهُم إلَّا بخير.

ولعَلِّي أقتَصِر علَىٰ نُقولَات مختصراتٍ عَجْلَىٰ عن القوم الكرام؛ لعَلَّها تُحَرِّك القلوب، وتَشْحَذ النُّفوس، وتُسْهِم في تربية المسلم لنفسه؛ فَعِش معَها وتأمَّل:

قال عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حَاسِبُوا أنفسكم قَبْل أنْ تُحَاسَبُوا، وَزِنُوا أنفسكم قبل أنْ تُوزَنُوا، فإنَّهُ أهْوَن عليكم في الحِسَاب غدًا أنْ تُحَاسِبُوا أنفُسَكُم اليوم، وتزَيَّنوا للعَرْض الأكبَر، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ١٨﴾»، «حلية الأولياء» (١/ ٥٢).

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **يخلو بنفسه ويقول**: «عُمَر!! أمير المؤمنين!! بَخٍ بَخٍ!!، والله بُنَيَّ الخطَّاب، لَتَـتَّقِينَّ الله أو ليُعذِّبنَّك»، «الزهد» للإمام أحمد (١١٥).

وكان الأحنف بن قيس رَحِمَهُ اللَّهُ يصلي بالليل، ويَجِيء إلىٰ المِصبَاح فيضع إصْبَعه فيه حتىٰ يحس بالنار، ثُم يقول لنفسه: «يَا حُنَيْف! مَا حمَلكَ علَىٰ ما صنَعْتَ يوم كذا؟ مَا حمَلكَ علَىٰ ما صنعت يوم كذا؟»، «ذم الهوىٰ» لابن الجوزي (ص٤٤).

وقال مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ: «رَحِمَ اللهُ عبدًا قال لنَفْسِه النَّفِيسَة: ألَسْتِ صَاحِبَة كذا؟ =

فَإِذَا خَلَوْتَ بِنَفْسِكَ عِنْدَ النَّوْمِ: فَاذْكُرْ مَا صَنَعْتَ فِي يَوْمِكَ وَلَيْلَتِكَ، فَإِنْ رَأَيْتَ خَيْرًا؛ فَاحْمَدِ اللهَ عَلَىٰ تَوْفِيقِهِ، وَإِنْ رَأَيْتَ شَرًّا؛ فَافْزَعْ إِلَىٰ التَّوْبَةِ وَالنَّدَمِ، وَعَاهِدْ مَوْلَاكَ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعُودَ، وَاسْتَغْفِرْ رَبَّكَ كَثِيرًا؛ لَعَلَّ[(١)] اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَتَكَ، وَيَغْفِرُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ.

يَا بُنَيَّ: أَكْثِرْ مِنَ الابْتِهَالِ إِلَىٰ اللهِ، وَالدَّعَوَاتِ الصَّالِحَاتِ لِنَفْسِكَ، وَلِأَبَوَيْكَ، وَلِإِخْوَانِكَ الْمُؤْمِنِينَ[(٢)].

= أَلَسْتِ صَاحِبَة كذا؟ ثُمَّ ذَمَّها، ثُمَّ خطمَها [أي: قهرها وأوقفها]، ثُم أَلْزَمها كِتَاب الله؛ فكان لها قائدًا»، «محاسبة النفس» لابن أبي الدنيا (٢٦).

وقال مَيْمُون بن مِهْرَان: «لَا يَكُون الرَّجُل تقِيًّا حتَّىٰ يَكُونَ لنَفْسِه أشَد مُحاسبةً مِن الشَّرِيك لِشَرِيكِه»، «محاسبة النفس» (٢٥).

فيَا طَالِبَ النَّجاة، كُن قوَّامًا علَىٰ نَفْسِك، مُراقبًا لهَا؛ فإنَّما يخفُّ الحِسَاب علَىٰ مَن أَلْجمَها وحاسَبَها، ويشقُّ علىٰ مَن تركَ لِجامها ولم يُحاسِبْهَا، ويَتُوب اللهُ علَىٰ مَن تَاب.

(١) في «ق»: [وَلَعَلَّ].

(٢) **أولًا، أُحِبُّ تَقْدِيم الدُّعاء لِلوَالِدَيْن؛ فهُما سببُ وُجُودِك بعد تَقْدِيره سُبحانه، وحُقوقُهما تَالِيةٌ بَعْد حَقِّه تعالىٰ؛ فلذلك هُو مِن البِرِّ، سَواءٌ كانَا حيَّيْن أو ميِّتَيْن، فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ:** ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

وأخرج مسلم (١٦٣١) من حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، أنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: **«إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ، إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ».**

=

وَقُلْ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠ رَبَّنَا

= وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَتُرْفَعُ دَرَجَتُهُ فِي الجَنَّةِ، فيَقُولُ: أَنَّىٰ هَذَا؟ فيُقَالُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ»، أخرجه ابن ماجه (٣٦٦٠)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٥٩٨).

ثانيًا، الدُّعَاء للنَّفس المُتحَقِّقة إجابته؛ لأنه دعاء المُسلِم لأخيه المُسلِم: وهُوَ أَنْفَع وأرجَىٰ للإجابة؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَعْوَةُ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ، كُلَّمَا دَعَا لِأَخِيهِ بِخَيْرٍ، قَالَ الْمَلَكُ الْمُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ**»، أخرجه مسلم (٢٧٣٣) من حديث أمِّ الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في «شرح مسلم» (١٧/ ٤٩): «وكَان بَعْضُ السَّلف إِذَا أراد أنْ يدْعُوَ لِنفسِه؛ يَدْعُو لِأَخِيهِ الْمُسْلِمِ بِتِلْكَ الدَّعْوَة؛ لِأَنَّهَا تُسْتَجَاب، وَيَحْصُل لَهُ مِثْلهَا».

ثالثًا، الدُّعاء والاستِغفَار للمؤمنين والمؤمنات: وهُوَ مِن دُعاء الرُّسل والأنبيَاء -عليهم الصلاة والسلام-، وأيضًا مِن دُعاء الصَّالحين.

فقد أَمَر الله نبيَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو، فقال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، وحكاه الله عن الصالحين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٠﴾.

رابعًا، اقتِرَان الدُّعاء للنَّفس بالدُّعاء للوالدين، وسائر المؤمنين: فقَدْ دعَا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

ودعَا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ۝٤١﴾.

وبهذا، ختَم الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ كتابَه، وبه أختم حواشِيَّ، واللهُ حَسْبي ونِعْمَ الوَكِيل.

﴿ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١﴾ [إبراهيم: ٤٠، ٤١].

اللَّهُمَّ بِرَحْمَتِكَ عُمَّنَا، وَاكْفِنَا شَرَّ مَا أَهَمَّنَا، وَعَلَىٰ الإِيمَانِ الكَامِلِ وَالكِتَابِ وَالسُّنَّةِ تَوَفَّنَا وَأَنْتَ رَاضٍ عَنَّا.

اغْفِرْ اللَّهُمَّ لَنَا، وَلِوَالِدِينَا، وَلِمَشَايِخِنَا، وَلِإِخْوَانِنَا فِي اللهِ تَعَالَىٰ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا، وَلِكَافَّةِ المُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ.

﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٢﴾ [الصافات: ١٨٠ - ١٨٢][1].

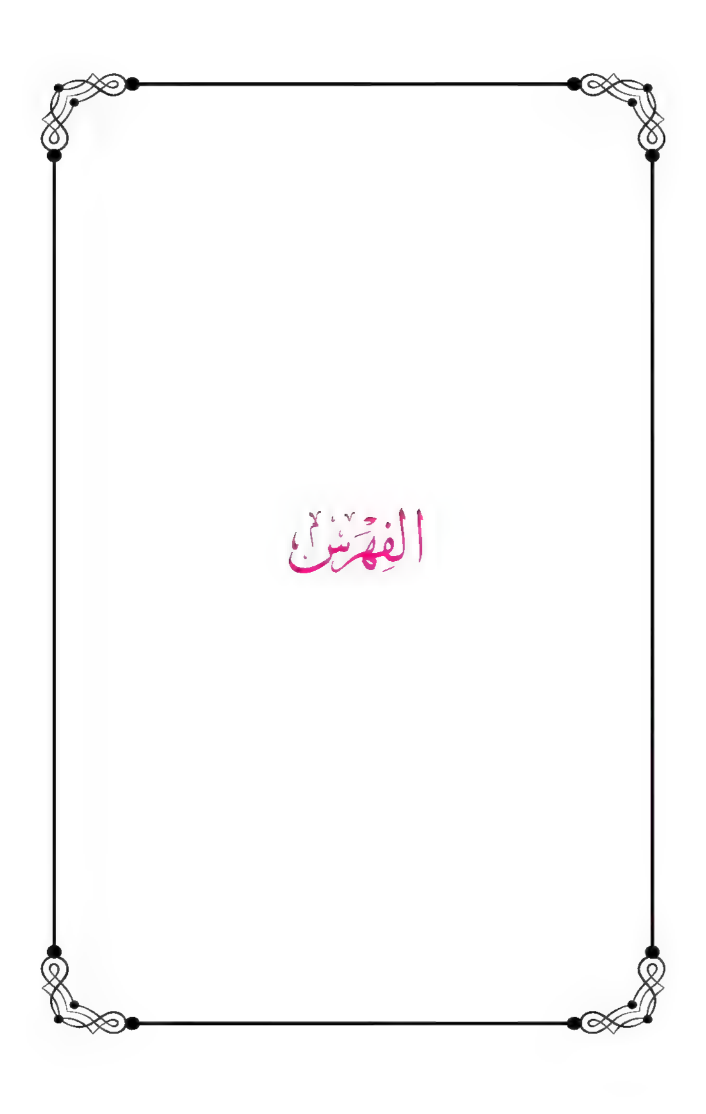
وَكَانَ الفَرَاغُ مِنْ تَحْرِيرِهِ فِي شَهْرِ (ذِي القَعْدَةِ) الحَرَامِ، سَنَة (١٣٢٦) هِجْرِيَّة عَلَىٰ يَدِ أَفْقَرِ العِبَادِ، وأحْوَجِهِم إِلَىٰ رَحْمةِ مَوْلَاه

محمد شاكر

شيخ عُلمَاء الإِسْكَندرِيَّة

والحمْدُ لله أوَّلًا وآخِرًا

(١) إلىٰ هنا انتهت النسخة «ق»، أمَّا قوله: «وَكَانَ الفَرَاغُ مِنْ تَحْرِيرِهِ...» إلخ، فقد أثبتَه الشَّيخ عبد القادر في نسخة «ع».


الفهرس

فهرس الموضوعات